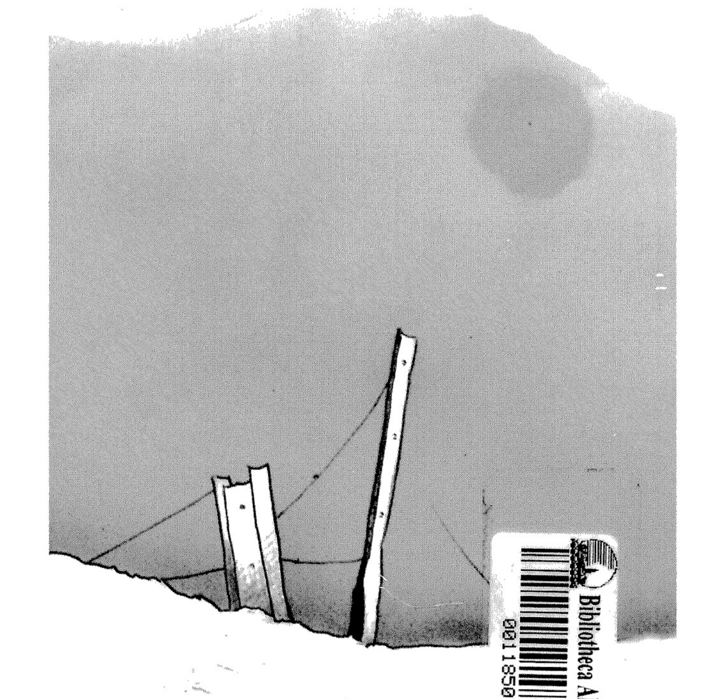


إدوار الخراط

ترابها زعفران

رواية

دار المستقبل العربي للنشر

ترابــــها زعفران

روابة

دار الأحمدى للنشر

القاهرة : ١٥ ش عبد الخالق ثروت ـ تليفاكس / ٥٧٥٨٠٩٨

المنيـــا : ٧٣ طه حسين ـ تليفاكس / ٣٤٧٨٠٢

الطبعة الأولى : يناير ١٩٩٩

رقم الإيـــداع : ١٦١٩ / ٩٩

الترقيم الدولى : 7 - 12 - 5887 - 977

طبع وفصل ألوان : **عربية للطباعة والنشر**

العنوان : ٧ ـ ١٠ شارع السلام ـ أرض اللواء ـ المهندسين

تليفون : ٣٢٥٦٠٩٨ ـ ٣٢٥١٠٤٣

تصميم الغلاف : **الفنان جوْدة خليفة**

إدوار الخراط

ترابها زعفران

رواية





• ليست هذه النصوص سيرة ذاتية ، ولاشيئاً قريباً منها . ففيها من شَطْح الخيال ، ومن صنعة الفن ما يشطّ بها كثيراً عن ذلك .

• فيها أوهام – أحداث ، ورؤى – شخوص ، ونُوَيّات من الوقائع هي أحلام ، وسحابات من الذكريات التي كان ينبغي أن تقع ولكنها لم تحدث أبداً.

• لعلها أن تكون صيرورة ، لاسيرة ، وليست ، فقط ، ذاتية .

• هي وَجْد ، وفقدان ، بالمدينة الرخامية ، البيضاء – الزرقاء ، التي ينسجها القلب باستمرار ، ويطفو دائما على وجهها الُمزبِد المضيء .

• اسكندرية ، يا اسكندرية ، أنتِ لستِ ، فقط ، لؤلؤة العمر الصلبة في محارتها غير المفضوضة .

• مع ذلك ، أنشودتي إليك ليست إلا غمغمةً وهينمة .

ادوار الخراط

١) السحاب الأبيض الجامح

عدت إلى شارع راغب باشا . كان الكوبري الصغير مفتوحاً ، ومياه ترعة المحمودية تحته حمراء ، وكنت أعرف أنها تدور حول قوائم الكوبري في دوامات متقلبة . كنت أقف في أول عربة من عربات الكارّو الطويلة ، قدماي متشبثتان بالخشب ، خلف الحصانين القويين بينهما قائم التعريشة الطويلة ، أرى الذيول المقوسة مليئة بالشعر الأشقر ، و الكفلين الدائريين بلونهما الأصهب عليهما ندى لامع من العرق ، الرأسان بعيدان ، محنّيان ، في الأمام ، أسمع الحمحمة الغضوب المكتومة بجهد .

من كان إلى جانبي يمسك بالأعنّة ؟ وجوه مليء بالسيطرة والتحكم ، لكنني لا أكاد أراه مع ذلك ، أعرف فقط أنه إلى جانبي في نور الصبح تحت سحاب الإسكندرية الوضيء الرقيق الذي ينساب بسرعة في السماء الصافية .

كنا نقف أمام وابور الدقيق ، أحجار جداره العالي باللون الأحمر الكابي ، تقطعه شبابيك طويلة عليها قضبان حديدية رفيعة سوداء من ورائها عتمة الداخل التي تصدر عنها أصوات الماكينات تدقّ دقّات مسدودة الصدى بإصرار .

وكنت أعرف أنني تركت غيط العنب وشارع راغب من زمن بعيد وأنني مع ذلك مازلت هناك .

كانت العربة محملة " بالشوالات " البيضاء ، تفوح منها رائحة الدقيق المطحون حديثاً ، أما الباب المكون من ضلفة حديدية واحدة عريضة بعجلات تنزلق على قضيب في الأرض ، وعلى الرصيف ميزان قباني ضخم ليس على أرضيته المعدنية الرصاصية اللون شئ . ذراعه الطويلة ممدودة ومائلة

في آخرها الصنجة الحديدية مدورة من الجانبين وحافتها العلوية – والسفلية – مقطوعة وحادة .

وكان آخر الحمالين يضع آخر " الشوالات " على آخرالعربة . كانوا سُمْر الوجوه، صخريين ، يرتدون شوالات فارغة ، من الخيش ، مقصوصة من الجانبين ، تبرز منها الأذرع الناحلة المفتولة ، عارية حتى الكتف .

كنت أعرف أن الباب يفضي إلى طرقة طويلة مبلطة تقف إلى جانبها الغرابيل الأسطوانية الضخمة ، في الظل ، تحت سقف مائل من الحديد المموّج، وأن أشعة الشمس تسقط في أعمدة مخروطية تتسع إلى أسفل وتقطع العتمة . وتطير داخل هذه المخروطات من النور ذرات الدقيق الدقيقة المتقلّبة لا تنقطع عن الصعود والهبوط والدوران . وإلى اليسار كنت أرى الماكينات والتروس الدائرية الكبيرة والأقماع المفلطحة الفوهات والسيور الجلدية العريضة التي تتوتّر مشدودة ممتدّة في الفراغ حتى تصل إلى الطارات الدوارة فتحتضنها وتدور معها ، والمواسير الضخمة فوق الطرقة تربط بين البناء الرئيسي وبين الغرابيل التي تهتز في عتمة العنبر المستطيل .

كانت أمي ترسلني إلى الوابور أشترى كيلة دقيق ونصف كيلة ردّة ، من كشك خشبي أخضر اللون من داخل الباب ، فيه صعيديّ عجوز مكسور الأسنان يضع على رأسة الجاف عمامة وحول رقبته كوفيّة صوف، صيفاً وشتاءً على السواء . وكان يكيل لي الدقيق والردّة ، بجاروف حديدي كبير كلاً منهما في صندوق خشبي عالٍ مائل الفتحة ، ويضعهما في كيسين من الورق الأصفر الداكن ، أحسّ بثقلهما على ذراعيّ ، وأنا أحملهما إلى صدري، وبقليل من الخجل .

ولكن الكوبري كان مقطوعاً والترام يلفّ القضبان الدائرية ويعود ، وعليّ أن أنتظر حتى يقوم حسين أفندي بإغلاقه ، فأعبره ، وأسير قليلاً في شارع الترام ، وانعطف يميناً إلى بيتنا في شارع الكروم .

وكان يسحرني دائماً دوران التروس الحديدية ، المعشّقة تحت جسم الكوبري ، وانطباق أرضية الكوبري ، إذ تنزلق ببطء حتى تلتقي بأرضية الشارع ، بإحكام ، لا يبقى بينهما إلا خط دقيق جداً كالشعرة ، أري منه ماء المحمودية يبرق وينساب بسرعة .

وكانت بائعات الفجل اليانع العريض الورق برؤوسه الباهتة والليمون البنزهير والمش في قِصاعه البنية الصغيرة والبصل الأخضر والكرات المرشوش بالماء ، يجلسن على رأس الكوبري ، على التراب ، بملابسهنّ السوداء ، والطرح المغبرّة التي تنتهي بربطة عمامة مربعة على الرأس ، ويرضعن أولادهن الذين يناموون وقد انطبقت أفواههم على أثداء مكشوفة متهدلة من شقّ طوليّ في جانب الجلابية الواسعة.

كنا نسكن في الدور الثالث من البيت ، وأمامنا السطح الذي كانت أمي تربى فيه البطّ والفراخ ، وتربط خروف العيد . وكان للسطح سور قصير أشبّ برأسي فوقه لكي أطلّ على حديقة كثيفة مستطيلة الشكل ، ضيقة ، بين بيتنا وحائط البيت المجاور ، وفيها نخل ترتفع شواشيه حتى تستند إلى الحائط العالي المقابل ، وتحته زرع غامض وأصص ريحان وعتر متزاحمة ، وكان للجنينة باب داخلي يفتح على الشقة التحتانية ، وليس لها باب على الشارع .

وكان حسين أفندي يسكن في الشقة التي تحتنا مباشرة ، في أول كاط ، وكان أحمر الوجه دائماً ، قصير ومدمك وله كرش صغير ، ويلبس الطربوش المكوي على الزاوية الصحيحة دائماً ، ويمسك بعصا من خشب الجوز اللامع

ذي العقد . وكنت أراه في بيتهم أحياناً بالجلابية البيضاء النظيفة وكان يضحك معي ويعاكسني ، بطيبة قلب ، بصوته الأحش المرح .

لم يكن عنده أولاد ، وكانت زوجته الست وهيبة صديقة أمي جداً ، وكانت تقول لها أحياناً إن نبيهّم أوصاهم بنا وأن عيسى نبيّنا هو أيضاً رسول من عند الله مثل موسى وإبراهيم ، وكانت أمي تحلف لها أحياناً بالمسيح ابن الله الحيّ ، وكانتا تضحكان معاً على أشياء لا أعرفها يقولانها بهمس ، وتنتهي زيارتها اليومية لنا بأن تقّبل أحداهما الأخرى ، وكنتُ أستغرب قليلاً لأنهما تضعان الخد بإزاء الخدّ ، وتمصمصان بالشفتين تضمانهما على شكل التقبيل تماماً لكنها ليست قبلة بالفعل .

وسمعت أمي وست وهيبة تتحدثان همساً عن السكان الجدد الذين جاءوا في الشقة التحتانية المطلة على الجنينة وسمعت الست وهيبة تقول إن ذلك في وجهنا ويجب أن نفعل شيئاً .

كانت الشقّة التحتانية دائماً مغلقة الشبابيك ، وكنت وأنا أعود من المدرسة أرى الباب موارباً قليلاً و ألمح وراءه حسنية .

كنت أرها ، نحيلة ، شعرها الحالك مربوط بمدورة بيضاء ، وصغيرة الجسم ولا تكبرني ربما إلا بسنين قليلة ، وأحس أن فيها شيئاً ما يجذبني وأحّبه جداً.

كانت تجلس على كرسي خيزران أمام مائدة رخامية واسعة القرص عليها مفرش أبيض مخّرم ومشغول ، وهي في قميص نوم واسع عليها وقصير لا يصل إلى ركبتيها، مفتوحة الرجلين تمدّهما أمامها بتعب واسترخاء . وعندما تحس بي تستدير بوجهها إليّ من العتمة الخفيفية التي فيها نور خافت كأنه أخضر اللون يأتي من باب الجنينة الداخليّ ، وأنا في الفسحة الرطبة البلاط بعد الباب الخارجي ، أمام الدرجة العريضة الأولى من السلّم ، أرى عينيها

الواسعتين في وجهها الحادّ المخروطيّ العظم منتفختين ولكن حاجبيها كانا مقوسين ورفيعين جداً على محجري العينين .

وكنت أرى أمها الكبيرة في السن ، قوية الجسم وسمينة جداً تخرج من البيت بعد الظهر ، لا تلبس ملاية بل دائماً بفستان مشجر واحد وفي إحدى ساقيها خلخال غليظ من الفضّة يحبك كاحلها المتورم على الشكربينة القماشية ذات الكعب المنخفض .

كانت حسنية ، في الأول ، تومئ لي برأسها على سبيل التحية ، فأجرى أصعد السلالم ووجهي أحسّه ممتلئاً بالدم لا أعرف إن كنت قد رددت عليها التحية أم هربت .

وفي مرة أشارت إليّ تدعوني بإصبعها ، برفق ، فخطوت إليها متردداً ووقفت خارج باب شقّتها ، وكانت في قميصها الواسع القصير ، من نسيج حريري أبيض له وبرة ناعمة ممسوحة من القدم وكثرة اللبس .

قالت لي : تعالى يا حبيبي ، تعال . بصوت مبحوح كأنه مدعوك قليلاً .

وقالت : تروح تشترى لي باتنين مليم كراملة من عند حسني البقال ؟

أومأت برأسي موافقاً ، وكان ريقي قد جفّ ، وجريت بسرعة ، ومعي كتب المدرسة ، وفي غمضّة عين كنت قد عدت ، فقامت إليّ وأعطتني حبة كراملة برتقالية اللون ، سداسية الأضلاع ، وعليها وجه " أبو الهول " فتياً وله لحية ، بارزاً ونصف شفاف . وفجأة مدّت ذراعها الرفيعة وضمّت رأسي إليها ، ووقع وجهي تحت ثديها الحرّ الذي أحسسته لدناً ومتماسكاً وصغيراً وضغطت رأسي إلى أضلاع صدرها اليابسة من فوق القميص اللّين النسيج .

وأفلتّ منها ، وقلبي يدقّ وأنا أصعد السلّم جرياً .

فقالت أمي ضاحكة مني وهي تفتح الباب : مالك ؟ هو أنت شفت عفريت في عز الضهر ولا ايه ؟ ادخل اغسل وشك ادخل ..

واحتفظت بالكراملة ، لففتها في ورقة فضة ، ووضعتها في علبة دخان الغزالة الذي كان جدّي يصنع منه سجائره اللفّ ، وكنت أحتفظ فيها بكنوز طفولتي : عظمة كعب بيضاء ، وقوقعة ملفوفة الطبقات من الشاطىء، وخمس بليات رقراقة الألوان كالجواهر المخطّطة المشلّلة بالأزرق والأصفر ، وزلَطة رمادية ناعمة الجسم ، وشرائح من فيلم أسود أحّبها عليه صور متعاقبة لتوم ميكس على حصانه لا تكاد تتغيّر مع أنه يجرى . وظللت أحتفظ بقطعة الحلوى حتى بعد أن ذهبت حسنية ، وبعد أن بهت لونها البرتقالي وساحت حواف صورة أبي الهول ، ثم أكلتها غاضباً .

كنت أحبها وكنت أيضاً أخاف من شيء ما مكتوم في همود جسدها الرفيع المهدود .

قالت لي مرة ، وهي لا تنظر إلىّ ، إنها تسافر في الليل ، وتروح بعيداً جداً وأن سفر الليل متعب ولا تطلع له شمس .

وخيل إلىّ أنني فهمت ، وأنها ربما تذهب إلى محطة مصر وتقضى الليل مسافرة في القطار وتعود قبل الصبح . وكنت أصدق هذا وأعرف في الوقت نفسه أنها لا تترك البيت أبداً .

وقالت : ربنا يتوب علينا من سفر الليالي .

وكنت في تلك الأيام أقرأ الكتاب المقدّس الكبير بغلافه الأسود المنقوش بزخرفة بارزة قد بهتت قليلاً ، من الجلدة للجلدة ، بإصرار الإصحاح بعد الإصحاح . وكنت لا أفهم كثيراً تعقيدات العهد القديم والأسماء الكثيرة

فيه ، وأحلم مع نشيد الإنشاد وأبكي كثيراً عندما أقرأ عن صلب المسيح وكيف تعذب ومات على الصليب من أجلنا . وكان سرّ المسيح يُمضّ قلبي ويحمله عبئاً لا يعرفه أحد .

وكنت أنزل عند ست وهيبة أستلف من عندهم روايات روكامبول وفانتوماس وجرجي زيدان ونقولا رزق الله التي كان يشتريها سي حسني أخو حسين أفندي ويضعها في سحّارة خشبية صغيرة جنب سريره . وقرأت من عنده رواية سافو في طبعة كبيرة غلافها رمادي كالح وعليه اسم المؤلف بالمطبعة بالبنط الثلث الطويل القائم العود . وأشعلت الرواية حواسيّ وازدحم بها خيالي .

كان سي حسني عنده دكان بقاله على قمة الشارع الآخر الذي تطل عليه شرفة بيتنا ، وكان طول النهار في دكانه . وكان طويلاً ووسيماً وخشن الشعر ولم يكن يكلمني كثيراً . كانت ست وهيبة هي التي تعطيني كتبه ، وأحياناً تتركني أدخل لكي أفتش في السحارة وأنتقي ما أريد ، وهي تقف ورائي بجلابية النوم الخفيفة ، ممتلئة الجسد وأنثوية ، وصدرها وافر وأسمر وناعم الجلد أراه من فتحة الجلابية ، عالياً عني ، يهتز بثقل واطمئنان .

كان لدخول البيت عندهم ، دائماً ، رهبة في قلبي ، إحساس مثير ووجل وسعيد كأن فيه إثما ومتعة ، إحساس بالجوّ السرّي الخاص لبيتهم ، وأنهم ينامون ويأكلون ويعيشون معاً ، مجهولين ، بطريقة لا أعرفها ، وعيب أن تعرف ماذا يفعلون ، في ملابسهم التي لا تراها أبداً خارج البيت ، ولما كانوا مسلمين أيضاً فقد كان في ذلك عنصر آخر من عناصر الستر والرهبة والغموض الجذاب .

كنت ألمح حسين أفندي نائماً أثناء النهار ، على السرير الكبير في الغرفة الأخرى ، تحت غرفة أبي وأمي ، استعداداً لدورية الليل عندما يقوم ليفتح

الكوبري كانت ست وهيبة عندما أدق الباب تفتح الشراعة الزجاجية وتراني وتردّها وتفتح لي الباب وأعرف أنها خارجة من عنده ، أنفاسها متسارعة قليلاً ووجهها الطيب مضرج السمرة وهي تسوّى شعرها الخشن الوحشيّ الشكل بذراعها الملفوفة فيظهر لي جانب صغير خفي من صدرها بين الأبط والثدي عندما أرفع إليها عيني ، وتقول لي : يوه الله يجازى شيطانك يا ميخائيل ، عايز كتاب تاني ؟ هو أنت ما تشبعش روايات ؟ تعال يا حبيبي ادخل . وكانت لها عندئذ رائحة خصيبة ومليئة كرائحة العجين الخمران ، فأدخل بسرعة وأنا خجل ومُستثار ، واسأل نفسي ترى أين هو شيطاني وكيف هو ؟ وأنسى ذلك كله وأنا أقلب في الكتب ، ومازالت رهبة الدخول إلى شقق الغرباء عندي حيّة حتى الآن ، وكأنني أخطو إلى عالم آخر ينذرني، ويناديني ، ويصدّني معاً بما يحمل من خطر .

وفي يوم مسح السلالم كانت أمي تملأ الجردل الحديدي بالماء من حنفية الحمام ، وتحمله إلى البسطة وتصبّه فيتدفق على درجات السلّم وهو ينزل بصوت التطام متكرر بهيج ، ثم تقعى على رجليها تمسحه بالخيشة الداكنة سلّمة سلّمة حتى باب الست وهيبة التي تكون تنتظر وهي تضحك وتقول: ياختي حاسبي يا ست أم ميخائيل، على مهلك شوية ، عيني عليك باردة ، ثم تنحني وهيَّ ترفع طرف جلابيتها البيتى عن ساقين ممتلئتين سمراوين وهي تنظر إليّ بخجل أراه غريباً جداً ، وتكمل المسح حتى الشقة التحتانية ، وتتأخر الست أم حسنية كثيراً فيظل الماء محصوراً في برك صغيرة عكرة على البلاط، وبعد الغذاء فقط عندما أنزل لشراء حاجة أرى مدخل البيت والبسطة التحتانية تلمع ورطبة .

وكانت ست وهيبة تجلس بعد ذلك ، وقد غيّرت جلابيتها المبلولة وغسلت شعرها ، مع أمي ، تثرثران وتشربان القهوة على الكنبة الأسطمبولى

المفروشة بملاءة بيضاء متعضّنة على المرتبة القطن المنجدّة، وفي وسطها مخدتـان صغيرتان صلبتان جداً إحداهما فوق الأخرى تميل عليها الست وهيبة بجنبها وهي تتكلم . وأنـا أعطيها ظهري ، أذاكـر وأعمـل تمارين الإنجليزي علـى مائدتي الرخاميـة البيضاويـة الشـكل المفروشـة بـورق الجرائـد ، مسـنودة إلى الحائط ، رُصّـت عليها كتبي المدرسية وكراريسـي في رصّتـين متسـاويتين ، وبينهما رواية من روايات الجيب مخبأة بعناية وقد نزعت غلافهـا الملـون حتـى لا يفضحني بصورة الغانيـة الزرقـاء الممشـوقة جـداً يلفّهـا رداء عـاري الظهـر بحّمالة واحدة وينسدل الرداء طويلاً متموجاً برشاقة حتـى آخـر الغـلاف مـن تحت .

كنت أسترق السمع إلى حديثهما الهـامس ، وأنـا أنقـل تصـاريف الأفعـال الإنجليزية ، بالريشة ذات السّن النحاسية الرفيعة التي تنـزل منهـا فجـأة قطـرة مدوّرة من الحبر فتتشـعّع علـى الـورق قبـل أن ألحقهـا بالنشـافة . وعرفـت أن العربجية من الإصطبل الذي أمامنا يدخلون الشقّة التحتانية بالليل ، ويخرجـون بعد ساعة أو ساعات ، واحداً بعد الآخر ، وأن رائحة الحشيش تعبـق في بـير السـلم حتـى الصبـح ، وهمسـت سـتّ وهيبـة بصـوت أجـش قليـلاً وملـيء بالحرارة: ومش بس العربجية ياختي ، دول بيجبولهم زبـاين مـن القهـوة اللـي على المحمودية في أنصاص الليالي ، ولا كوم بكير .وكان للكلام الغريب وقـع غامض في نفسي ولم أجرؤ أن أسأل . فقد حدست طبعـا أن فيـه ممـا يحـدث بين الرجال والنساء ما يروّع .

كان في هذه الغرفة " جرامفون " علـى شـكل صنـدوق مربـع ، موضـوع على " كومودنيو" ببابين ، من الخشب الداكن اللامـع وعليـه زخرفـة نباتيـة معشّقة من الخشب الأصفر ، وفوقه البوق الذي تنفتح فوهته وتبدأ دقيقـة ثـم تتسع حتى تنفرج ضافية الاستدارة . وكان على الاسطوانات السـوداء كلـب

يضع فمه في بوق آخر يشبه بوق "الجرامفون " الذي عندنا تماماً ، ومكتوب تحته صوت سيده ، ويحّيرني أنه ينبح داخل البوق بصوت سيده ، ومَن سيده؟ بينما كانت الاسطوانة تدور ببطء وقتذاك بصوت سريع رفيع : بيضافون تقدم الأستاذ محمد عبد الوهاب ثم يرتفع صوته الحلو الذي يخشخش بأغنية عن النيل نجاشي حليوه أسمر ، ثم تخفت الأغنية حتى ندير المقبض ونملأ " الجرامفون " من جديد .

تنفتح غرفتي هذه على باب شرفة طويلة مقفلة عليها تعريشة خشبية مسقوفة تغطيها من كل الجوانب ولها نافذتان صغيرتان تطلان على الإصطبل الذي تقف فيه بالليل عربتنا " حنطور " وأربعة خيول ، وأكوام رطبة الشكل زهمة من البرسيم ، وعجلات مخلوعة ، تحت سقف مائل مقطوع قائم على أربعة أعمدة حجرية قصيرة . للإصطبل بوّابة خشبية عريضة وواطئة تفتح على رحبة ترتفع قليلاً واسعة من غير انتظام ، بين الإصطبل والبيوت ، ثم تخلص إلى حارة ضيقة تعلو أرضها ثم تهبط ، أخيراً إلى شارع الترعة المحمودية. وحافة الترعة العريضة النازلة إلى الماء مزروعة بالجرجير والخس والفجل الذي كنت أشتريه لأمي من فلاّح يلبس قميصاً خشناً كالح الزرقة من غير أكمام ، قصير على رجلية العظمّيتين السوداوين يخرج إليّ كالعفريت من خصّ صغير جداً بناه من الطين والقش تحت جسر الترعة ، وكانت يداه كبيرتين وصلبتين وأصابعه قصيرة ومقّوسة .

كنت نائماً على السرير الكبير ذي الأعمدة السوداء في نهايتها العساكر النحاسية المتخلخلة التي كنت أفكها أحياناً وألعب بها وأُركِبها بسرعة قبل أن يعرف أحد ، وأخواتي البنات نائمات جنبي من ناحية الحائط ، عايدة التي كنت أحبّها ، وهناء الصغيرة .

وعندما استيقظت فجأة وسط الليل على صوت خبط سريع ملهوف على باب الشقة ، كانت لمبة الجاز نمرة خمسة معلقة بالحائط وفتيلتها منخفضة ، من وراء بطن زجاجتها الرشيقة تلقى ظلالاً مهتزّة على أركان الغرفة ، وسمعت أبي يقوم من السرير في الغرفة الكبيرة المقابلة ، ورأيته يمرّ في الفسحة ، وهو يلفّ على نفسه طرفي القفطان الصعيدي المفتوح ويربط حبله المضفور الرفيع حول وسطه ، ويسرع إلى الباب ، ومن ورائه أمي بجلابية نومها ، تحمل " لمبة " الجاز الكبيرة "نمرة عشرة " وتلحق به ، حافية على بلاط الفسحة .

كنت قد تيقظت تماماً الآن ، وأنا أرتجف قليلاً من الترقب والخوف والمفاجأة ، وأختاي نائمتان جنبي .

سمعت صوت حسنَية بالباب ، خافتاً وحاراً ، متضرَعاً :

– في عرضك يا سِيدى ، اتستر عليَّ ربنا ما يفضح لك ولية . خبّيني عندك في عرضك ، أبوس رجليك .

وسمعت صوت أبي ، أجشّ من النوم ، طيباً وعذباً جداً ، بلهجته الصعيدية التي لم يغيّرها طول عمره :

– باسم الأب والابن والروح الجُدُس . ادخلي يا بنتي ، ادخلي . لا حول ولا جوة إلا بالله . مالك يا بنتي ، فيه إيه ؟

وسمعت حسنية تتوسّل ، تكاد تجهش :

– البوليس ، يا عم قلدس ، ورايا . غلبانة يا عمي والله ، مظلومة ، خبّيني في عرضك أبوس رجليك ، في عرضك .

الباب يُردّ والخطوات مضطربة ومتلاحقة ، وأمي تدخل عليّ " باللمبة " الكبيرة . وفي همس سريع ، أبي يقول لها : ادخلي يا بنتي . ادخلي في السرير

جنب الأولاد . واتغطّي . وكأنما يقول لنفسه ، أو يقول لامرأته بصوت خاص به وحده : ربنا أمر بالستر . ربنا يستر على ولايانا .

أما أمي فقد رأيتها في الظلال والنور المتراوح متنمرة لامعة العينين متوتّرة وهمست لأبي : الولد ! فأغمضت عيني وجمدت . عندما فتحت عيني رأيت حسنية تنزلق بجانبي في قميصها الأبيض الواسع الذي أعرفه ، شعرها مهوش وعيناها واسعتان من الخوف ، وكانت حافية . وتقلبت عايدة قليلاً وتنهدت في نومها . واحتضنتني حسنية ، وأحسست كل جارحة فيها تنتفض كأنها لا تملك أن تردّها ، وكان جسمها بارداً .

في الهدوء الليلي الخارجي سمعت وقع سنابك الخيل على الشارع المدكوك بالحجر الأبيض الدقيق والتراب الرملي وضجة أصوات مختلطة . وخبط يأتي على باب الشقة التحتانية ، ثم خطوات ثقيلة وسريعة تعلو على السلم ، وباب شقة وهيبة يفتح ، وطرقات ملحة عنيفة على بابنا . لم أستطع أن أقاوم، فقفزت من السرير ، بجلابيتي البيضاء الحرير ، ولكنني شددت الملاءة وغطيتها ، وجريت إلى الباب .

وعندما فتح أبي الباب اندفع إلى داخل الشقة كونستابل فارع الطول بملابس الركوب ، والحزام الجلدي السميك والبنطلون الضيق ، شاهراً في يده إلى الأمام المسدس الحكومي جسيماً ومنتصباً وشريراً، ووراءه مخبران بالأحذية الميري الثقيلة والبالطو الإفرنجي على الجلابية البلدي ، وعصا الجوز الغليظة المقوسة اليد .

وعندما رأى الكونستابل أبي ، نحيلاً وقائم العود وفيه كبرياء الصعيدي ، رافع الرأس ، وأمي من ورائه واضح أنها تيقظت على الفور من النوم ، وأنا، تردد لحظة ، ثم توقف متحيراً قليلاً وقال :

– لا مؤاخذة يابا . لا مؤاخذة . ماحدش دخل عندكم دلوقتي ؟

قال أبي بثبات ، هادئ الصوت :

– حد مين يابني في الساعة دي ؟ خير .. إيه الحكاية ؟

صرخت أختي هناء الصغيرة في نومها صرخة صغيرة فجرت أمي إليها ومعها اللمبة وتركتنا في العتمة المضطربة ، مع البوليس .

قال الكونستابل وقد بدأ يحس أنه سخيف ومقتحم :

– أبداً أنا بس قلبي عليكم يا عمي . انتو ناس طيبين . لا مؤاخذة جاتنا إخبارية عن الشقة التحتانية عندكم . نصيحة يابا خلّ بالك . ما تدخّلش حد عندك لا مؤاخذة . اقفلوا الباب عليكم . تصبحوا على خير .

سمعتهم ينزلون ببطء وسمعت الحصان الميرى في الليل تتباعد دقات سنابكه على شارعنا .

قال لها أبي : انزلي يا بنتي خلاص . ربنا يهديك وينور لك سكتك . أنزلي ربنا معاك .

كانت تبكى من غير دموع وتشهق بجفاف ، محنية الرأس واندفعت تخطف يد أبي تبوسها بسرعة كالملسوع وهو يقول بصوت خفيض متتابع النبرات : سامحني يا رب سامحني يا رب سامحنى يا رب .

وكنت أطل عليها وهي تنزل السلم ، ورأيت ست وهيبة تنظر إليها من خلف الباب الموارب الذي يلقى على بسطة السلم خطاً مرتعشاً من النور .

وأنا أرجع للسرير رأيت أبي في غرفة نومه ، يرسم الصليب على وجهه ، ويصلّى .

وفي الصبح لم نجد أثراً لحسنية ولا لأمها التي قالت الست وهيبة إنها لم تكن أمها ولا حاجة . كانوا قد لموا عزالهم في عربة كارو وتركوا الشارع وكنت أفكر فيها وأشتاق إليها .

وعندما عرفت أن البوليس لم يدخل شقة الست وهيبة ، و لم يسألها عن شئ سطع لذهني همسها لأمي ، وفهمت ، وكنت لا أريد أن أراها .

ودون أن أحس كانت العربة قد انتُسِفت من الأرض وانطلقت يجرّها الحصانان الغاضبان بفتوة وعرامة الجموح ، وأنا أسمع قرقعات العجلات الخشبية المكسوة بطبقة رقيقة من الصاج على أحجار البازلت السوداء ، وكانت حسنية مرمية تحت سنابك الخيل الحديدية التي تطأ عظام صدرها وعيناها مسددتان إليّ من الأرض ، صلبتين وينسكب منهما حنان صامت لا أريده . وينفجر دق العجلات والحوافر متلاحقة ، والعربة الكارو المحملة بشوالات الدقيق تدور ، تعلو تهبط ، ولا تتوقف ، تعود مرة ثانية أمام باب وابور الدقيق الضخم ، وتدور أمام الكوبرى المفتوح ، وقد سقطت إلى الخلف على المقعد الخشبي ، وأتشبث بيدي بجانب العربة ليس بجانبي أحد ، ولا يتوقف جموح العربة ولكنه لا ينفلت بل هو محكوم .

وكنت أرى نفسي عندئذ والآن في حضيض وَهْدةِ الأشواق تنطلق بي الأحلام الوحشية التي لها وجه خيول الذكريات ، ضجيجها يكاد يطؤني .

وفي عتمة آخر العمر التي استضاءت فجأة بالحب الزاخر القابض الفسيح كنت أعرف أنني أعتنق أيضاً وهيبة وأتنسم عجينة أنوثتها . وكانت هناك ، في داخل لدونة جسدها الخصب ، حسنية المقهورة الحنون ، وكان شعرها القصير الخشن حياً تحت أصابعي ، وكنت أُحوّط عليها بذراعين دُقت فيهما المسامير ، مطعون الجنب بالحربة يتقطر مني دم نزر .

٢) بار صغير في باب الكراسته

مازلتُ أذرع شوارع غيط العنب ، كما كنت أعرفها وأنا في مدرسة النيل الابتدائية ، واسعة ، نظيفة ، مستقيمة ، أرضها من الحجر المدكوك الملتصق به تراب رملي جاف ، والشجر على الأرصفة أمام البيوت المنخفضة، وفيها رائحة الملاّحة الرطبة تأتي من وراء سور السكة الحديد .

شارع " الترامواي " وحده كان مكسواً بالأسفلت الأسود الصقيل تشقّه قضبان الترام اللامعة الجديدة ، وكنا نسير ، أنا وأمي ، أمام مطعم الفول الذي كنا نسمّيه التركي ، وكان فسيحاً ومبلطاً ببلاط أبيض وأسود ، وبابه، ذو المصراعين الزجاجيين اللذين يبرقان ، عريض جداً ، ووراءه مباشرة بجانب المنصّة الرخامية الطويلة ، قدرة الفول النحاسية الهائلة . وكان يعلق صورة الملك فؤاد جامد الوجه ببدلة التشريفة والشارب والنياشين ، وبجانبها صورة الملكة نازلي وعلى شعرها المرفوع في شكل هالة صلبة مرتفعةٍ تاجُ نصفيّ صغير وعلى الجدران الأخرى صور تلمع من تحت إطاراتها الزجاجية، فيها سْبع يرفع سيفاً ، وأبونا آدم وأمنا حواء ، مطرودين من الجنة ، عاريين إلا من ورقة التوت ، والحّية ملفوفة بنظام هندسي حول الشجرة والخليل إبراهيم يرفع سكيناً ليذبح ابنه إسحاق بينما الخروف واقف والملاك نازل من السماء، ألوانها زرقاء وخضراء يانعة وخطوطها رفيعة مسطحة ، وكنت أذهب إليه أشتري باتنين مليم فول في السلطانية الصيني الغويطة ، ويغرف لي بمغرفته الطويلة البيضاء من قلب القدرة ، وعندما أقول " أتوصَّ " يضيف غَرْفة صغيرة أخرى وهو يبتسم لي من أعلى ، من تحت شاربيه البيضاويين المصفرّين، وعيناه النافذتان الغائرتان تبتسمان لي أيضاً من عمق وجهه

الصخريّ العظام الشاهقِ البياض ، وفوقه صورة أتاتورك بالقلبق الفَرو الداكن والنظرة الصارمة . وكانت الموائد الخشبية ، عند التركي ، داكنة ومرصوصة في المحل بنظام ، وقد دُعِكت في الخشب طبقة من اللمعان المشقّق من كثرة المسح ، من غير مفارش .

وكنت أعرف أن اليوم هو ١١ بؤونة ، وأن غداً هو عيد الملاك ميخائيل . وكنا نذهب ، أنا وأميّ ، لنشترى زيت السيرج الذي ستصنع به فطير الملاك . وكانت السيرجة بعيدة عليّ ، في شارع جانبيّ ناحية غربال ، لم أكن، لوحدي ، أستطيع أن اذهب إليه .

وكانت أمي تخرج أيضاً بالملابس الإفرنجي ، ولكنها هذه المرة كعادتها في مشاوير غيط العنب ، لبست ملاءتها السوداء الناعمة النسيج ، لفّتها على نفسها بإحكام ورشاقة ، والبرقع الخفيف الأسود المخرَّم وعليه القصبة الذهبية المدورة عليها خطوط عرضية بارزة فوق الأنف ، وكانت بيضاء الوجه من وراء شبكة البرقع الهفهاف ، وتقاطيعها عذبة ، وأنا أمشي بجوارها، تمسك بيدي بقوة ، وتسير على حذائها المرتفع الكعب ، وكنت أحسها جميلة جداً في الشوارع الجانبية الهادئة التي يظللها الشجر ، وكنت أنا ألبس جلابية فاتحة الزرقة عليها خطوط طولية حريرية داكنة الزرقة ، وحذاءً أسود جديداً متين الجلد والشراب القصير عليه حلقة " أستك" عريضة بيضاء ماسكةً بشدة على منتصف رجلي .

كان الصبح غير حارّ ، والبيوت حوالينا من دور أو دورين ، بعضها له جنائن فيها تعريشات العنب الذي مازال بعناقيده الصغيرة الملتمّ بعضها إلى بعض بحصرم دقيق ومدبب صلب الخضرة .

حَوَّدنا إلى حارة ضيّقة ، ورأيت أن الأرض مبلّلة ببقع سوداء داكنة منداّة على التراب أمام " السيرجة " ، ونزلنا درجتين من الحجر تعجّنت عليهما

طبقة غير مستوية من التراب وعَقَدَت . واشتدت قبضة أمي على يـدي حتى لا أنزلق .

انفسحت أمامي رَحَبة معتمة عالية السقف ، وفيها أعمدة مبنية من الحجر الخشن العاري ، مربعة الأضلاع ، وعلى الحائط شوالات الخيش المكتنزة بالسمسم ، مرصوصاً بعضها فوق بعض ، ولدنة الانبعاجات ، وفَغَمَتْني رائحة الزيت المعصور اللزجة النفاذة ، ولها عبق حلو سكّري قليلاً ، وكان هناك بغل عريض الكفلين ، مغمى العينين ، واقفاً مدكوك الجسم ، بجانب عَجَلة المعصرة الخشبية السوداء الضخمة التي لا تتحرك الآن .

ورأيت أنني قد انزلقَتْ بي السلالم ، وكنت أتدحرج في العتمة وحدي ، لا أحس احتكاكاً بشيء ولا يخدشني شئ ، وأنا مازلت أهوى وكأنني أطير إلى أسفل ، وبلا وزن ، والبغل المربوط إلى حجر المعصرة الضخم يدور في العمق تحتي ، من بعيد ، وتتزايد سرعته ، كأنما يُحَلّق في دورانه ، من غير صوت ، وسرعة دورانه أكبر وأكبر ، حتى أصبحت العتمة نوراً صافياً غريباً ليس من هذه الأرض .

وهناك أيضاً رصّة صفائح بيضاء عالية تومض في العتمة رقيقة الجوانب كأنني أحس الزيت المعبأ فيها يترقرق تحت الصفيح النّاعم الساكن الذي لا يكاد يتذبذب من ضغط السائل المحبوس في داخله .

وفي آخر هذه الساحة السفلية المعتمة سرنا حتى وصلنا إلى مائدة خشبية غليظة الأرجل عليها دفاتر حسابات ضخمة كعوبها الدائرية بالجلد الأسود السميك ، ورصَّة أوراق الفواتير ، ومحبرة عريضة من الزجاج الكثيف المُرْبَدّ فيها ثلاث عيون مدورة إحداها مليئة بالحبر الأزرق وعلى سطحه غشاوة خفيفة من التراب ، والثانية فارغة وفيها دبابيس وأسنان الريَش ، والثالثة فيها

طبقة مترسبة وعليها سائل الحبر الأحمر ، وريشتان من الخشب الأسود لهما أسنان مفلطحة تنتهي بذؤابات رفيعة ملّوثة بالحبر .

نهض من وراء المائدة رَجُلٌ طويل نحيل الوجه ، يلبس عمامة صعيدية رقيقة من القماش دخانية اللون ، وقفطانه مفتوح الرقبة تنتهي أكمامه باتساع كبير على معصميه الرقيقين وأصابعه الطويلة ، وقال : يا أهلاً وسهلاً شرفتِ يا ست سوسن نوّرتِ السيرجة اتفضلي . كل سنة وأنتم طيبين ، وهو يُخرج منديلاً كبيراً من جيب قفطانه ، مربَّع النقوش ، ويمسح به بقوة المقعدَ القش المحدَّب قليلاً في الكرسي الوحيد الموضوع أمام المائدة ، وأمي تقول له ، بصوت بارد وكأن فيه عدم تصديق : وأنت طيب ، كَتّرّ خيرك يا معلم عوض ، وازي المحروس اسكندر ؟

جلست أمي على الكرسي بحذر ، وانحسرت ملاءتها عن فستانها الذي كان بلون سمني ليس ضيقاً ولا واسعاً بل فقط موُحٍ وأنثوي ، ووقفت وعيناي معلقتان بالحيوان الواقف جنب المعصرة ، ركيناً وقريباً من الأرض ، وخطمه يعمل بإصرار في مخِلاة التبن الذي تناثرت أعوادُ جافةُ منه على الأرض الغمقة الموحلة قليلاً بالزيت .

قال المعلم عوض : بخير يا ست سوسن بخير ، نشكر الرب .. اسكندر .. يا واد اسكندر ، تعال سلّم على خالتك أُمّ ميخائيل .

وجاء من جوف " السيرجة " ولد في مثل سنّي ، محروق الوجه وجافّ ، على جلابيته بقع حائلة ، وسلّمَ على أمي بغضب وصمت ، ولم ينظر إليّ ، وجرى راجعاً إلى ما وراء الأعمدة الثقيلة المربعة .

وكان في أركان " السيرجة " رجالنائمون على " شوالات " فارغة على الأرض أو مستندون بظهورهم إلى أكوام " شوالات " السمسم المليئة ، وتصدر عنهم أصوات غطيطٍ خفيف أو أنين خافت مكتوم ، وفهمت بقليل

من الرعب ، أنهم لابد قد سهروا طول الليل يحملون ويَخْتلون ويعصرون ، حتى الفجر .

كانت صفيحة " السيرج " الصغيرة ثقيلة مع ذلك في يدي والحلقة المستطيلة التي أحملها منها ، مصنوعةً من معدن مدور رفيع ، تهُدِّد بالانخلاع وتحزّ في باطن أصابعي وتحرقها قليلاً ، وقالت أمي ونحن في طريق العودة: تِقيلة عليك يا ميخائيل ؟ فقلت بشجاعة : لا أبداً ، وأنا أغالب وجع الحزّ في أصابعي والخَدَر في ذراعي لأنني فرحان بعيد رئيس الملائكة الذي كنت منذوراً له ، وكنت أعرف أنه هو الذي دحرج الحجر الضخم عن فتحة قبر المسيح القائم من بين الأموات .

وفي البيت كانت أمي تصبّ " السيرج " من الصفيحة إلى طشت أبيض صغير لتُصفّية من عكارة السمسم الدقيقة العالقة به ، وكان الزيت ثقيلاً ولونه أصفر عجيب الصفاء وله قوام شفاف متموِّج ومتماسك .

وفي الليل قامت أمي تُقرِّص فطير الملاك في الشرفة الواسعة العالية المُطلّة على الشارع الناعم ، وتضغط على كل قرص بالخشبة المدورة الممسوحة بالسيرج ، التي عليها خطوط غائرة خشنة الحدود تعطى صورة للملاك يحمل الميزان وحوله فروع نباتات دائرية ، وكلمات بالقبطية عرفت أخيراً أنها يسوع المسيح ابن الله وفوقها الصليب القبطي المُورق الأطراف . ورأيت القمر مستديراً كامل الفضة كأنه بأب القلب المفتوح في السماء .

وفي الصبح أعطاني أبي عيديّتى ، أنا وحدي ، حِتّه بخمسة ، فضية جديدة عليها طغراء باسم السلطان حسين ، وقّبلني على جبهتي ونزل للشغل ، وبعد أن رجعنا من الكنيسة قالت أمي إننا سنذهب لخالي حنّا نسلّم عليهم ونعطيهم فطير الملاك ، وخرجْنا حتى شارع " الترامواى " وكانت هناك أمام الكراكون ثلاث أربع عربات حنطور واقفة ، وساومت أمي العربجي حتى

وافق على ثلاثة صاغ وكان يلف رأسه بشال مخطط وملون ووجه أعجف مُخَدَّد وفيه تَرَفُّع ، ويكحّ بشدة من وقت إلى آخر ، وكنت مُحْبطَاً قليلاً لأنني لا أستطيع ، هذه المرة ، أن أركب بجانب العربجي ، ووراء الحصان من فوق ، لأنني كنت أحمل بين ذراعيّ أقراص الفطير ، ملفوفةً بورق من مجلة قديمة وعليها فوطة بيضاء ، وكنت أحسّ بالفطير ، من وراء الورق والقماش هشاً سريعاً إلى الانكسار ، وأحرص ألا يصطدم بشيء ، وكان العربجي يسابق ترام محرم بك وهو يقرقع بالكرباج فوق ظهر الحصان الذي له لون " الكونياك " الفاتح الذي يشربه أبي ، وكانت عجلات العربة تقرقع على قضبان الترام التي تومض في الشمس .

ودخلت العربة إلى شارع الرصّافة ، وكانت الأشجار ظليلة في الصبح والشمس تهتزّ من بين أوراقها التي لها رقرقةُ سريعةُ الموج وجافة في الهواء الرطب . ثم حوَّدَت العربة إلى شارع جانبي ترابي ولكنه واسع ، وفيه خرابات مسورة بالحجر الأبيض الكبير المكسر الضلوع وفي الحجر خطوط متعرجة داكنة اللون ، وفيه بيوت كالسرايات لها أسوار حديدية تتهدّل عليها أغصان كثيفة وتهبّ منها رائحة الياسمين البلدي العبقة ورائحة الأرض المبلولة.

نزلنا أمام سور البيت . وكانت أمي تلبس فستانها السمني اللون من غير ملاءة ، وتضع قبعة صغيرة من القماش " البيج " الفاتح وعليه عنقود صغير، مرتّب بمكر ، من حبوب الكريز الاصطناعية وزهور قاتمة الحمرة على أغصان رقيقة جداً خضراء ، مشبوكة كلها بالقبعة بدبوس مذهّب في غاية الدقة .

كان الباب الذي وقفنا أمامه ضيّقاً وعالياً ومصنوعاً من الحديد المشغول الصدئ ، ودفعناه من غير أن ندق عليه فانفتح ، ببطء ، عن ممرٍ عرضي ضيّق يحيط بالبيت ، مزروع . وكانت هناك وراء الباب ، مباشرة من الداخل ،

حنفية ماء غليظة الفوّهة قائمة على عمود رفيع قصير ، ينزل منها سلسال أبيض مُزْبد مستمر تكونت تحته بِركة صغيرة موحلة .

وصعدنا ثلاث درجات حجرية إلى باب البيت المقفل المصنوع من الخشب البنيّ السميك وعليه كرانيش طولية وعرضية ومثلثات بارزة من الخشب نفسه وله نافذة من الزجاج المحبّب غير الشفاف تُفْتح من الداخل ، وكان في الجنينة العرضية الضيقة بين السور الحجري وحائط البيت ثلاث نخلات طويلة ، تنبثق متلاصقة الجذور ، وتَتَفرع جذوعها الخشنة المضلّعة الحواف ثابتة في انشعابها ، مائلة متباعدة بعضها عن بعض وسعفها العالي يهتز في الهواء بعيداً فوق سطح البيت المنخفض الطويل .

فتحت لنا الباب أوجا بنت خالي حنّا ، وكانت طويلة وبيضاء وجاحظة العينين ، وتلبس جلابية فلاحي من قماش مشجَّر ، وانحنت عليّ وقبّلتني بفمها الواسع وأسنانها البارزة الموحية بطيب القلب ، وأحسست بثقل ثدييها بصلابة ، على وجهي و هي تميل عليّ بشفتيها الكبيرتين ، ونَشقْتُ منها ريحاً حريفة غامضة ، وكنت أتعجب ، عندما سارت أمامنا ونحن ندخل البيت ، من أن عجيزتها مدورة وملفوفة وليس لها جانبان مشقوقان بل هي كتلة واحدة مكورة . وكانت كبيرة السنّ وأمي تقول عنها إن عندها ثلاثين سنة وأكثر وإنها عنّست يا حرام .

وكان البيت معتماً وفيه رائحة عَطَن مُترب خفيف من السجاجيد المفروشة والأثاث الخشبي الثقيل الذي لا يَرَى الشمس ، وعلى جانبي الفَسَحة الطويلة التي دخلناها أبواب غرف متقابلة مقفلة تنسدل عليها ستائر من القطيفة الداكنة الحمراء الحائلة اللون ، كل ستارة منها مفتوحة إلى جانبين مرفوعين ومثبتين بمقابض نحاسية لامعة على عارضي الباب ، ولهما شراشيب كثيرة الخيوط من نفس لون الستارة ، وعلى الحيطان الملساء المدهونة بالزيت،

الداكنة الصفرة ، صور قديمة بيضاوية ، باللون البنيّ " السيبيا " الفاتح ، في إطارات بيضاوية أيضاً لرجال بطرابيش تركية قصيرة وياقات صلبة منشّاة وشوارب كثيفة مستدقّة الأطراف ، وفي سقف الفسحة نجفة كبيرة مطفأة ورائحة خاصة هي رائحة العزّ الرثّ القديم المختبئ الذي لا نعرفه في بيتنا أمام " وابور " الدقيق في غيط العنب ، بحجراته المتقاطعة المفتوحة الأبواب دائماً ، المنيرة بضوء الشمس ، التي نسكنها نحن وأخوالي وزوجاتهم وجدّي وجدّتي كلهم معنا ، ولا نحس بالزحمة ولا الضيق بل الحياة في براح .

خرج إلينا من إحدى الغرف الداخلية حنّا بيه خال أمي الذي قالت لي إنه موظف كبير قد الدنيا في الحكومة وأنه عضو أيضاً في المجلس الملّي . كان عجوزاً قائم العود نحيلاً ، خشبيَّ الحركة ، يتوكأ على عصا أبنوس رفيعة وصلبة ، في جلباب أبيض ناصع له ياقة عالية يابسة ملفوفة حول عنقه الرفيع المتهدّل الجلد كعنق ديك ، وله عينان غائرتان في محجريهما متألّقتان بسوادٍ ضيق اللمعان ، كان فيهما نوع آخرمن الحياة الحادة ، وعندما مدَّ إليَّ يده أحسست ببرودة العظام الجافة وخشونة الجلد القديم ، وقال لي مباشر: إنت كويس في المدرسة يا ولد ؟ وكنت لا أحبه ولا أكرهه ولا أحس أنه يهمني في شئ وكأنه بالفعل ميّت من الآن ولا ضرورة له ، وكنت أعرف أنه غنيّ جداً وبخيل جلُدة وأن له أرضاً في الطرّانة قرية أمي ، تعيش على ريعها أختاه العجوزان جداً اللتان لم أعرفهما إلا بعد ذلك بسنين في أيام الحرب فقالت أمي : اسم الصليب عليه بيطلع الأول في الفصل ، فزامَ حنّا بيه من وراء شفتيه المضمومتين الذابلتين كأنهما ورقة شجر صفراء تحت شاربه الأبيض المصفّر من الدخان ، ونظر إلى أمي دون قبول ، نظرة اتهام خفيّة بل إدانة ، كأنه لا يُصدِق ، فأحسست بالغضب ، ليس لي ، بل لها .

كانت أمي قد انقطعت عن صناعة فطير الملاك منذ الحرب ، والغلاء ، وشُح السمسم ، ونسيتُ كل شيء عنه ، تقريباً . ودخلت جامعة فاروق الأول ومات أبي في ليلة باردة جداً من ديسمبر ، في أثناء الحرب ، وحصلت على "مجانية فقر" أو " مجانية كارثة " كما كانت تسمى ، لكي أكمل دراستي في كلية الهندسة ، واشتغلت ، مع دراستي ، في مخازن البحرية البريطانية في كفر عشري ، مساعداً لأمين المخزن ، وكنت أذهب إلى المخزن وأمرّ بالحارس اليوناني الذي يقف على الباب الحديدي الضخم الجرار ، وأنا أعلق شارة معدنية سوداء مكتوباً عليها بالإنجليزية " الجلاء " على " جاكتتى" الزرقاء الطويلة وقد اشترتها لي أمي من الملابس المستعملة التي أرسلها الأمريكان كمعونة والتي لم يكن عندي غيرها ، وأخلعها وأعلقها على مسمار بحيث تظهر الشارةُ واضحةً للعيان ، وألبس القميص الأبيض و " الشورت " البحّارى من عهدة المخزن ، وكنت أرسم علامة المنجل والمطرقة عليها رقم ٤ بالإنجليزية والهلال بنجومه الثلاثة على الحاجز الخشبي الرقيق الذي يفصل بين الركن الذي فيه مائدة من الصاج هي مكتبي ، وبين مكتب المستر لي ، أمين المخزن الذي جاء من جنوب لندن وكان يعمل في مخازن البحرية البريطانية من قبل الحرب . وكان مكتبه أنيقاً وله واجهة زجاجية من عمل الأسطى مرسى البحار الذي يشتغل معنا . وكان مستر لي، من وراء نظارته السميكة المدورة ، ووجهه المكتنز المحمر ، والشرايين الدقيقة على أنفه ، وهو يلبس أيضاً " الشورت " البحاري الأبيض على كرشه الصغير المدور ، يقول لي خسارة أن مصرياً شاباً ذكياً يدرس الهندسة ويمكن أن ينفع نفسه وبلاده يضيع وقته في السياسة ، ويقول لي إننى سأعقل بعد أن أحصل على درجتي الجامعية . وانخرطتُ في مظاهرات ١٩٤٦ وشهدت

اعتصام الطلبة وحصار الجيش لربوة العباسية فى محـرم بـك بدباباتـه الصغـيرة الصفراء ذات المدافع الرقيقة ، أراها من فوق ، كأنها لُعَب .

وانتهت الحرب وأغلقت مخازن البحرية البريطانية في كفر عَشْري وذهـب الإنجليز بعضهم إلى بلاده وبعضهم إلى ثكنات قنال السـويس وتخرجتُ مـن كلية الهندسة وقضيتُ سنةً ونصفاً أبحث عن عمل وأعطى دروساً في الحساب والرياضـة لتلاميـذ الابتدائـي والثـانوي وأترجـم وثـائق الكيميـاء والميكانيكـا لمكتب لبراءات الاختراع يملكه مالطي يهودي عجوز قصير متين الجسم يتكلم بالإنجليزية بلهجة الملايطة بصوت عال أجش من جوفه ، ووجدتُ نفسـي في قلب الحركة الثورية التي كانت تجيش بها البلاد .

كان اسكندر عوض قـد وأعدنـي باللقـاء في بـار " الكراسـتة " في الرابعـة والنصـف بعـد الظهـر . كنـت قـد رأيتـه يسـير إلى جـانبي ، ويهتـف بحـرارة " الموت للإنجليز " .. " يسقط الاستعمار " في مظاهرة شـارع سـعيد الكبـيرة التي رأيت فيها صبياً يموت برصاص " التومى جَنْ " ويحمله الناس وهـو ميّـت على الأكتاف. وجاء إليّ في القهوة الصغيرة التي جلست فيها أشـهق وأشـرب كوب ماء ، وعرَّفني بنفسه وقال إنه وطـني ويحـب الوطنيـين وكـان يخيـل إليّ أنني أعرفه بشكلٍ ما ولكنى لم أتذكر أبداً . وكان يكتب شعراً ثورياً سـاذجاً باللغة العامية ، فيه أصداء من بيرم التونسي وحسين شفيق المصري وأبو بثينـة معاً ، عن غُلْب ومَجْدَعة أولاد البلد ، ويشتغل عنـد أرمنّـى يملـك "فابريكـة" بصطرمة " صغيرة في كوم الناضورة . وعندمـا كنـت أذهـب للقائـه في المحـل المظلم الذي تدور فيه " مكنـة " عتيقـة ذات سـكين حـادة ضخمـة دوّارة أي كتل " البصطرمة " النيئة المدروة معلقة على الحبال كالغسيل تجـف وتسـتوي في الهواء والشـمس علـى التـل الـترابي القليـل الارتفـاع ، فـوق سـقف المحـل الداخل في الربوة ، والأعلام الملونة وكرة كبيرة سوداء معلقـة في أعلـى كـوم

الناضورة . وكنت أكلمه عن حركة الوطن ودور الطبقة العاملة وعن القيمة وفائض العمل وعن ثورة أكتوبر وثورة سنة ١٩١٩ وعلاقة الأدب بالثورة . وكان في مثل سنيّ وقال إنه لم يكمل دراسته في مدرسة النيل الثانوية بغيط العنب لأن أباه كان عنده " فابريكة" صغيرة في غيط العنب وأفلس ومات . ومع ذلك لم أتذكر .

أخذت ترام " الورديان " ، وكانت عربة " الترام " تتأرجح قليلاً في اندفاعها. وكان شارع السَبَع بنات خالياً تقريباً من حرّ الظهر ، ورطوبة البحر تأتي إليَّ من نافذة الترام المفتوحة ، ونزلت بعد كركون اللبان بمحطتين. وكان الشارع مرصوفاً بأحجار البازلت السوداء المحدبة قليلاً وعلى جانبه مخازن الخشب والقطن العالية الحيطان ، والورش الصغيرة ، ومخازن الخيش والبصل ، وعربات الكارو الطويلة واقفة تحت الجدران المصمتة الخشنة القوية الحجر ، وكانت رائحة الفحم ونفايات البحر ، خفيفةً وحافةً قليلاً ، تأتي من ناحية الميناء تحملها بُلولة الهواء .

ولمحت البار في منعطفٍ داخل شارع جانبي ، اللافتة الخشبية على بابه مازالت حروفها الإنجليزية " بطاطس وسمك " مقروءة وإن كانت مطموسة تحت بقع مضطربة بالطلاء الأسود الذي لطّخها به الطلبة الوطنيون بلا شك وقد اقلع جنود الحرب الذين كانوا يملأون هذه النواحي بعربدة اليأس والقهر والموت .

دفعتُ الباب الخشبي القصير المكون من ضلفتين متحركتين وتستطيع أن تطل من فوقه على داخل البار الهادئ النور ، والمرايا على الحوائط مرسومة بإعلانات فيها زجاجة " كونياك أوتار" كأنها مجسّمة داخل المرآة ، وخلفها كتابة بالذهبي الباهت على أرضية سوداء مشقّقة ، والمرايا المقابلة تتراسل بزجاجة " الأوزو " و " براندى جناكليس " و " ويسكى الحصان الأبيض "

وكان البلاط الأسود الذي يكسو أرض " البار " باهتاً قليلاً والموائد الخشبية المربعة مصفوفةً تحت الحائطين القريبين أحدهما من الآخر ، ومنصة " البار" مغلقة بشبكةٍ نازلةٍ من الحديد ، في نهاية المحل ، وبجانبها باب خلفيّ صغير .

كان اسكندر عوض قد قال لي إن البوليس لا يمكن أن يشتبه في اجتماع ينعقد في بار صغير في باب الكراسته ، وقال لي إنه سيُحضر معه ملاحظ عمال من رصيف الفحم وإنه ولد " مجدع " ومثقف أيضاً ، وإن الحركة يجب أن تكون موجودة في عمال الميناء ، وإنني لو أحضرت معي شيئاً ، بيانات مثلاً أو مجلات أو كتباً ، ليقرأها الزميل الجديد ويقول عما فيها للعمال الآخرين في الميناء يكون هذا شيئاً عظيماً ويدفع الحركة إلى الأمام ، وشدد عليّ في هذا ، وكنت مع ذلك أتوخى معه الحذر الكامل وقواعد الأمان ولا أتحدث معه إلا بكلامٍ عام وأحرص ألا أشير اسم محدد أو مكان معروف أو أي ميعاد لأي نشاط ، ولم أقل له حتى عن أسمي وكان يعرفني باسم مستعار.

وعندما دخلت رأيته في عتمة آخر البار ومعه امرأة .

كان وجهه الطويل المتهضم لامعَ السمرة تقريباً في نور بعد الظهر الكابي وكان الجو في البار الخاوي منعشاً ببرودة خفيفة من البلاط والظل الرطيب بعد شمس الشارع .

قام اسكندر عوض يسلم عليّ ، وقال لها : الباشمهندس يوسف اللي كلمتك عنه . وهو يومئ إليها برأسه ، ثم همس إليّ : زيزي ، ما تخافش ، هي عارفة ، ومعانا بكل قلبها وحياة المسيح .

مدت إليَّ يدها وهي جالسة ، من فوق المائدة ، بين زجاجتَي البيرة " الاستيلا " وأكواب البيرة الطويلة ا لمكتوب عليها بالإنجليزية " زوتوس " وأحسست يدها رخوة وباردة وليس فيها عصَب ، كأنها سمكة بأصابع طويلة تنتهي " بالمانيكير " الاحمر القاني ، وكانت تلبس فستاناً ناعماً بلا

أكمام وفتحته تحت الذراعين واسعة تكشف جانباً من صدرها ، ولمحت الزغب الأصفر الخفيف الهش جداً على ذراعها الممدودة إليّ في النور الخفيف.

قالت ، مباشرة ، في هجوم جنسي واضح ومستقر وطيب القلب ، من أول وهلة:

- يا أهلا بالباشمهندس الحليوة الصُغّير بتاعنا ، أتفضل أتفضل ياحبيبي ...

وأحسست الدم يملأ وجهي ويطنّ في أذني ولكنني قررت أن هذه التحية ليس فيها ما يُضير بكرامتي وأن البنت على العكس تتحبب إليّ ، فغمغمتُ بكلمات مدغمة ، وانفجرتْ هي فجأة بضحكة صافية وبريئة وليس فيها أدنى شبهة من مهنتها .

كان هناك جزء صغير جداً بارزٌ إلى الأمام من شفتها العليا الرقيقة ، يُظلل أسنانها الصغيرة البيضاء ، وشفتها السفلى مليئة ، على العكس ، ونازلة تعطى وجهها إيحاء شهوياً صريحاً ، لكن شفتيها كانتا بريئتين تماماً مع ذلك ، وبلونهما الطبيعى ليس عليهما طلاء ، وشممت عطرها الجاف الرقيق عندما مدّت ذراعها إليّ ، وكان وجهها يقول إنها صَحَت من النوم متأخرة جداً ، عيناها منتفختان قليلاً وفيهما نظرة ثقيلة ، ويُوحى بأنوثةٍ كثيفة وحنوٍ كثيف.

وقال اسكندر عوض : تشرب ايه يا باشمهندس ؟

وصفّق وبرز من عتمة آخر البار " جرسون " يونانى عجوز وتحرك برشاقة وخفة ، يضع فوطة بيضاء على كتفة فوق " الجاكتة الأسموكن " السوداء ، وبنطلونه ضيق وطويل مخطط ، وجهه مُخَدَّد نظيف التجاعيد وعيناه مدفونتان . وكنت " بيوريتانيا " جداً في تلك الأيام ، لا أدخن ولا أشرب إلا نادراً ، ولا أعرف النسوان ، ولكني على سبيل التحدي ، طلبت براندى، وفي

ثانية كان " الجرسون " اليوناني يضع أمامي الكأس المفلطحة العريضة وثلثها يترقرق بالسائل الأصهب الثمين الشكل .

قلت له ماذا حدث ؟ ولماذا لم يأت صاحبنا ؟ فقال إنه لا بد سيأتى حالاً، وهل أحضرت معى الورق والأشياء ؟ فلم أرد عليه ، واقتربت زيزى منى بوجهها الأبيض المثقل وحاجبيها المقوسين الرفيعين جداً وسألتنى ، متودّدة ، أين أشتغل ؟ ومن أين أنا في اسكندرية ، ورددت عليها بكلام عام ، وكان صدرها المحبوك المستدير مستنداً إلى المائدة متكورا في داخل الفستان الخفيف الذي يكشف عن قميص داخلي أسود له شرايط من الدانتيلا يلّم الصدر الوافر الذي يبدو دسماً ومتحفظاً وبكْراً وفيه تأكيد خفيف للمرأة لا للأنثى . وكنت قلقاً وغير مستريح هي تتحدث عن الأحوال والشغل الذي اصبح خفيفاً ولا يساوى التعب والبهدلة ، وأحسست ساقها من تحت المائدة تمس ساقيّ وكان " البراندى " قد نزل حاراً إلى قلبى وأحسست بالصلابة والتوتّر الحميم بين ساقي ، ثم قامت فجأة ، ودارت حول المائدة ورفع اسكندر وجهه إليها مندهشاً متسائلاً ، ومدت إلىّ يدها وقالت بهدوء : تعالى معى.

ودارت بي خواطر مفاجئة ، وتجسمتْ في ذهنى ثم اختفت على الفور صورٌ مخطوفة من سافو دوديه ، ونانا زولا ، وغادة الكاميليا ، وغرفة زيزى التي تخيلّتها علوية على سلالم من وراء الباب الخلفى الصغير ، وستائرها خفيفة شفافة تطل على البحر وعلى بابِ القلب المفتوح وهَوَسِ الجنس وعربدته ، ومناعم الجسد كما رأيتها ، أول مرة ، في الراقصة البلدى ، عارية، وأنا في الثانية عشرة ، في فرح بجوار بيتنا في محرم بك . وارتعبتُ من احتمال الاصابة بمرض سرّى ، وفكرت أنني لا أحتمل أجرة العلاج ، ونفيتُ ذلك كله عن نفسى و لم أكد أخطو مع أوَّل خطوة ، وكأنما حَدَسَتْ ما

بنفسي فابتسمت لي عن أسنانها الصغيرة بغموض وغواية ، فهل كانت غرارتي وعنفُ براءتي هي ما أغواها ؟

ولكنني كنت صاحيا جداً مع ذلك ، وأنا أقوم معها ، والتفتت هي إلى اسكندر عوض بحسم ، وقالت : ايه يا سي اسكندر ؟ وأنت مالك ؟ خليك أنتَ هنا يا نور عينيَّ . وكانت يدي في يدها وهي تخرج من الباب الخلفي الصغير خلف البار ، ونزلنا درجتين حجرتين زلقتين من البلل وعشيتْ عيناي قليلاً من بهرة نور بعد الظهر ، ووجدت أنني معها في طرقة مبلّطة بين حائطين عاليين ، وصفائح " الزبالة " وصناديق " البيرة " المليئة بالزجاجات الفارغة إلى جانب الحائط ، وكانت الشمس تنزل ساخنة بين الحائطين المسدودين ، وباب حديدي أسود صغير مكتوب عليه بالأبيض GENTS بالإنجليزية ، ممسوحة وفوقها صورة بيضاء لرأس عليه خوذة عسكرية مُدوَّرة نظرتْ إليَّ وأنا واقف متحيراً في الطرقة وقالت ، غاضبة وحارّة بهمس خشن

– امشِ من هنا ، يالله رَوَّحْ من غير ما تسأل ، إمشِ يالله يا حبيبي إمشِ.

ولكنني أحسست فمها على خدي ، فجأة ، في قبلة خاطفة مُلِحّة ، ودفعتني بيدها ، برفق ، وأقفلت الباب عليها . وسطعَ في ذهني على الفور أنني نجوت من الكمين و لم أتذكر الملاك ميخائيل .

ووجدت نفسي أنهج قليلاً من المشي الجاد السريع ، في الترام العائد إلى المنشية ، وعرفت معنى الأمْنَ بين الناس الصامتين ، و لم أر اسكندر عوض بعد ذلك ، أبداً ، وبعدها بكثير تذكرت مرة واحدة ، وعرفت أن الخيانة ، والنقاوة ، لهما طرق خفيّة.

كنت قد نزلت من الترام ، وكنت أصعد على صقالة خشبية بها حزوز بارزة أُثبت بها قدميّ ، إلى المركب الصغير المربوط بالرصيف يتأرجح قليلاً

على المياه المخضرة الثقيلة القوام التي تطفو عليها ، وسط زَبَد أبيض كرغوة الصابون غير النظيفة ، عُكارة ، وأوراق خضروات ذابلة ، وقطع خشب عليها بقع زفت سوداء ، حول جنزير الهلب الساقط في العمق الداكن ، تبرق في موجه نُقَطُ حادة من شمس بعد الظهر ، وكأن زملائي من مدرسة النيل الابتدائية قد ابتعدوا عنيّ جداً ولكنني أسمع صوت أقدامهم تصعد السلالم الضيقّة إلى سطح المركب ، وضحكهم ولغَطَهم ونداءتهم ، وأعرف أن ذلك كان من زمن بعيد . وكان المركب خالياً تماماً ، وفجأة ، وأنا أجرى في ممرات تفتح على ممرات مفتوحة وفيها نوافذ زجاجية مدورة أي منها أمواج البحر الزرقاء العالية وجوانب البواخر الشاهقة ومداخنها العريضة وابراجها الثابتة ، ومازلت أجرى وأجد أمامي سلالم خشبية عالية تصعد إلى ما لانهاية، لا أصل إلى سطح المركب أبداً ، وكانت جدران المركب الداخلية بلون بنيّ فاتح جداً يكاد يكون أصفر ، ولامعة مصقولة تومض ، وأنا أجري ، بلا وزن ، على السلالم التي تصعد معي بلا نهاية ، وأسال نفسي من غير دهشة ، إلى أين تنتهي السلالم في هذا المركب الصغير الذي كنت أظن أنني سأقطعه ، طولاً وعرضاً ، في دقائق ، ولا أنهج ولا أحس ثقلاً ولا ضعفاً .

وأنا أجري الآن في ممر طويل ، على سطح المركب ، خشبه مبلول داكن اللون من الماء الذي تشرَّبه وينفث رائحة ملح البحر ، وصرخات النوارس تحوم حولي ثاقبة وجائعة ، تصعد وتحوم وتهبط على الموج الراكد حول خشب المركب الواقف ، وأنا أطل عليه فجأة من حاجز حديدي طويل .

وتنقض عليَّ نورسةُ سوداء ، صدرها صلب ومدور ومكتنز ، وفي منقارها الطويل الجارح رائحة أعشاب البحر الحادة ، وهي تنظر إليَّ بعينين حانيتين فيهما حُكْم عليَّ بالقتل .

٣) الموت على البحر

أرى الولد ، صغير الجسم ، ساقاه رفيعتان في " الشورت " الأبيض الواسع وقميصه مفتوح . عيناه كأنما فيهما نظرة متأمّلة ، مبكرة كثيراً عن سِنّه ، وهو يقف في أول الصبح على حافة البحر الموحش ، عند "المندرة ".

أمامه صفحة ساكنة وشاسعة ، مشعّة ولاتكاد تترقرق ، دسامةٌ بيضاء في الضوء الذي يكاد يكون شتوياً ، تنتهي برغوة شفّافة تغوص في الرمل بوشيش خفيض ، متكرّر .

أُحِسُّ ، عبر السنين الطويلة ، بالنداوة اللّينة تحت قدميه الحافيتين ، والهواء المبلول على وجهه .

وأجد أن الشوق ، مثل نزوع الموج ، يرتمي على الشطّ ممدود اليدين ، بلا تحقّق ، مثل اندفاع الماء ، مُستَنفَذاً بعد رحلة طويلة على ثَبَج الغُمر ، ينكص محسوراً أبداً إلى عرض اليمّ العميق ، ولا يفتأ يعلو وينحسر ، حلمه يأتي ويعود ، لا يهدأ إلى راحة ، وكأنه لم يترك خط النهاية المتعرِّج ، لحظةً واحدة.

في تلك الساعة لم يكن هناك غيره على الشاطئ الواسع .

وعلى مسافة كبيرة داخل هذا الامتداد الساكن المتسايل تحت سماء خفيفة اللون ، كنقطتين ، أراهما ، لا تكادان تتحرّكان ، أعرف أنهما أبي وأمي وحدهما في البُعد الفسيح ، وأريد أن يرجعا ، بسرعة ، إليّ .

يصل الموج الطفيف إلى قدميّ ، ويترك غشاء فضّياً رقيقاً لايكاد يجفّ ، وهو يلمع ، حتى يبتلّ من جديد بزبد يتقطّع ويذوب .

في تلك السنة أستأجرنا " كابينة " في مصيف أصدقاء الكتاب المقدّس في " المندرة " وكان للمصيف سور منخفض من الطوب الأحمر حول أرض واسعة ناعمة الرمل . وكنت أحبّ أن ألعبَّ تحت النخل العجوز العفيّ الخشن الخراشيف ، بين " الكباين " الخشبية المتناثرة من غيرنظام ، وأن أنظر إلى عناقيد البلح الأخضر المدوّر تقريباً بغضارته الكثيفة تحت السَعَف العريض وهو يهتزّ بأطرافه الشوكيّة المسّننة على زرقة السماء التي تكاد تكون بيضاء .
و كانت الفراخ تجري وتنقّ وتلقط أكلها من الرمل تحت النخل وحول الكباين " وتقُفل الباب الخشبيّ في السور ، عندما نجرى وراءها ، أنا وأمى ، لنمسك واحدة ، وتذبحها أمي بالسكّين الحادة التي تومض في الشمس ، وهي تقول " باسم الصليب وشارة الصليب كاك كاك إلهي يصبّرك على مابلاك "، ثم ترمي الفرخة على الرمل تصفي دمها وهي تجري قليلاً ثم تسقط وأجنحتها تتخبّط بجسمها .
وكنت أعدّ الأيام لأنني سأدخل المدرسة الثانوية بعد هذا المصيف مباشرة ، وأفرح بكل يوم جديد ، وكنت استوحش مع ذلك إلى أخواتي البنات عايدة وهناء ولويزة التي كبرت الآن وتمشي في البيت على رجليها غير الثابتتين وتصرخ وتقول بضع كلمات ، تركناهنّ في بيتنا في غيط العنب مع جدّتي أماليا وخالتى وديدة وخالتى سارة وأخوالي .
وكان أبي يأخذ حمَّام الصبح مع أمي ، مبكراً جداً قبل القهوة ، هو " بالمايوه " الأسود الطويل الطويل كـ " الفانلة " وجسمه كالعود مشدود وله عضلات جافّة ونحيلة وهي "بالمايوه" القماش ، الغامق الزرقة ، مقفل تماماً، له أكمام قصيرة مكشكشة عند أعلى الذراعين وينزل إلى الركبتين ، وكانت قد فصّلته وخيَّطته بنفسها على " الماكينة السينجر" القديمة الرفيعة البطن التي بهتت الكتابة الذهبية عليها ، قليلاً .

وأجري معهما ، وأنا لما أكد أصحو من النوم ، بـ " الشورت " الأبيض والقميص الخفيف ، نعبر " الكورنيش " اللامع السواد من أمام المصيف مباشرة ، هواء البحر البارد بعد كِنّ " الكابينة " ودفئها يصدم وجهي ، والسيارات قليلة جداً في هذه الساعة ، وننزل إلى الرمل الواسع المتحدِّر ، وليس فيه ولا شمسية ، وأقف على حافة الماء وأنتظرهما حتى يعودا من البحر وعلى ذراعي الفُوَط الطويلة الكثيفة الوبرة .

وتخرج أمي من البحر ، ناصعةً ومضيئة وناعمة ، وشعرها القصير المقصوص مبلول يقطر بالماء ، ويلحق بها أبي ، قائم العود ، ينظر اليها بحب وطيبة ، بعينيه الثاقبتين العميقتين في وجهه الحاد العظام . ويلتفّان بالفُوَط ، ونرجع جرياً إلى " الكابينة" .

وفي الدفء الذي يأتي من خشب الكابينة " المغلق ، يغيّران ، ونقعد لنفطر على الطبلّية المنخفضة ، وبعد الفطور نتربّع على الكليم الأسيوطى ، ويصنع أبي قهوته السادة بنفسه ، على " السبرتايه " الصغيرة بلهبها الأزرق يتراقص تحت الكنكة ، ويحكي لنا حكايات عن أيام شبابه عندما كان صرّافاً في الصعيد يطوف القرى حول إخميم على حماره الميري ، ليجمع ضريبة الحكومة من الفلاحين ، وكان يضع تحت لسانه فتفوته مكوّرة لدنه القوام يكحتها بعود كبريت من عجين أسود لزج ، في علبة صفيح مبطّطة صغيرة ، ثم يذهب فيأخذ " الأوتوبيس " إلى شُغله ولا يعود إلاّ على العشاء .

وأكون أنا قد أكلت من زمان ، وأكاد أسقط في النوم ، ولكني أنتظره وجسمي هادئ وثقيل بهذا التعب الحلو الذي يأتي من اللعب والجري على البحر طول النهار ، بينما هو يتعشىً على الطبلية المحمّلة بالعيش البلدي الطازج وورْك الفرخة والجبنة الرومي والبيض المسلوق مقشّراً ومقطوعاً إلى شقّين قد عصر عليهما الليمون ، ويشرب على العشاء ، كل ليلة ، ويصبّ

لي كأساً صغيرة من خمسينيّة " الكونياك " الصهباء اللون ، أُحسّ طعمها لاذعاً وممتعاً ، وأنا على مشارف النوم ، وهو يحكي مع أمي .

كان خالي ناثان يسوق " الأوتوبيس " الأخضر ، بهيكله المربّع ، على الكورنيش بين أول سيدي بشر والمندرة ، وكنت بعد الفطور مباشرة ألبس " المايوه " الضيِّق الذي يحبك عليَّ وقد صنعته لي خالتي وديدة من الصوف " التريكو " الأحمر ، تحت " الشورت " القطيفة الأسود الذي بحمّالات فيها زراير بيضاء كبيرة ، وأدسّ تحته القميص الحرير الياباني ، و أخرج جرياً من " الكابينة " وأمي تقول لي : " خلِّ بالك من الأوتومبيلات وأنت بتعدّي بُصّ يمين وشمال " وهي مشغولة أمام " وابور " الجاز تطبخ للغداء ، في "الكابينة" المعتمة قليلاً .

وأعبر الكورنيش ، بعد أن أنتظر ، واجف القلب ، حتى يخلو من السيارات القليلة ، وأثب إلى رصيف البحر ، وأمشي قليلاً إلى محطة الأوتوبيس ، فإذا جاء وقف لي حتى ولو لم يكن في المحطة غيري ، فأصعد الدرجة الحديدية التي كنت أجدها عالية قليلاً ، ويشير إليّ خالي ناثان بوجهه الصغير الأسمر المدوّر وعينيه الضيّقتين الحانيتين اللتين يمتلئ الجلد حولهما بالتجاعيد عندما يبتسم ، وأجلس بجانبه على كرسيّ صغير ليس له ظهر وكان هذا الحِّيز الضيِّق بجانب الباب في مقدمة السيارة الكبيرة ، دائماً ، دافئاً بسخونة المحرِّك وفيه رائحة بنزين ، وتسحرني شارات منصّة القيادة المسّطحة وعقاربها الصغيرة المضيئة بنور أحمر .

وفي أول سيدي بشر يقف لي خالي ، من غير محطة ، فأنزل ، وأعبر الكورنيش مرة أخرى ، متلفّتاً عن يمين وعن يسار ، وأذهب إلى " لوكاندة رانة " حيث ينزل بقطر ابن عمتي كل سنة . وحتى بعد أن استأجر أخوه ، رفلة أفندي ، " كابينة " في المندرة قريبة جداً من مصيف اصدقاء الكتاب

المقدَّس ، استمرّ بقطر ابن عمّتي ينزل في هذه اللوكاندة ولم تكن أمهما عمّتي تماماً ، بل بنت عم أبي ، وكانا يناديان أبي ياخال ، ويقولان لأمي يا مرة خالي ، وكانت هذه القرابة تحيّرني وتغويني .

وكان بقطر ابن عمّتي يأتي من إخميم يقضي شهر سبتمبر كل سنة في سيدي بشر ، بعد جمع محصول البصل وتشوينه ، وكان في عنفوانه ، لم يتزوّج بعد ، وطويلاً فارعاً ، داكن السمرة ، في وجهه المستقيم الخطوط وسامة ورجوليّة كاملة ، وله ضحكة بصوت أجشّ متملّك .

وعندما أدخل من باب " اللوكاندة " أحسّ على الفور بنَفْح البلل والعتمة الهادئة بعد نور البحر الصافي . الأرض المبلّطة ، من غير سجّاد ، رطبة وعليها ماء قليل ، وفي المدخل كله رائحة عامة وحميمة في الوقت نفسه وكانت صاحبة " اللوكاندة " مدورّة الوجة ، رائقة السمرة ، ممتلئة قليلاً ، تجلس وراء المنصّة الدائريّة في المدخل ، وعندما تراني أدخل ترحّب بي بصوت ناعم أحسّه يدغدغ فيّ اهتزازاً داخلياً ، أهلاً يا غَنَنْ يا حبيبي ، تعال ، تعال عندي هيّ الرجالة برضو ينكسفوا ، وتعزم عليَّ بالشيكولاته ، دائماً ، كل مرة ، فأرفض ، وأتأبىَّ ، دائماً ، كل مرة حتى تغريني بأن آخذها بصوتها هذا الدسم الكسول ، وهي تجذبني قليلاً إليها ، وتضع ذراعها الرخصة العارية على كتفي وتضمّني ، قليلاً ، إليها ، وتنظر إليَّ ، من فوق ، بعينيها الواسعتين اللتين تهتزّ خضرتهما الداكنة وتسيل بحنو أنثوي يملأ قلبي ، ثم تقول فجأة : اطلع بقي قريبك مستنّيك فوق ، والا عايزنا نطلعلو معاك ؟ فأهزّ رأسي وأجري أصعد السلالم إلى غرفة بقطر ابن عمّتي في الدور الثالث .

وعندما أطرق باب غرفته ، وأدخل دون أن أنتظر الاذن ، أجده ينتظرنى، عادة ، وقد لبس " المايوه الفانلة " الطويل الذي يشبه " مايوه " أبي بحمّالات عريضة وفتحة عالية تصل إلى تحت الرقبة بقليل ، فيضع البرنس المخطّط على

كتفيه ، ويأخذ فوطة معه وننـزل معاً وعندمـا نعبر الردهـة ، أمـام صاحبـة " اللوكاندة " كان وجهه فيه ، دائماً ، نظرة غائبة متحفظـة ، وكـانت هـي لا تنظر إليّ ولا تحييني .

ويمسك بيدى لنعبر الكورنيش ، وننـزل السلالم القليلـة ، ونسـير حتـى البقعـة الفسيحة عنـد شـاطئ الطاحونـة ، أخلـع " الشـورت " والقميـص وأرميهما ، مع الفوطة والبرنس على الرمل ، وألعب عنـد حافـة البحـر حتـى يصل الماء إلى أعلى صدري ولا أدخـل كثيراً . وكـان ابـن عمّـي بقطـر هـو الوحيد الذي أحسّ الأمان معه في البحر ، كان يسبح إلى الداخـل ثـم يعـود إليَّ . يتوغّل في البحر من جديد ويعود . وكنت ألعب وحدي ، بينما هو في البحر ، على الرمل المبلّل الذي يخبطه الموج وينحسر عنه ، أصنع قوالـب مـن الرمل الطريّ المتماسك ، مصنوعـة في علبـة كبريت فارغـة ، وأحفـر حفـرة ضيّقة أجهد في تعميقها حتى يملأها الماء . يخرج اخيراً ، شامخ الطول ، يسيل الماء على جسمه ، فيتلفّـف بالـبرنس وأجفّـف نفسـي بفوطتـه السـميكة الـتي سخنت الآن وألبس. ويذهـب هـو إلى " اللوكـاندة " ، أمـا أنـا فأسـير إلـى المحطة ، حتى يأتي أوتوبيـس خـالي ناشـان ، فـأعود معـه وأنـا خفيـف الخطـو متوهّج الجسم من الشمس والبحر واللعب في الماء والرمل .

وفي مرّة تأخّرت ، عندما دخلت " اللوكاندة " فزعت فزعاً غامضـاً لأنـي لم أجدها في الردهة ، وراء المنصّة . واندفعت ، كأنني مروّع ، إلى غرفة بقطر ابن عمّي ، وفتحتها على الفور ، فوجدتها أمامي ، وهي تعتدل واقفة جنـب السرير المهوش الفرش ، وتزرّر الزر الأعلى من " الروب" الخفيف الذي يـترك ذراعيها المليئتين عاريتين متفجّرتـين بالبضاضـة ، وهـي تسـوّيه علـى فخذيهـا السمراوين المتجسّـدتين وراءه ، فحدسـت أنهـا تلبسـه علـى اللحـم ، وكـان ثدياها بدورانهما المكتنـز يهتزّان تحت النسيج اللدن ، والجزء الذي يبـدو مـن

الفتحة الواسعة يلتمع بـالعرق ،وشعرها الخشن مهوش قليلاً ومندّى على جبينها ، وضحكت وأنا أندفع داخلاً ثم أتجمَّد مرّة واحدة ، ضحكة خافته ، وكان صوتها ناعماً وليس فيه أدنى حرج وهي تقول : " يوه .. هو أنت ؟ يقطعني وأنت داخل كدة زى الساروخ . طَبْ تعال ، تعال هنا يا حبيبى " .

وأدخلت يدها في جيب الروب وبحثت قليلاً ثم قالت : " أهي .. الشيكولاته بتاعتك .. خد .. " ولكنني رفضت تماماً ، هذه المرّة ، وأطرقت برأسي في عناد ففهمتْ ، ولم تصرّ ، ولم تضحك . قاومتُ البكاء بشجاعة، وهي تجذبني من يدي ، وتجلسني جنبها على السرير ، وأطعتها ، وأحسست لحمها الحارّ من وراء " الروب " المشقوق من الوسط تماماً على صدرها ومنتصف بطنها وبين ساقيها ، ومزرَّر بأزرار مستديرة كبيرة من الصدف الأبيض الذي يومض . وكان جسمها باذخاً ومبذولاً ، وأحسست بغموض أنها تراهن به في لعبه خطرة ، وخفت عليها ، ونشقت رائحتها الخفية وكان وجهي يضطرم ، ولم أبكِ بل كنت غاضباً . أما بقطر ابن عمّتي فقد كان نصف راقد نصف جالس على السرير ، بالجلابية " البوبلين" البيضاء الناصعة ياقتها الصلبة الدائرية مفتوحة على صدره العريض ، ونظر إليَّ بابتسام وقال لي بصوته الأجشّ قليلاً : " يوه يابن خالي .. عوجّت لغاية دلوجيتي خُلنا ما جاييش عاد . مالك داخل كربان ومَزغُول ؟ أجعد أجعد خُد نفسك لما ألبس " . وقال للسيدة التي معه بلهجة من لا يريد أن يخفي شيئاً ، وبصوت فيه بساطة التملّك ونهائيته : " ناوليني الكوستيم من الدولاب " فأعطته له ودخل الحمَّام يغّير ملابسه ، وجاء وشيش البحر ، فجأة ، في الصمت الذي حلَّ في الغرفة ، مع أصوات عجلات السيارات تكشّط الأسفلت ، وترنّم بائع المنجة ، يتغنىّ معايا تيمور .. هندي ألفونس ، واحتكاك عجلات الترام بالقضبان في المحطة القريبة .

مازلت أرى الولد يذهب إلى فراشه غير المألوف في " كابينة " المندرة ، مرتبة مفرودة على الأرض ومغطاة بملاءة سرير ، ويغوص تحت " الكِبرتاية " القطنية البيضاء المشغولة بنقوش أزهار وأوراق مطبوعة من نفس القماش ونفس اللون ، بارزة وغائرة فيه ، تعطيه دغدغة مترفة للجسم ، وأعرف معه فرحة المنقضي بيومه على البحر ، وترسّبات اليوم في قلبه ، وخوفه من مفازع الليل وأحلامه المضطربة .

هل كان خاله ناثان أم خاله يونان هو الذي كان قد حكى عن صدقي باشا والعمل في عنابر السكة الحديد ؟ أم هو الذي كان قد قرأ عن الحكاية عندما دخل تحت سرير خاله يونان وزوجة خاله إستر التي كان يحبّها ، في بيتهم في غيط العنب ، وكان السرير عالياً وفرشه جديداً وعليه ملاءة من " الساتان " الأخضر تتدلّى على أطرافه ، وكان هو يحبّ أن يغوص هناك في العتمة الخفيفة بنور أخضر فاتح يشمّ رائحة الورق والتراب وبقية متطايرة من عطر نسائي يعرفه عند امرأة خاله إستر ، ويقلب في الصحف والمجلات القديمة المرصوصة تحت السرير ، الأهرام والبلاغ ومصر والصرخة والجهاد ، ويقضي ساعات في عزلة عن صخب البيت وأصواته واحتشاده .

ورأى أنه في محطة باب الحديد الخالية تماماً في الليل ، والأرصفة القوية العالية تمتدّ عريضة وليس عليها أحد وليس عليها قطارات ، والسقف الزجاجي بعيد جداً فوقه وتنعكس عليه ، من تحت ، أنوار الأعمدة الطويلة ، ورأى أن القطارات واقفة في خارج المحطة ، متراصة صفوفاً في ظلام الساحة المغطّاة بالقضبان المتعرّجة ، متربّصة ، صدور القاطرات أقراص سوداء كاملة الاستدارة منبعجة قليلاً إلى الأمام وكأنها تهمّ بأن تنبعث فجأة من جمودها ، بالحياة والبخار والهجوم ، لتدخل المحطة ، في أية لحظة الآن ، تداهم ، وتسحق كل ما أمامها . ورأى نفسه معهم في الجانب الآخر من المحطة ،

المفتوح على شبكة القضبان الواسعة . وكانوا كثيرين جداً ، متزاحمين بالأكتاف والرؤوس ، ولمح في وسط الوجوه المتعاقبة التي تظهر وتختفي في عتمة الليل الضافية وجوه بقطر ابن عمّته ورفلة أفندي وخاله ناثان وخاله يونان وخاله سوريال وجدّه ساويرس ، ولم يلهش عندما رأى بينهم أخته عايدة التي تصغره بسنتين تحمل أخته لويزة الصغيرة على ذراعيها في وسط زحمة سوّاقى القطارات و" العطشجية " وعمال الصيانة و " الكمسارية " ببدلهم الصفراء الداكنة وفي أيديهم عصيّ حديدية رفيعة طويلة ، وعِدد قَطْع التذاكر المعدنية ومقراض التذاكر البشع الشكل ، وهم يتحرّكون ببطء ، محتشدين تحت السماء المفتوحة ، ورأى بينهم ، لحظة واحدة ثم اختفت ، رانة صاحبة " اللوكاندة " وخيّل إليه في لمحة واحدة أنها ترتدى " المايوة " القماش الأزرق المكشكش الأكمام عند أعلى ذراعيها ، ولكنه رآها عارية تماماً وثدياها قائمان مكوّران بكبرياء ونعومة مستديرة مليئة ، وساقاها السمراوان تلمعان بندى عرق خفيف ، وكان يعرف أنها لا يمكن أن تكون هناك ، وأنها ماتت ، بغموض وفي قلب شيءٍ ما قابض ولكنه لم يصدّق ذلك، وأحسّ لها الولد بخجل مكتوم معتصر اكتسحه ثم مضى كأنه لم يوجد، ثم ضاعت منه وسط زحام حشد الناس وكأنه لم يرها قط ، وكان يعرف أنها ليست هناك . وكان الناس يلوحون بأيديهم وأذرعهم ويفتحون أفواههم صارخين من غير صوت . وكان معهم ، يحس أن موجهم يحمله ويرتمى به برفق ، يصعد به ويهبط بنعومة من غير صدمة .

ووجد أن الأرصفة قد امتلأت بجنود " بُلُوك " النظام "بالشورت" الكاكي والياي" الداكن تلتف شرائطه حول سيقانهم ، على صدورهم أحزمة جلدية عريضة متقاطعة وعلى طرابيشهم أغطية قماش صفراء لها ياقة متدلية على مؤخرة رؤوسهم ، وفي أيديهم خراطيم الماء القوية تتلوى ، حراشيفها

الجلدية شريرة ، كثيفة الأضـلاع . وتزحـف الخراطيـم علـى الأرصفـة ، مـن تلقائها ، ثم تنتصب بفوهاتها الحديدية المسددة إليهـم ، وتندفـع منهـا أعمـدة الماء المغلي يفور وله وشيش وبخار أبيض يتطاير في دوائر كثيفة وتدور وتصعد من فوق انصباب الماء المرغى .

وعلى صرخة يقظته المروعة جاءت أمـي حافيـة ، تجـرى إليـه ، مـن علـى السرير العالي في الجانب الآخر من " الكابينة " .

وعلى العكس من ابن عمّتي بقطر كـان أخـوه رفلـة أفنـدي مـدور الوجـه أبيض البشرة وناعماً قليلاً ، وكـان لـه عينـان جاحظتـان شيئاً مـا ، تتألقـان بالمرح ، وسريع النكتة متدفقاً بالكلام وله شارب مشذب ينزل من تحت أنفه بـين خطـين مستقيمين عموديـين كشـارب هتـلر الـذي تظهـر صـوره في " اللطائف المصورة " .

وقضى رفلة أفنـدي سـنوات طويلـة مدرسـاً للجـبر والهندسـة في المرقسـية الثانوية وكان أعزب ولـه شـقة في محـرم بـك . وكـان يعـزف علـى العـود . وعندما كان يزورنا على العشاء في بيتنا في غيـط العنـب كنـت أسـهر معهـم على المائدة الطويلة الحافلة ، قرصها الرخامي البني المجزّع مغطى بمفرش أبيـض سميك ومكويّ ومحمّل بالأطايب التي كانت أمي تعدّهـا ، تذبـح بطـة أو وزة وتصنع الكسكسي الذي نأكله بالمرق ، وتطبخ ، وطاجن أرز معمراً بالحمـام ، والرقاق الهش الذي تسقسـقه بالسـمن البلـدي وتحمـره في الفـرن ، رقائقـة الناعمة المحمصة من فوق واللدنة اللحمية من تحت لها طعم لا أنساه ، وتكون ليلتها كأنها ليلة عيد ، يأكلون ويشربون ويحكـون حكايـات كثـيرة وشـائقة جداً ، وأمي تعزم عليـه بالطعـام ، دون توقّـف : خـد دى مـن إيـدي وحيـاة خـالك ، مـا تكسـفش أيـدي إمّـال ، فـيرد : تِسْـلم إيـدك يـامرة خـالي، يا بوى ، لا يمكن ، وحياة المسيح . وبعد قليل تخلـع نسيرة وافـرة مـن البطـة

وتعزم من جديد : تُجْبرُني ما أنت واخد دي ، هو أنت كلت حاجة ؟ فيقول وهو يرد يدها برفق : جَبر ياخد العِدا يامرة خالي والله ما أجْدَر .

وينتهي بأن يأخذها ، وهكذا طول العشاء ، وكانت لهجته اسكندرانية وفيها نغمة صعيدية خفيفة ومرحة ، وكان رفلة أفندي يأتي لي كل مرة بعلب " التوفي " المدور المرسوم عليها صور أبراج وكباري ملونة عرفت فيما بعد أنها صورة برج لندن ، أو برطمان " كراملله نادلر" المربّع بزجاجه الشفاف السميك وفوّهته الدائرية الواسعة .

وأظل معهم من الفرح بالسهر والحكايات والأكل والكونياك حتى أقع في النوم وأنا لا أريد الذهاب إلى السرير ، ولا أذكر في اليوم التالي متى ولا كيف نمت .

وكانت " كبائن "المندرة أيامها تقع على مرتفعات صغيرة متراوحة من الرمل أمام الكورنيش ، متناثرة ومتباعدة من غير نظام وبينها مساحات عذراء فيها نخل ، " والكباين " على أشكال جملية وغريبة ومتعددة جدرانها الخشبية تنتهي بأبراج صغيرة جداً وأنيقة من الخشب أيضاً على الأركان الأربعة ، ونوافذها الصغيرة لها زجاج ملون ومنمنم من ألواح دقيقة ناعمة أو محببة زرقاء ناصعة وحمراء متقدة وخضراء يانعة وصفراء مزهرة ، ويصعد المرء إليها على سلالم خشبية أيضاً "وللكباين" الكبيرة شرفات مكشوفة تحيط بها أعمدة متتالية رشيقة ، وتتأرجح تحت القدمين .

وكانت " كابينة " رفلة أفندي تطل على الكورنيش مباشرة ، من على ربوة رملية صغيرة الارتفاع ، منبسطة . هل كنا قد تغدّينا عنده بالفعل ، ونزلت أمي إلى البحر في آخر العصر بعد أن خلا الشاطئ تماماً ، وعادت وذهبت إلى الغرفة الداخلية الوحيدة لتسرّح شعرها وتلبس ؟ أم كانت ما

تزال في البحر ، بعد أن خرج منه الناس وأوشك النـور أن يذهـب ، تـأخذ ، وحدها في الماء ، حمام الغروب ؟

كان رفلة أفندي يجلس على كرسي خيزران ، بالقميص والبنطلون ، وهـو منحن بصدره على العود المستند إلى بطنه المنبعج قليلاً ، يـده البيضـاء المرهفـة الأصابع تهتز بالريشة على الأوتار هزات خفيفة موقّعـة ، وأنـا أمامـه أجلـس على كرسي خشبي مدور من غير ظهر ؛ وأرى أرضيـة " الكابينـة " الخشـبية عليها آثار أقدام مبلولة لأنهـا أكـثر دكنـة مـن لـون الخشـب حولهـا ، وكـان يدندن : الليل لما خلي .. والساهر .. الباكي ... وفي صوتـه وعزفـه شـجن ، وعيناه غائبتان .

كان قـرص الشـمس أحمـر، كبـيراً ، أراه ينـزل بسـرعة ، كـأن الشـمس الحقيقية البيضاء الملتهبة قد غابت من زمان ، وهذا انعكاسها المتقد ، وهميـاً، يغوص في البحر وسط سـحاب متقطـع مشـتعل الأذيـال بنـار داكنـة ، ومجـد الغروب ينطفئ قليلاً قليلاً ، وتهب عليَّ أنفاسٌ وحشـةٍ بـاردة ، كأنـه آخـر مغيب في آخر يوم ، الشمس تركـت العـالم ولـن تعـود ، ونحـن ندخـل ليلـة القيامة الأخيرة

وفي الكابينة المفتوحة دفء مـن سـخونة خشـبها الـذي صهدتـه الشـمس طول النهار . عتمة المغيب وإيقاعات العود لها رنين شجيّ ومجوف ومتلاحـق الرعشات ، وقد صمت رفلة أفندي واسـتغرق في العـزف . انحنى برأسـه إلى جانب يصغي إلى شكاة الأوتار المرتعدة بصدمات موسيقى رتيبة ، ملحّة ، لها صدى في حيز الكابينة الخشبي الضيّق .

كنت أحس نفسي وحيداً جداً ، وهواء البحر يأتي عَلى وجهـي حـاراً ثـم رطباً على التعاقب ، مرة بعد مرة ، ومحمّلاً برائحـة المـاء المِلحيّـة ، وأضـاءت أعمدة النور على الكورنيش ، معاً مرة واحدة ، بقعاً مستديرة بصفرة وهّاجـة

إزاء نسيج السماء الداكن الزرقة الذي مازال في طرفة احتراق الغروب ، يسود بالتدريج ، ونور المصابيح المهتز يقع على اسفلت الكورنيش وعلى ظهور السيارات اللامعة التي تمرق بصمت وسرعة ، متباعدة وقليلة ، لتختفي في انعطاف الطريق عند الكازينو البعيد .

وأمام الكابينة مباشرة التفتُّ فجأة فرأيت جسمها يدور تحت عجلات السيارة أمامي ، ناعماً ولدناً بدون مقاومة ، فستانها يطير ويتقلب تحت السيارة ، والذراعان تهتزان ، والجسم يلتفّ مع العجلات ، مرة ومرتين .

أحسست العجلات المسرعة تطأ عظامي نفسها .

وسمعت صرخة ثاقبة في سكون الغروب .

انخلع قلبي برعب خاطف ، هل هذه أمي تحت العجلات ؟ كانت آتيه إلينا من البحر واصطدمت بها السيارة ؟ كان الروع في قلبي ساطعاً ، لحظة واحدة . الغياب النهائي . الفقدان الكامل .

خرجت أمي من الغرفة الداخلية ، هادئة ، شعرها القصير مسرّح ومازال مبلولاً قليلاً على وجهها الذي يشع في عتمة الكابينة ، أبيض .

وأحسست ساقي ترتعدان ، خاويتين .

لم أتحرك . ولم أقل كلمة واحدة .

كانت الكابينة " صامتة تماماً والعود وحده على الكرسيّ الخيزران .

رأيت السيارة تبطئ ، بعد أن مرت علىالفتاة المرمية على الأسفلت ، ساقاها الضامرتان مكشوفتان للهواء ، هامدتان ، ملويتان إلى جانبها في وضع لا يصدق . ورأيت ، من بعيد، شعرها مفروشاً على أرض الشارع، تحت النور . هب الهواء فارتفعت خصلة منه ، تهتزّ .

وكان الناس يجرون اليها ، وأدركت أن رفلة أفندي قد انطلق إلى مكان الحادث . ووقفت أمي على الباب ، صامتة ، مفتوحة العينين .

لم يتزوج رفلة أفنـدي إلا عندمـا كـبر جـداً ، ونقـل مفتشـاً ثـم نَـاظراً في سوهاج الثانوية بعد أن أخذت الابتدائية بسنتين ، و لم يخلف ، ومات بعـد أن حصلت على البكالوريوس ، وكنت عندئذ في معتقل الطور ، وحرب ١٩٤٨ قد انتهت بضياع فلسطين ، وكأنما كتمت مشاعر غامضة كثيرة ، فلم أفكـر فيه .

في ذلك الصباح انتظرت خالي كالمعتاد ، ولكنـه عندمـا وقـف بـالأتوبيس نظر إليَّ من فوق مقعده نظرةً غريبـة ونهـض ، علـى غـير عادتـه ، وجـاء إلى الباب قبل أن أصعد وقال لي : بلاش النهارده . خليك .. العب هنا أحسن . وأحسست توجساً وقلقاً مستأثراً فلم أرد عليه ، وفعلت مالا أفعل إلا نادراً ، صعدت بصمت وتصميم وجلست على مقعدى الصغير .

وفهم خالي ناثان أنني في نوبة من نوبات عنـادى الـتي لا يفلـح معـى فيهـا شئ لا أمر ولا رجاء ولا تهديد ولا محايلة ، وعـاد إلى مقعـده وخيّـل إليَّ أن التجاعيد حول عينيه الصغيرتين قد عمقت وازدادت .

وعندما اقتربنا من اللوكـاندة قـال لي : " طـب بـلاش تنـزل " ، ألـفّ ، وترجع معاى ، أخُدك لغاية المنتزة ، ونروح الكازينو بعد الضُهـر" و لم يقـف، لكنني في المحطة التالية كنت علـى البـاب بـالفعل ، وقفـزت إلى الشـارع مـع الناس ، وجريت راجعاً ، وعبرت الكورنيش دون انتظار مـن بـين السيارات المسرعة التى ارتفع نفيرها الموحش وخَفَت في أذني ، وأنا أمرق من بينها .

كـان يقـف علـى مقربـة مـن البـاب جمـع صغـير مـن البوابين والمكوجيـة والبيـاعين والفضوليـين القلائـل ، يتهامسـون ويتحدثـون بصـوت خفيـف ، وسمعتهم يقولون وأنا أشق طريقي بجانبهم علىالرصيف : إمتى ؟ حـدّ عـرف مين ؟ بيقولو على وش الفجر.. خسارة ..والله ست فنجرية وبنت حلال .. ما هي كانت برضو .. الله يرحمها بقى .. ما احنـا بكـره هنعرفـوا .. مِسِير

المتسخبى يبان .. ربنا على الظالم يـا جـدع .. وكـان علـى بـاب اللوكـاندة عسكري في بدلته البيضاء غير المكوية وطربوشه ، وفي يده بندقيـة ومعـه مخبر بالبالطو الميري والجلابية والعصا الخيزران قال لي بخشونه : رايح فين يا ولـد ؟ فأزحته بيدى ، بقوة لم أكن أعرف أنها عندي ، دون أن أرد ولا أنظر إليه ، فلا شك أن ما رآه في وجهي جعله يسكت ولا يفعل شيئاً .

صعدت السلالم جرياً ، وفي الدور الثالث رأيت باباً مفتوحـاً بـالقرب مـن غرفة ابن عمّتي بقطر ، وعرفت أنه بـاب غرفتهـا ، واندفعـت إليـه ، ورأيـت ضابطاً بنجمة وتاج يقف في الغرفة مع اثنـين مـن المخـبرين ، وكـانت الغرفـة مزدحمة بهم ، وكان ابن عمّتي بقطر يقف معه ، مهيب الطول صارم الوجه ، أنيقاً في "البالطو" الصعيـدى "الجـبردين" الخفيـف علـى جلابيـة " سـكروته " ناصعة تنزل حتى حذائه البني اللامع كالمرآة ، وطربوشه محكم ومضبوط تماماً على رأسه ، واحسست أنه يتفجر ، في هذه اللحظة بالذات ، بشبـاب عـارم مكتوم .

وعندما أندفعت إلى الداخل مـن بينهـم جميعـاً ، وقبـل أن يمسـكني أحـد ، رأيتها على السرير . كانت مغطاة بملاءة بيضاء ، عليها بقـع الـدم ، داكنـة ، ترشح ببطء وتتسع في مواقع مختلفة عند الصدر والبطـن ، ورأسـها ملقـى إلى الوراء من غير مخدة ، سمرة وجههـا شـاحبة ولكـن عينيهـا الواسـعتين ، تحـت الجفنين المدورين ، مفتوحتان ، اخضرارهما الآن ثـابت لا يتمـوج ، وكـانت تنظر إليَّ .

أخذني ابن عمتي بقطر ، من يدي ، ببـطء ودون تعجـل وقـال لي : تعـالَ معاي دلوجيتى يا ود خالي . تعالى . ما عادشفيه فايدة من الوجفة دى يانخال وكانت أول مرة ينادينى كما ينادى أبي ، وكما يتحدّث الرجـل إلى الرجـل واهتز صوته الراسخ العميق . ولم أبكِ ، يومها ، أيضاً .

واستمر بقطر ابن عمتي يأتي إلى " لوكاندة رانة " كـل مصيـف ، لم يغـير من عادته ، واحتفظ باعتدال قامته الشامخة ، وصرامة وجهه ، وشباب نظرتـه الثاقبة ، بعد أن تزوج من الصعيد وخلّـف . ومـات بعـد أخيـه رفلـة أفنـدي بقليل ، وكنت قد انتقلت من معتقل الطور إلى معتقل أبو قير ، مرة أخـرى ، ولم أعرف إلا بعد أن خرجت . وحزنت عليه حزناً صامتـاً طويـلاً ، وكنـت أمرّ أيامها ، بغمرات حب ظننت أنه ميئوس منه ، وكنت يائساً من العالم .

وكنت أذهب ، في مضض هذا الحب الذي لم أكن أعرف كيـف أحتملـه ولا أعرف كيف ينتهي ، إلى كازينو كليوباترا ، وأقضي ساعات بعـد الظهـر المبكر أنظر إلى البحر وأحلم أحلامـاً مضطربـة ، أحـاول أن اقـرأ روايـة ، أو انتظر صديقاً قبل ميعاده بكثير ، أو أقرر ، خـلال سـاعات ، هـل أذهـب إلى سينما ، أي سينما ، أو إلى قهوة الفريسكادور أو باستوريدس في شارع سعد زغلول ، أو سان جيوفاني في ستانلي ، لمجرد أنـي لا أطيـق البقـاء بـين أربعـة حيطان وحدي .

كنا في أواخر سبتمبر ، وشمس بعد الظهر تصنع على صفحة البحر ، تحتي، ملايين النقط اللامعة التي تبرق وتختفي وتعشي عينيّ ، وزرقة الماء تحتها عميقة وداكنة وكثيفة الشفافية في الوقت نفسه ، فـأمد بصـري مـن نـافذة الكـازينو العالية المفتوحة إلى الأفق الغامض في اتصاله بخط السماء المهتزّ بالضوء عندمـا رأيتها .

كانت تسبح تحت النافذة "بالمايوه" الأزرق الفاتح ، محبوكاً عليها ، لامعـاً تحت سيولة الموج الخفيف الذي يترقرق عليه وينحسـر في حركتهـا الناعمـة ، ذراعاها لا تكادان تصنعان رغوة في انزلاقها المنساب علـى المـاء . وعرفتهـا . رانة التي كنت نسيت كل شئ عنها . جسمها فاتح السمرة وغضّ ولمـا يكـد

يكتنز بأنوثته التي تتفتح وتزدهر ، في أول امتلائها الباكر ، ولكنها أصغر سناً بكثير ، فتاة بعد ، ولها رشاقة سمكة في الماء .

خفق قلبي ، وتوقف . من هي ؟ هل هي أخت لها ، صغيرة ، لم أرها من قبل ؟ كنت موقناً أنها هي ، أم هي الأخرى التي سوف أعشقها ، وأفقدها . تعلقت عيناي بها ، مسحوراً وغائباً ، وعندما انقلبت على ظهرها ، تطفو فوق الماء ، رأيت وجهها المدور الخمري ، مغمض العينين تحت الشمس ، طافياً إليَّ ، وكان شعرها الخشن الوحف قصيراً حول رأسها ، مبلولاً وداكن السواد ، أعرف حرافة عبقة المسكر، وخداها الأسيلان يومضان في استدارة رخيمة كاملة تحت الماء ، وهي تبتعد . ساقاها ، في بضاضتهما المخروطة العبلة ، لا تكادان تتحركان ، وذراعاها تضربان الماء بحركة خلفية منتظمة إيقاعها هادئ ، وهي تبتعد . وعرفت أنني سأحبها ، في آخر العمر ، حباً كأنه الموت ، وأن قلبي هو ساحة بحرها اللجّيّ الجياش أبداً بأمواج لا هدوء لها .

٤) فلك طاف على طوفان الجسد

أنزل للمدرسة في الثامنة إلا عشر دقائق ، على الساعة .

ساعة الحائط معلقة جنب الباب . البندول النحاسي الطويل ينتهي بقرص مدوّر، مليء ، صفرته وهّاجه ومُغوية ، يتأرجح ، ذاهباً آتياً بإصرارٍ كأنّ فيه نَزَقاً وخفّة ، في بطن الصندوق الخشبي المستطيل ، بجسمه البُنيّ الداكن اللامع الدسامة ، على حوافّه الأربع " كورنيش" مشغول بتفريعات ناعمة اللَفْلَفَة ، بضّة الخشب ، يدور بعضها على بعض متداخلة ومتنزّية ومتقلبة على الحافة العلوية تموّجُ مقبّب عليه فارس خشبي رقيق النحت ، له خوذة ينزل من تحتها شعره الطويل المنمنم المتجعّدُ الخُصَل ، وله لحية مخروطة ، وعباءته يتطاير بها الهواء المحبوس ، وهو يشبّ على حصانه الصافن الذي يرفع إحدى ساقيه الأماميتين، مثنّيه برشاقةٍ ثابتة ، وطرف الحافر المنصوب لا يكاد يمس الأرض.

فطوري ، دائماً تَسْقيَّه بالشاي واللبن ، فقط . تفتّ أمي وجه الخبز الناشف الرقيق ، فقد كنت لا أحب بطن الرغيف الخشن المحبّب بالردة ، وتُغرقه بالشاي واللبن حتى يتشربه ، ويلين ، ولكنه لا يتعجن ، فآكله بالملعقة الفضية الخاصة بي وحدي ، عليها نقش تاجٍ صغير واسم لا أنساه : محمد غالي وأولاده ، بالخط النسخ الدقيق التدوير وقد اسودّ وسط لمعان الفضة الثقيلة ، أرفع بها الخبز المسقيّ بالشاي واللبن فأجده سائغ السخونة ، سهل البلع وأنا لا أرفع عيني عن الساعة ، والعقرب الطويل يقفز من علامةٍ إلى علامة ، كل دقيقة حتى يصل إلى الخط الذي أعرف عنده أنني يجب أن أترك كل شيء ، وأخطف كتبي من على رخامة البُوريه ، وأجري .

كل يوم أحد ، قبل أن نذهب للكنيسة ، أترجّى أمي أن تتركني أملأ الساعة آخذ مفتاحها الذي له تجويف دائري دقيق في ساقه ، من مكانه على أرضية الصندوق الداخلية أحسّ الغبار الدقيق عليها بأصابعي ، وأطلع على كرسي خيزران ، وأُولج خُرم المفتاح الطويل فيلفّ باحكامٍ وثيق حول سن كالإبرة تبرز من فجوةٍ دائرية في منتصف وجه الساعة بمينائه البيضاء الساطعة، وأدير المفتاح وأنا أمسك برأسه المفلطح ذي الورقتين النحاسيّتين الدقيقتين بين الإبهام والسبابة ، فتصرُّ التروس الداخلية ، بمتعة ، وهي تمتلئ ، وتكتسبُ الدقاتِ المنتظمة الواضحة ، أقوى صوتاً وأكثر تجسّداً ، وكانت تدقّ كل ساعة ، بصلصلةِ النواقيس .

تركنا البيت الذي في شارع ١٢ أمام وابور الدقيق ، بالقرب من الكركون عندما دخلت مدرسة النيل الابتدائية من أربع سنين ، وانتقلنا إلى بيت شارع الكروم أمام الاصطبل ، قريباً من ترعة المحمودية ، مخصوص لأن المدرسة كانت في الشارع نفسه ، أصل إليها بعد خمس دقائق مشياً ، أو جرياً في دقيقتين ، أعبر تقاطع شارع سيد كريّم ، ثم شارع الترامواي ، فأجد المدرسة على قمة الشارع التالي على طول .

للمدرسة سورٌ عال ، من الحجر ، على شارع الكروم ، لا يفتح إلا على باب خشبيّ يفضي مباشرة إلى سلالم ضيّقة ، معتمة ونظيفة جداً ، بين حائطين مُصْمَتين ، لا يدخل منه إلا الناظر والمدرّسون ، لم اصعد عليه ، ولم أعرف رهبته إلا مع أبي ، وهو يمسك بيدي ، عندما جاء ليقدّم لي في المدرسة أول مرة ، من زمان ، وعندما ذهبت لآخذ الشهادة من مكتب الناظر في آخر تلك السنة .

أما نحن فندخل من الباب الواسع الكبير على شارع المعارف ، من الناحية الثانية ، يقف عليه عم ميساك البواب العجوز المشقق الوجه ، بشاربه المتهدّل

وعمّته القماش الملفوفة على اللبدة الحائلة اللون ، هو الذي يفتحه ويغلقه ، ويقرر مصائرنا في الدخول والخروج ، والحصص والفُسْحة ، إذ يضرب الجرس النحاسي الصدئ المعلّق جنب الباب ، على ساعته الفضية المكتنزة المضبوطة بالثانية ، مربوطة ، في جيب جلاّبيته الجانبي العميق "بكاتينة" معقودة بالزرّ الأعلى في صديريته التي يبدو قماشها اللامع ضيقاً حول صدره النحيل ، من فتحة الجلابية العليا .

وللباب ضلفتان حديديتان مسدودتان ، بين قائمين من الحجر العريض ، ويفتح على مدخل مبلّط صغير تصعد منه سلالّم عريضةُ رخامية بيضاء لها ، من الجانبين ، درابزين حجري ، كالشرفات ويؤدي إلى ردهة تقع الفصول على جانبيها . وعلى مستوى الدور الثاني يبرز من فوق السلالم ، ويُظللّها بناءُ المدرسة المرتفع ، المضلّع ، بالحجر القديم الكبير ، والزخارف الحجرية الطويلة ، وفيه النوافذ العالية الواسعة بضلفها الخشبية الثقيلة .

اندفعت جرياً من جنب عم ميساك إلى الحوش الصغير ، إلى يمين السلالم الرخامية ، حيث كان يقف " الكبار " الذين يلبسون البنطلونات الطويلة والبدلة الكاملة ، والطرابيش والكرافتات .

وقلت صباح الخير لغُريِّب عَلي ، فرد عليّ وهو مستند بجنبه إلى السور ، طربوشه مَعْووُج على زَاويةٍ أنيقة من جبهته ، و " جاكتته " مزررة ، فهي دائماً محبوكة عليه ، لا يفتحها أبداً ، ووجه طويل فيه نظرة حالمة شيئاً ما ، مترفعة شيئاً ما . ورد عليَّ أيضاً حسن المرديني ، بخدّيْه المدوّرين وعينيه الدسمتين ، وسليمان بطرس ، الصعيدي الوسيم ، لونه بني محروق .

لعل الكبار كانوا في السادسة عشرة أو بعدها ، ونحن أوائل الفصل ، صغار في السنّ عنهم ، في العاشرة أو نحوها ، وكلنا شَيْطنة ، ولكننا كنّا ، بمعنى ما ، أنداداً لهم ، بميزة التفوق التي تجعلهم يحترموننا ، وتتيح لنا أن ننضم

على قدم المساواة إلى جماعتهم في الحوش الصغير ، نتبادل" الساندويتشات " و " التوفي " ، رأساً برأس ، حتى لو كانوا هم – كما هـو واضـح – أولاد عـز وآباؤهم أغنياء ، بينما كّنا على قدّ الحال ، مستورين ، ومازلنا نلبس "الشورت " والقميص المفتوح الرقبة والشراب القصير المتهدل على رقبة الجزمة . ولكن الطربوش كان إجبارياً ، علينا نحن أيضاً ، نلبسه في الفصل وفي الفُسحة ، وفي الشارع .

ومع ذلك فقد كنا نعرف ، بغموض ، أننا لسنا أندادا لهم ، تماماً .

كانوا كبارا ، وكانت لهم معرفة بأسرار الجسم التي تحدث للواحد عندما يكون كبيراً ، ولا نملكها بعد . ولهذا ، وحده ، كنا نكنّ لهم إعجاباً خفياً ، واحتراماً من نوع خاص ، حتى ولو كانوا في آخر ترتيب الفصل . وكانت لهم مرات ، في صباح الاثنين خصوصاً ، يتحلقون معاً ، الكبار وحدهم ، ويتحدثون بهمس منفعل ويتبادلون أسراراً لا يسمحون لنا بأن نسمعها .

ضرب الجرس ، واندفعنا نجري على السلالم الرخام ، ودخلنا حصة العَربي كان خليفة أفندي يتكلم بلهجة فلاّحية قليلاً ، ويُعطّش الجيم دائماً ، وله شارب كثّ كشريط مستقيم الحواف تحت أنفه ، وعظم وجها غائر وجافّ وكنت في أول صفّ ، وطلب مني خليفة أفندي أن أسمّع المحفوظات . كانت سورة الليل وسورة الضحى مقرّرتين علينا في المحفوظات ، وكنت حسن الحفظ ، فتلوتهما ، واحدةً بعد الأخرى ، مسحوراً بالإيقاع والمعاني ، وحَلَّ في الفصل كله سكون تام وأنا ألقي الآيات المنغّمة القِصار ، وكان خليفة أفندي ينظر إليّ نظرة ثابتة عميقة ، حتى فرغت ، و في الصمت سمعت همهمة خافتة غامضة من الفصول الأخرى ، و الأنفاس كلّها معلّقة ، حتى قال خليفة أفندي فجأة : الله .. ! هذا الإلقاء مثل سلاسل الذهب .. فتح

الله عليك يا بنيّ فأحسست وجهي يتضرّج من الزهو والخجل . وسمعت لغطاً وضحكاً مكتوماً في آخر الفصل .

في الفُسحة ذهبنا ، من يسار السلالم العريضة ، إلى الممرّ الضيّق الذي يدور بمبنى المدرسة ، ويفتح على حوش مسقوف بالخشب ، مبلّط ، فيه دِكَك طويلة وموائد خشبية عارية الخشب ، وكان هذا الحوش معتماً قليلاً ، ومُفرحاً في الوقت نفسه ، فقد كان مرتعاً للاستغماية والنطّ فوق الدكك وبين الموائد ، وتحت الحائط الذي تقوم أمامه حنفية نحاس نشرب منها بأيدينا، تحتها بقعة غير منتظمة مبلولة وداكنة اللون دائماً ، ولم يكن الكبار يأتون إليه .

كنت منحنياً على الحنفية ، أملأ يديّ المتجاورتين المكّورتين بالماء وأشرب بعطش بينما الماء ينسرب بسرعة من بين أصابعي ، عندما جاء جبره من خلفي ، بقامته الطويلة ووجهه الشمعيّ الأبيض ، وابتسامته التي أكرهها ، ومعه كمال المدكوك الجسم في بنطلونه الطويل الضيق المحشوّ فيما بين ساقيه، ومعهما رمزي ، قصيراً ، ومدور الجسم ، "الشورت" الذي يلبسه يكشف بإحكام عن فخذين ناعمتين بيضاوين ، وعيناه جاحظتان قليلاً ، وسمعت جبره يقول بصوت يتعمّد أن أسمعه : يا عيني على سلاسل الدَهَب .. يا حلاوة الدَهب .. وضحك رمزي ضحكة كسولاً ورفيعة ، كالبنات وقال كمال بصوت خشن : إيوه يا سيدي . . ! اعتدلتُ وأنا أرتجف من الغيظ، وتمنيت لو كنت كبيراً فأحطم لهم وجوههم بقبضتي كما كان يفعل روكامبول وأرسين لوبين ، ولكن حسن المرديني ، على غير عادته ، كان يقترب متمهّلاً ، ومعه غُريّب عَلي ، وأنطون زخاري . سكت جبره وكمال فجأة ، واستدارا ، وابتعدا وهمَا يمسكان بيديْ رمزي ، كلٌّ من ناحية .

في فسحة بعد الظهر كنت في الحوش الكبير المفتوح الذي يحدّه السور من ناحية ، وحيطان البيوت العالية من ناحية ، بنوافذها المواربة التي لا تفتح أبداً، وظَهْر مبنى المدرسة من ناحية ثالثة ، وينتهي إليه الحوش المبلّط المسقوف من آخر جوانبه . كانت الشمس تنصبّ عليه فيدفأ جداً في الشتاء ويّتقد حرارة في الصيف ، وأرضه قد اسودّ رملها قليلاً بتراب ناعم تثور منه سحابات صغيرة تحت أرجلنا من الجري واللعب والصياح الذي لا يهدأ أثناء الفُسحة الكبيرة ، وكان من لُعَبِنا الأثيرة أن يخلع أحدنا حذاءه ويمسك به، حرصاً عليه مهما كانت الصداقه ، ويقف بالشراب على أكتاف اثنين معاً، ويطل برأسه ، بالكاد ، من فوق السور ، ويُنادي على المارة أو البيّاعين القليلين الذين يمرون في شارع الكروم ، ولا يحصل على هذه الميزة إلا من كسب في لعب "البلْي"، أو "صلّخ" ، أو ما نبتكره من ألعاب .

جاء جبره ، وكمال ، ورمزي ، ثلاثتهم ، إليّ وأنا في الحوش الكبير، وطلب مني جبره بصوتٍ كله رجاء ، واعتذار ، ومصالحه ، أن أشرح لهم معاني المحفوظات وإعرابها ، فتصالحنا ، ولكنني كنت دائماً أحس معهم بالقلق ، وكُرْهٍ ملتبس ، وأن ما يدور بينهم في خفاءٍ جسديّ غير مفهوم، جذّاب ومنّفر معاً .

قال لي جبره أنهم سوف يذهبون بعد المدرسة إلى بيت رمزي في آخر شارع ١٢ ، جنب شركة الغزل ، وإن رمزي عنده مجموعة مجلات كل شيء والدنيا والكواكب ، في غرفة على سطح بيتهم ، وسوف يقنعه بأن يسلّفني إياها لأقرأها في أجازه نصف السنة . وكان جابر يسمع الكلام ، فجاء إليّ في آخر حصة ، وكنا قد حفرنا أسماءنا على خشب الأدراج ، وأخرجنا المحابر الخزفية البيضاء من فوهاتها الغائرة ووضعنا بعضها فوق بعض، رصّاتٍ رصّات ، على مائدة المدرسّين ، وطيرّنا دبابير من الورق في سماء الفصل

وكتبنا بالطباشير الأحمر على زجاج النوافذ " تحيا الإجازة " . وقال جابر بغموض : خلّ بالك لما تروح مع الولاد دول عند رمزي ، خلّ بالك وكنت فرحاً بالاجازة الطويلة ومتوثباً بالعفرتة والفرح فلم أهتمّ بما قال .

خرجنا مبكّرين في هذا اليوم الأخير قبل إجازة نصف السنة ، وكان عندي وقت قبل ميعاد العودة التي كانت أمي تحاسبني عليها ، بالدقيقة ، على الساعة . وذهبت مع جبره وكمال الذي وضع ذراعه على كتفي وهو يقول إن خليفة أفندي وسامي أفندي ، ضابط المدرسة الشابّ ، أصحاب وينامون معاً في بيته بالليل . خطوتُ إلى جنب ، بعنف ، وابتعدت عنه ، وقطعنا شارع ١٢ حتى آخره ، وصعدنا السلالم النظيفة المعتمة ، وعبرنا الأبواب المغلقة الصامتة ، حتى السطح . وقال جبره إن رمزي سيأتي حالاً من تحت ، ودخلنا غرفة ، على السطح ، خالية ، لها ثلاثة جدران فقط من الحجر الخشن العاري ، وفيها شباك واحد عالٍ منقور في الحائط ليس له ضلفة ، وفي وسطها ، أمام لوح الخشب الكبير المفتوح الذي يحل محل الحائط الرابع، عمودٌ عريض من الأسمنت تخرج من صلبه أطرافُ حديدٍ متلوية رقيقة وصدئة ، يحمل السقف من المنتصف تماماً . كان النور خفيفاً في غرفة السطح ، وفي المكان كله نوع من السرّ والتوتّر . قال جبره ، بصوته اللزج وفيه غنّه لينة إن رمزي صعد معه إلى هنا ، يوم الأحد الماضي . وحكى كيف أنه ركع على يديه ورجليه واستند إلى العمود وقال إنه لم يصرخ بل كان يكزّ على فمه فقط ، و لم أفهم شيئاً ولكنني أحسست فجأة أنني في كمين، وأن شيئاً ما ، خطراً ومرعباً وغامضاً يدور من حولي ، قلت يجب أن أنزل الآن ، بيتنا بعيد، واندفعت أجري نازلاً على السلم وأنا أسمع كمال يقول إن رمزي سيجئ بالمجلات حالاً ، لم أردّ عليه كنت أجري في شارع ١٢ أجري في شارع الكروم ، أجري أعبر شارع الترامواي ، لا أتوقف ولا آخذ نفسي ، حتى

وجدت نفْسي في فَسحَة السلالم داخل بيتنا ، فوقفت وأنا أنهج واكتشفت أنني أضمّ كتبي إلى جنبي بشدة ، وأن الدم يضرب في عروقي كلها . وكان كل شيء مستغلقاً عليّ وغريباً وأريد أن أنساه .

تجّنبت هؤلاء الثلاثة بقية هذه السنة الأخيرة في مدرسة النيل الابتدائية، وكنت لا أريد أن أرى الابتسامة الكريهة على وجه جبره الشمعيّ ، ولكنني أحياناً، كنت لا أملك أن أرد عيني متأملاً جسم الولد رمزي المدّور الكسول.

استرددت نَفَسي ، وطلعت السلم ، كلّ درجتين في وثبة واحدة ، وعندما خبطت على زجاج ضلفة الباب المغبّشة فتحت لي خالتي سارة الصغيرة التي لم تكن تكبرني إلا بسنوات قلائل ، وكانت تحمل ، على يدها الأخرى ، الصينية المِرآة المستطيلة ذات المقبضين وعليها أكواب " المُغَات" السخن رائحته شهّية ، داكن الصفرة تطفو عليه طبقة السمن بدوائرها الصغيرة المُزّبدة مغروزاً فيها فتات من فصوص البندق واللوز وعين الجمل .

كانت أمي قد ولدت أختي لويزة ، وعملنا لها " السبوع " ، وجاء أبونا سمعان وصلّى على رأس أختي لويزة فصرخت وهي في قماطها الأبيض الوثيق وبَخّرَها ورشّ البيت كله بالماء المصلّى عليه الذي حمله معه في زجاجة صغيرة أخرجها من جيب جُبّته السوداء الحرير، وهزّ مجمرة البخور التي كانت أمي قد أوقدت النار في قطعِة فحم صغيرة فيها ، حتى احمرّت، فامتلأ البيت برائحةٍ عبقة وحريّفة كرائحةً الكنيسة من شُحُب البخور المتقطعة ، ومن الشموع الموقدة حول قُلّة منتفخة البطن ، مصبوغة بالأحمر ، على المائدة في فسحة البيت ، في صينية نحاسية ، ونيران الشمعات السبْع خافتة في عز النهار ومدبّبة وصفراء ، وكل شمعة مغروزة في طَبَق فنجان ، زُرعتْ فيها سبعة حبوب على أرضية من القطن المبلول ، وسُقيتْ برشّ الماء طول الأيام السبعة

الماضية ، الترمس والفول والشعير والغلّة والحلبة والذرة والعدس أبو جبّة ، وكانت النباتات الرقيقة الرفيعة جديدة الخضرة تكاد تكون شفّافة من رقتها ، وقد ارتفعت حول جذوع الشمع البيضاء المدوّرة . وكانت أمي ، في عزّ شبابها ، تقوم من سرير الولادة ثاني يوم ، وتعمل شغل البيت ، وكان أبي يرسل للبيت الفراخ ، بالقَفَص ، طول أيام النِفاس ، تحملها عربة "كارّو" من مينا البصل لغيط العنب .

عندما دخلت ، سمعت ثرثرة الستات واللغط والصيحات الناعمة والضحكات النسائية العالية ، كانت أمي عندها ضيوف ، جئن يهنّئن بالسلامة ، ورأيت على كنبة الفَسَحة ملاءاتهن السوداء خلعنها ورمينها من غير نظام ، وعلى "البوُريه" كومة صغيرة من الأساور والحِلقان والعقود والخواتم الذهبية . كانت الكومة الذهبية متهدلة الخيوط والحلقات بعضها فوق بعض ، تومض وتشع بخفوت ، وكنت أعرف أن زائرات أمي عليهن أن يخلعن كل ما يلبسن من ذهب قبل أن يدخلن عليها ، طول أربعين يوماً بعد الولادة ، خوفاً من " المشاهرة " . وكانت هذه الكلمة ، وهذا الطقس كلّه ، يسحرني ويحمل إليّ معاني غامضة عما يحدث للنساء من أشياء غريبة.

نادتني أمي فخجلت أن أدخل وكل هؤلاء النسوة معها و لم أردّ ، فنادتني مرة أخرى بصوتٍ عال ، وجذبتني خالتي سارّة من يدي ، وعندما دخلت الغرفة كانت النافذة مغلقة والمصباح الكهربائي متقداً في داخل كُمثراه الزجاجية المورقة المفتوحة وزجاجها بلون اللبن . وفَغَمتني روائح كثيفة مختلطة من الرضاع والمُغات وفَوحْ الأجسام النسائية ، وكانت أمي نصف مضطجعة مستندة بظهرها إلى مخدّة طويلة على قائم السرير ذي القطبان الحديدية اللامعة المتجاورة ، وإلى جانبها لويزة الملفوفة في قماطها ، مغمضة العينين حمراء الوجه ، وذهبت إلى أمي أخطو بين النساء اللاتي تربعن على "الكِليم"،

تحت السرير ، في ثيابهن المشّجرة المقورة الفتحة عن أثداء مستريحة وفيرة وانكشفت أفخاذهن قليلاً من فوق الركبة ، وهن يشربن المُغات ويثرثرن بعضهن مع بعض . وسمعت الست وهيبة تقول لامرأةٍ ممصوصة الوجه حادّة الشفتين لا أعرفها : لا ياختي ، اسم الله عليه ده زيّ الملاك اسأليني أنا .
ووقفت أمامها صامتاً وقلبي يدقّ فمدت يدها تحت المخدة وأخرجت صرّة صغيرة جداً ملفوفة بقطعة قماش بيضاء معقودة بعُقد كثيرة وأعطتها لي فأحسستها طريّة كأنّ فيها قطعة لحم حية ، واقشعرّ جسمي ، وقالت لي أمي أنْ أذهب ، في صَفَار الشمس ، إلى تقاطع شارع الكروم بشارع سيدي كريم ، وأقف أمام بيت روزا الخّياطة بالضبط في وسط الأربعة مفارق ، وأرميها بعزم ذراعي ، فوق ، فوق خالص . .

ظللت ممسك بالصرّة الصغيرة اللينة الجسم وذهبتُ إلى شرفة بيتنا المطلة على اصطبل الخيل وحوش العربيات "الحنطور" ، وعندما رأيت أن الشمس تميل للغروب على المحمودية نزلت جرياً ، وفي يدي الصرّة ، وكنت سمعت أمي تقول وهي لا تعرف أنني أسمعها إنه "خلاص" أختي لويزة ، ولم أعرف ما معنى الخلاص ولكن خيالي النشط صوّر لي أنه شيء ينزل مع البنات فقط عند الولادة ويجب الخلاص منه وأن أختي الوليدة لن يكون لها خلاص من عذابات النار بعد الموت إلا بذلك . ولكن السؤال الذي كان يحيرني هو كيف أن هذه المفارق أربعة ، هل هي أربعة شوارع ، يعني ؟ لكنهما شارعان فقط ، ولم أستطع أن أحلّ هذا اللغز ، ووقفتُ بالضبط في نصف تقاطع الشارعين وكان بيت روزا الخياطة من دور واحد ، وعريض ، وله جنينة واسعة أمامها سور من قوائم الخشب القصيرة وله باب خشبي بضلفتين ، وفي الجنينة تعريشة عنب كثّة بالورق العريض والأغصان المتلوّية وأمام الجنينة رصيف مبلّط بالبلاط الأبيض يفتح عليه باب البيت ونوافذه المنخفضة الكبيرة

وكان البيت صامتاً تماماً ، ومظلماً في هذا الوقت من النهار، فقد كانت الخيّاطة العجوز الشاميّة الأصل تعيش وحدها وكنت أعرف أن البنات يأتين للشغل عندها في النهار ويذهبن لبيوتهن على العصر وكنت أخاف قليلاً من المرأة الشمعيّة الوجه الحادّة الأنف ، بشعرها الأبيض الجاف الملفوف دائماً في منديل ملوّن تربط عقدته خلف رقبتها .

كان الشارع خالياً من الناحيتين ، على طول البصر . كل شيء في آخر النهار كان هادئاً ومهجوراً وساكتاً تماماً ، والنخيل في جنينة روزا الخّياطة يهتز سعَفُه بصوت خشخشةٍ خافتة .

رميت بالصرّة الصغيرة التي كنت أمسكها طول الوقت كأنني خائف من قوّتها الكامنة ومقدرتها على الإيذاء ، وطوّحت بها ذراعي إلى أقصى ما أستطيع . وارتفعت اللفّة الصغيرة الطرّية في الهواء ، عالياً باندفاع كأنه آتٍ من داخلها ، ارتفعتْ ، بقوة ، ثم اختفتْ ، تماماً . كأنها ذابت ، في انطلاقها إلى أعلى ، إلى بعيد ، كأن شيئاً ما ، غير مرئيّ ، قد التقطها في الفراغ وراحت .

استدرتُ على وجهي ، وانطلقتُ أجري إلى البيت بأسرع ما تحملني قدماي. كأنني أفرّ .

في حصة الدين كان الأولاد المسلمون يذهبون إلى غرفة المدّرسين حيث يتجمع زملاؤهم من الفصول الأخرى ، ويعطيهم خليفة أفندي درس الدين وأسمعهم ، من الشباك ، يقرأون القرآن معاً بصوت عالٍ منغّم له إيقاع مليء يحتشد له قلبي بالرهبة ، وأحسدهم وأريد أن أكون معهم . أما نحن فيدخل إلينا جرجس أفندي مدرّس الانجليزي ، وكان صعيدياً وقصيراً ونحيلاً وله وجه قاسٍ أسمر ، ويحّفظنا قانون الإيمان والوصايا العشر ومزامير داود وموعظة الجبل وكتّاباً صغيراً فيه أسئلة وأجوبة . وفي احدى الحصص وقف أنطون

زخاري فجأة وقال للمدرّس بصوتٍ عالٍ : أفندي الوصية الثالثة مش فاهمها يعني أيه لا تزنِ ؟ فضحك الكبار ضحكاً مكتوماً وقال جرجس أفندي بهدوء : طَبْ أجْعُدْ . . هي دي اللي أنت مش فاهمها ؟ لما تكبر ها تعرف ، مستعجل ليه ؟ وكنت أنا ، حقاً ، لا أعرف ، بأي شكل ، ومع ذلك فان شيئاً ما يُخجلني عن أن أسأل .

بعد أن خرجنا من المدرسة ، وقفتُ مع الأولاد الصغار أمام الفرن ، حتى يمر الترام في الشارع بصلصلته البطيئة وعرباته الزرقاء اللامعة ، وسألتهم بصوتٍ فيه تحدٍ وشيطنة : حد فيكم بقى يعرف يعني أيه بيوت الدعارة ؟ كنت قد قرأت خبراً في "الجهاد" عن تفكير الحكومة في إغلاق بيوت الدعارة، ولم أفهم ما هي هذه البيوت ، وقلت لنفسي إنها لابدّ البيوت القديمة التي سوف تسقط على أصحابها . ولم يعرف أحد ما هي ، وسكتوا، ومع ذلك لم نسأل أحداً .

في يوم الأثنين من الأسبوع الأخير للمدرسة كان الحوش الصغير دافئاً ومشمساً في فسحة بعد الظهر ، وكان الكبار متجمعين معاً . سمحوا لنا ، لأول مرة ، أن ننضمّ إليهم في حديثهم الخافت الحارّ عن مغامراتهم في كُوم بَكير يوم الأحد الذي فات وكأنهم قد اتخذوا قراراً بأننا كبرنا نحن أيضاً ونستحق هذه الجائزة ، إجازة الصيف الأخير توشك أن تأتي ، فمن يدري هل سنلتقي ، ومتى ، بعدها ، فمن حقنا الآن أن نعبر العتبة التي كانت محّرمة علينا . وقفنا في حلقة متضامّة متزاحمة نسمع بلهفة ، وقلوبنا تدقّ ، عن أشياء مبهمة تماماً عليّ ، ولا أستطيع أن أتصوّرها مهما حاولت ، ولكنني أحسّ لها سحراً لا مقاومة له . وبينا انطلق انطون زخاري يهمس بصوتٍ حادّ ، وسريع ومبحوح قليلاً كان الأولاد يقاطعونه ويهتفون بأصوات فيها انكسار البحة الأولى . ويضمّون رؤوسهم بعضها إلى بعض ويدورون حوله

ويستحثّونه بالسؤال عن التفاصيل . كانوا يعطوننا نحن الصغار ظهورهم كأنهم وقد تركونا ندخل الحلقة نَفضَوا أيديهم منا . وكان انطون رفيعاً جداً وطويلاً ويداه عصبيتان وعيناه ذكيّتان قلقتان تدوران حولنا كأنهما لا تريانننا وهو يصوّر بيديه وتقاطيع وجهه المسنونة وأنفه الكبير كيف أن المرأة البيضاء السمينة أعطته ظهرها وانحنت وعلّمته شيئاً ما لم ألتقط ، في وسط الزحمة ، ما هو ، ولا كيف يكون ، ولم أستطع أن أتصوّر ماذا كان يحدث عندئذ ، وإن كنت أهتزّ بنوعٍ من الروع ، والمتعة الخفية بخيالاتٍ غير محدّدة ، أما غريّب فقال إنه دخل على واحدة خلعت له قميصها الحرير الأبيض وكانت عارية تماماً تحته ، وسألته عن اسمه وأين يسكن ولما عرفت أنه من غيط العنب ومن شارع الكروم تركته يفعل ذلك مرتين إحداهما بعد الأخرى ولم تأخذ منه أي مليم وقالت له إن اسمها حسنية وأنها سكنت مرة في شارع الكروم وإنها تراعي الأصول وعليها دين لناس طيّبين هناك تريد أن تؤدّيه ، وقال إنها كانت رفيعة وسمراء وملتهبة كالنار وحنوناً أيضاً ، وكان صوته المترفّع البارد يرتعد قليلاً على غير عادته وكأنه خجل من ذلك . وقال أنها طلعت أو نزلت شرموطة بنت كلب وانه سيرجع إليها و يعطيها فلوسها على الجزمة ويضربها إذا فتحت فمها ، أيضاً، وكنت أستمع للحكاية وقلبي يرتجف مليئاً بالغموض ولم أصدّق أنها هي ، أبداً .

وقرّرنا نحن الصغار يومها ونحن نعود نحمل كتبنا ولا نريد أن نلعب "البلْي"، أننا عندما نكبر ونروح الثانوية ، سوف نذهب إلى كُوم بَكير نحن أيضاً ونطرق هذا المكان وبيوته السرية الواعدة بمتعات وملذات جنونية لا نعرف طعمها ولا نتصوّرها ، حتى . وكنا نعرف مع ذلك أنه يقع بين السّيالة وشارع توفيق قريباً من كركون اللبان وقال جابر إنه يعرفه بالضبط .

وتعاهدنا أن نذهب ، جميعاً ، أنا وجابر وفرنسيس واسكندر حتى لو تفرّقت بنا المدارس في الثانوي ، ولم نفِ بهذا التعّهد أبداً .

كان جابر أكبر جماعة الصغار ، ولكنه من الكبار أيضاً ، يضع رِجلاً هنا ورِجْلاً هناك . وبعد الامتحانات التي عقدت في تلك السنة ، لأول مرة في حياتي ، تحت خيمة عالية نُصبت في الحوش الكبير ولها فتحات وقماش ملون ومزخرف كقماش شوادر الأفراح والمآتم ، قال لي جابر إن عنده سحّارة ملآنة بالمجلات والكتب والروايات فقلت له إنني أريد أن أقرأها ، كلها ، في الاجازة، فقال لي تعالَ ، ووصف لي أين بيتهم .

كان بيتهم في شارع ١٢ ناحية كرموز ، دخلت من الباب الخشبّي من فوق عتبة رخامية ممسوحة ، وفوجئت بالسماء فوقيّ ، وكان في جانب الحوش الذي جرت فيه الفراخ من أمامي ، فرن موقد جلست أمامه سيدة بملابس سوداء وطَرحة على أطرافها غبار أبيض من الدقيق ، تخبز . سألتها عنه فرّحبت بي وقالت لي هّو أنتَ صاحبه ؟ يا أهلاً يا ضنايَ ونادته بصوت عالٍ ، ودخلتُ معه إلى البيت وكان غرفة واحدة فقط ، وكان أبوه راقداً علىً "كَنَبة" ومغطى بملاءة مصنوعة من خِرق ملونة قديمة مخيطة بعضها إلى بعض ويسعل بشدة ، وركع جابر أمام الكنبة وفتح لي غطاءً قائماً عمودياً يُفتح إلى جنب في بطن "الكَنَبَة" التي كان يرقد عليها أبوه ، وأحسست بحرَج شديد ونوع من الإثم . ولكن الرجل العجوز قال لي اتفضل ياْ بني خُد اللي انت عايزه دا جابر أخوك وكلمّني عنك كتير ربنا يخليك يابني ويديك الصحة انت واللي زيك يا ربّ يا كريم . ومدّ جابر يده استخرج أكواماً من الكواكب وكل شيء والدنيا والمصور واللطائف وروايات جرجي زيدان وروكامبول ، وجلست على الأرض أمام الكنبة أنتقي منها ما لم أكن قد قرأته من عند الست وهيبة أو عند أصهار خالي سوريال ، وتشجعت فمددت

يدي أيضاً تحت الرَحل الراقِد بضعفٍ واستسلام ، مغمَض العينين شاربه الكبير مُصفَرّ تماماً ووجهه متهضم جاف ومليء بالتجاعيد الخشنة ، وخرجَتْ يدي برصّةٍ ملفوفة بدوبارة من أربعة كتب ذات جلدة ورقية خشِنة صفراء ، والكتاب الأول عليه رسمُ ساذج الخطّ ومُغْوٍ لامرأةٍ جالسة على ركبتيها ، تضع فخذيها تحتها ؛ قدمها ، فقط ، بأصابعها المتجاورة ، ظاهرةٌ تحت ثوبها ، وإلى جانبها خُفّها العربيّ مدبّب الطرف ، وهي ترفع ذراعها المحملة بأساور غليظة وتشير بيدها إلى شيخ له لحية طويلة ، مربّعة ، مفروشة على صدره ، متربّع ، ظهره إلى وسادة ويُسند رأسه إلى يده ، أما المرأة فثدياها أحدهما قائم ومكّور والآخر متهدل ومستدير والحَلَمتان قائمتان بارزتان منهما ، وامرأة أخرى تجلس على البساط وتنظر إليهما بنظرة رعب .

وقرأتُ أعلى الرسم "ألف ليلة وليلة" بالخط الرقعة ، وعندما فككتُ الدوبارة رأيت الصفحة الأولى تقول إنها ذات الحوادث العجيبة والقصص المطربة الغريبة لياليها غرام في غرام وتفاصيل حب وعشق وهيام بالصور المدهشة البديعة من أبدع ما كان ومناظر أعجوبة من عجائب الزمان ، وخفق قلبي بشدة . سمعت عنها من الكبار. وتردد جابر في أن يعيرني الكتاب ولكني أغريته بمجموعتي من "عشرون قصة " ورواية سافو ، فوافق على أن يعطيني الجزء الأول فقط ، وعندما أعيده يعطيني الثاني ، وهكذا ، وعدتُ إلى البيت أجري جرياً من شارع إلى شارع، في نشوة يطير بها جسمي، حافياً . تخففتُ من الشبشب أمسكه في يدي، مع الكتاب ومجلات الكواكب، ودخلت البيت بعد أن نفضت رجلي من التراب ولبست الشبشب وأخفيت الكتاب تحت جلابيتي الخفيفة وضممت ذراعي، وفيها المجلات، عليه ..

وفي الغرفة الطويلة ذات الشرفة الخشبية المقفلة المسقوفة التي تطل على أصطبل عربات الحنطور ، رقدتُ على الكنبة الاسطمبولي ، جنب مائدتي

الرخامية البيضاوية المفروشة بالجرائد التي كنت أذاكر عليها دروسي ، والجرامفون ذي البوق ورسم الكلب . انزلقت قدماي إلى أرض ألف ليلة وليلة ، ودخلتُها ، ولم أخرج منها حتى الآن .

ذهبتُ فجأة إلى قديم الزمان وسالف العصر والأوان ، ودخلتُ قصر شهريار ملك ساسان وأخيه شاه زمان ملك سمرقند والعجم ، ورأيت امرأته تواقع العبد مسعود مع جواريها العشرين اللاتي يواقعن العبيد العشرين وما صاحب ذلك من بوس وتقبيل وما تلاه من تنكيل وتقتيل ، والأميرة شهرزاد تنزل من "أتومبيل باكار " مقدمته مربعة الشكل ولامعة ، أمام سينما محمد علي في شارع فؤاد ، وينحسر الفستان الحرير عن فخذيها السمراوين تنفرجان عندما تهبط فَأري العتمة الغامضة بينهما . أفزعتني المَرَدة الهائلة تخرج من القماقم ، وركبتُ الخيل الحديد تطير على عنان السحاب ، وهبطت إلى مدن الأبنوس والنحاس الخاوية من البشر ، وانحدرتُ على السلالم الأربعين إلى الأقبية الخفية والسراديب فوجدت القردة والدببة الشبقة تُعاطي النساء من اللذة ما لم يعرفه بشر ، وأرتقيتُ ظهور الجن العمالقة وركبت البساط السحريّ إلى جزائر الهند والصين ، ودرَّ صدري بالشفقة والخوف على أولاد المساتير المسخوطين كلاباً تنبح وتتغطى منهم الحريم حياء والمسحورين حميراً وبغالاً تعتِل الأثقال وتدور بأحجار الطواحين الثقيلة في سيرجة معتمة نازلة تحت الأرض والرجال الذين لا ينامون أبداً يضربونها بفروع من خشب الجميز ، والزيت يتقطر ويرشح ببطء في طسوت واسعة جدرانها الصفيح سوداء ولزجة ، وعرفت جَبَّ الخِصيّ بالسكاكين واستلال المحاشم وصبّ الزيت المغلي على الجسم الحيّ المتنزي وطيران الرؤوس على حدود السيوف والموت صبراً في الغَيران والآبار والزنازين والحبوس، والعبيد يكدّون وتنقصم ظهورهم في الوديان والمحاجر والأهوار ، والجواري الرافهات

اللاعبات بالدفّ والعود ، وقَتْلىَ الحب ، وصرَعَى المكائد ، والأبرياء يُؤخذون بجرائر الماكرين ، والصعايدة يحملون شوالات الدقيق البيضاء الدسمة الانبعاجات على ظهورهم القوية القضيفة التي لا يكسوها إلا خيش شوال مقطوع الجانبين تبرز منهما أذرع عارية سوداء معقّدة العضلات، والبنات الحيّات ، والبنات الغزلان ، والشُطار والعُيّار ، والعماليق والبطاريق ، والقسوس والنصارى بقلانسهم وزنانيرهم وصلبانهم والسَحرَة والمجانين والدراويش والهائمين ، والمَجوس عبدة النار ، والسود عبدة الأصنام ، والقراصنة . والربابنة ، والقهرمانات والطواشي ، والرهبان والمُجاهدين والصُنّاع والجواهرجية والصّياغ والمزّينين والحمّالين والخلفاء والوزراء وشهْبَنادر التجار ، والبنات الصغيرات صدورهن ضّيقة ومخسوفة وشعورهن الخشنة ملفوفة بالمدورة البيضاء غير النظيفة ينحنين طول النهار بالإبرة والخيط وجوههنّ الشاحبة تلتصق بالقماش الأسود في مشغل روزا الشامية يفقدن عيونهن في عتمة الغرفة الطويلة المنخفضة السقف ، وتَلَوْت الرُقَى والتعازيم وحللتُ الطلاسم وحملت الأحجبة وملّستُ على العمدان وأشعلْت المجامر ولبستُ الخواتم السحرية ووجدتُ حجَر الفلاسفة ونشقتُ البِنج والنشوق وسففتُ العقاقير والزرنيخ والجير ولعبت بالدرر واللآلىء والزبرجد والياقوت وتنزهتُ في البساتين ذات الأشجار الباسقة الفارعة والعريضة والعقيمة والمُثمرة والمتشابكة والجرداء . النخل والجميز والتين الهندي والسنط والكافور والنبق وأُمّ الشعور ، واغتسلتُ في الحمّامات ، وانسربتُ في الدهاليز والرواقات ونمتُ في الخانات على المصاطب والسُرُر المفروشة بالحرير ، ورميتُ بالسهام والرماح من الأبراج والحصون ، وامتطيتُ صهوات الخيل في الإصطبلات بينما الرجال يحكّون روث الخيل الداكن اللون طبقاتٍ مكومة فوق طبقات ، والروث الجديد فوقها مدوّر مُصْفَرّ اللون يصعد منه البخار ،

وأبحرتُ على سفن كالجبال تمخر البحار إلى الهند والسند وجزر واق الـواق ، وكنت هناك والترامواي يدهم الصبيان وتطير أشلاؤهم الدامية ، سيقاناً عارية مقطوعة ورؤسهم تتدحرج على حَجر البازلت الأسـود النظيـف ، انسـللتُ أمام زرائب الجاموس المظلمة ، أرضها الترابية عليها أكداس من التِبْن الأسـود المنعجن بالروث ولها رائحة نفاذة حارقة للأنف يعمل فيها رجال سـود ليـس عليهم إلا سراويل كالحة من العَبَك متصلبة بالنفايات الجافة عليها وصديريات ذات صف عمودي من أزرار صغيرة مدورة كثيرة ، كثيفة القماش من الوسَخ يكسحون الروث بأيديهم يملأون به جرادل ضخمة مدورة ويلقونه في أكـوام لزجـة جنـب البـاب ويضربـون مـا بقـى منـه بـالتبن المكـدّس علـى الأرض ، ونسائهم ، بعيونهن الجائعة وملابسهن السوداء الملوثة بالبلل ، يحلبن الضـروع الثرة باللبن الذي يسقط له خرير في الأسـطال المعدنيـة اللامعـة ، ثـم يركعـن أمام أكوام الـروث ويصنعـن أقـراص الجلّـة يفرشـنها في الشـمس علـى أرض الشارع .

وعندمـا عـدت تجولـتُ في شـوارع بغـداد متنكـراً مـع هـارون الرشـيد ، وسمعت شجو الأغاني مع الموصليّ وبراعة القريض ، وروّعتني فاجعة البرامكة وأحسستُ عنقي في يد مسرور السياف وذراعيّ ورجلـيّ مقيـدة بـالكلاليب والجنازير ، وصارعتُ الاحناش والتنانين وفتحت الكنـز المرصـود عـن ذهـب وماس ولؤلؤ منثـور ، وأكلـتُ مـن أصنـاف الطعـوم المطبوخـات والمشـويات والحلويات والنُقْل من لوز وجوز وبندق وزبيبٍ وحسوتَ القهوة والشـربات والنارنج والنبيذ الأصهـب كـالزعفران ، وشممـتُ الآس واليـاسمين والـنرجس والقرنفل ، وعجبتُ من أفعال الرجال في ثياب النساء والنساء في زي الرجال المحـاربين ، وعاشـرتُ العفـاريت الكَفَـرة والجّـن المؤمـنين والغلمـان كـالبدور والقِيان كالشموس وعرائس البحار ، والبنات الطيـور اللاتـي يخلعـن ريشـهن

فإذا لهن حُسْن يدوّخ العقول ، كأنهن الحور العِين ، ونعمتُ بملمس القمصان البندقية ، الذهبية منها والمشمشية والمطرزة بأسلاك الفضة ، على نساءٍ لهن شعور كالحرير ووجنات كرحيق الأرجوان وأنوف كحدّ السيوف وشفاه كالعقيق أو حَبّ الرمان ، وأعناق تلعاء كالعاج وصدور كبلاط الحمّام عليها نهود كفحول الرّمان أو حِقاق المسك والريحان ، وخصور مُخَنْصرة كأنّها من وهم الخيال وبطون كأنها العجين الخمران مكسورة بشقائق النعمان وأكثر بياضاً من المرمر كل عكنة من أعكانها تسع أوقية من دهن اللِبان وفككتُ تكِك السراويل المعقودة على فصوص الزمرد والمنقوشة بأشعار الهوى والتدلّه والتحريم ، فإذا سيقان من رخام دافئ مسنون فوقها كثبان من البلور ناعمة ومربربة واعدةٌ بالنعيم ، وأفخاذ كالعِمدان ألين من الزبد وأنعم من الحرير ، وجُلتُ بيدي في جميع الجهات حتى وصلت إلى قباب كثيرة الحركات والبركات عرفتُ من أسمائها خان أبي منصور وحبق الجسور والسمسم المقشور ، وفهمتُ أسرار البَوْس والمصّ والعض والغُنْج والشهقات واشتعل جسمي بالشوق فتيقّظتُ واشتددتُ وتوتّر البرعم النابض المنتصب وجلجلتْ نواقيس الساعة وسطع العالم للمرة الأولى بلبِّ المعرفة وانهمر الطوفان ووجدتُ نفسي فُلْكاً طافياً على الغَمْر وليس بين امواج اليمّ العاتية من طريق ، ومازلت أطفو وأغوص .

٥) غربان سود في النور

الطفل يحس جسمه يتيقظ فجأة في الليـل ، في غرفـة النـوم الدافئـة المغلقـة الباب . ويجد أنه على سرير عال ثقيل بالأغطيه ، ليس سريره . وأمه جنبـه ، مرتفعة الجسم ، تملأ السرير والغرفة . ويعرف أن أباه ليس هنـا ، ولا يعـرف أين ذهب ، ولماذا هو غائب لا ينام هنا . ويتحـرك الطفـل على يديـه وعلى قدميه ، يلف من تحت ساقي أمه النائمة التي تتنفس بهدوء ، بصوت مسموع وينـزل من على هذا السرير إلى صندوق كبير لا يكـاد يـراه في ظلمـة الليـل، مغطى بالألحفة والملاءات المطوية الناعمة الـتي تتلقـى سـقطته عليهـا مـن غـير صدمة .

لماذا كان يريد أن يذهب إلى سريره ، مُسَوَّى ، نظيفاً ، لم ينم عليه الليلة، عريضاً وموحشاً ؟

عندما صعد من على الصندوق إلى سريره الخالي ، وقف غير ثابت القدمين على المرتبة الطرية ، ومشى ، يهتزّ ، حتى جاء إلى النافذة المواربة ، ونظر منها إلى الشارع ، تحت . كانت النافذة عالية جداً .

عمود نور في الشارع الخاوي يتّقد بالغاز الأبيض الساطع شـعلته لا تكـاد تهتز في داخل فانوس الزجاج المربع النظيف ، فَتَحْتُه من تحت ، والنور يسقط من العمود على شجرة كثة الورق ، خضرتها ، في الليل ، تلمع بضوء الغـاز، وتحت العمود ، بعيداً جداً تحت ، يقف العسـكري ، بحلتـه السـوداء أزرارهـا الصفراء تومض وتنطفيء ، والبندقيه الطويله ، ترتفع من وراء ظهـره مصوبـة إلى أعلى ، إليه مباشرة ، والأبواب كلها مغلقة أمامه ، والشارع واسع أسـود الأرضية وطويل جداً . صدر الطفل ممتلئ بدقات قلبه العالية ، وهو يرى على

الشجرة ، وبين الورق المتراكب في الظل والنور ، سرباً من الطيور السوداء ، طويلة الجسم ، كثيرة ، كثيرة بلا عدد ، واقفة، صامتة ، ظهورها مقوسة قليلاً ومناقيرها مطبقة وممدودة إلى الأمام .

يسقط إلى الخلف ، يرى خطوط النور البيضاء ، متجاورة ، مستقيمه ، تقع على ظلمة سريره من خلال خصائص النافذة .

يحسّ أمه تثب إليه من السرير الآخر ، تحيطه بذراعها العاريتين ، نعومتهما على ظهره ، ليس فيهما أمان ، بعد ، وتقول بصوت خفيض مُلِح : اسم الصليب اسم الصليب ، وتحتضنه إليها فيغمض عينيه ويدفن رأسه في صدرها الغني لا يكاد يحتمل دق الدم في صدره .

يقول لأمه بلهفة : فين بابا ؟ فين بابا ؟ فتهدهد خوفه ياختي ، يا يسوع . مالك مَسْرُوُع كده ، إيه اللي قوّمك بس ؟ طب تعال ، تعال نام واتخمد كده . سرعتني . فيسأل ثانية : فين بابا ؟ فين بابا ؟ ويحس عينيه تغمضان .

وبعد أن ضربته الحياة كثيراً ، وأحبطته ، ولانت له أيضاً ، وأمتعته بعمق ، مثل كل الناس ، ظل يرى المشهد نقياً ، كأنه حدث بالأمس ، كأنه يحدث الآن .

في قاع المياه المضطربة حصاة بيضاء ، مدوّرة ، ناعمه . لم تترسب عليها شائبة من عكارة السنوات وطينتها .

ظل يحتفظ به طول عمره ، يتأمله ويسترجعه ، يهدهده في خِيفْة . ويعتقد أنه أول ما يذكر ، أول ما بقي ، واضحاً ، وحاضراً ، وفعّالاً . ويظن أنه كان عندئذ في الثالثة من عمره بالكثير بل يجب أن يتصور أنه كان في الثانية من عمره حتى ، ولكنه يقول : الثانية ؟ غير معقول . لا أظن . هذا مبكر جداً ، أليس كذلك ؟ في الوقت الذي يظل فيه أمَيل إلى هذه الفكرة لا يتخلى عنها ، ويقول : ولم لا ؟ صحيح . نعم . كنت في الثانية ، أو نحو

ذلك على أي حال ، صحيح . . . ولا يستطيع طبعاً أن يحسم الأمر. بل ينظر إلى الطفل الذي كانه ، ويبتسم قليلاً ، وكأنه آخر ، وإن كان غير غريب. ومازال يشعر بخوف ذلك الطفل ، ومضضه ، وبحثه الملتبس .

قال لنفسه : مَنْ هذا الطفل ؟ وأين هو ؟

وقال : ومَنْ الصبي الذي كان بعد عشر سنين ، وبعد أن طفا فُلكاً متطوحاً على طوفان جسده ، وحده ، تتخبط به أمواجٌ ملتطمة وساطعة وملتبسة ؟

انتقل أبواه ، مرة أخرى ، وأخرى ، من بيت إلى بيت ، بحثاً عن شقة إيجارها أرخص ، وأقرب إلى العباسية الثانوية ، وهرباً من الحجز على عفش البيت وفاء للأجرة المتأخرة المكسورة شهراً على شهر ، حتى استقروا في بيت عبده في محرم بك .

وانقطعت صداقاته بزملاء النيل الابتدائية في غيط العنب وكان يحس نفسه وحيداً وغريباً بين جمهرة تلاميذ العباسية الثانوية ، كثيرين جداً ، ملابسهم أغلى وأحسن ، كلامهم وطريقة سلوكهم تختلف ، والمسلمون فيهم أكبر عدداً بكثير . وتعلّم أن يأكل ، حسب الأصول ، في مطعم المدرسة الفواح برائحة الأكل الشهي والمدوّم بلغط الأكل البهيج ، الطبيخ والأرز واللحم أو الفراخ والحلو كل يوم ، وقبل الأعياد هناك الأكل الصيامي اللذيذ للأقباط ، مخصوص ، أما في رمضان فيصرف لهم سندويتشات ، موضوعة في علب ورق بيضاء . وفي الفُسَح الطويلة بعد الغداء دخل في زمالات وصراعات ، ولعب الكرة الشراب وتسلق أشجار الجنينة الممنوعة في بيت الناظر ، وضرب وانضرب ، وعرف المكتبة الغنية وغرق في كنوزها ، وطُرد من المدرسة لأنه لم يدفع قسط المصاريف وعاد بعد أن دبر أبوه الجنيهين و ٣٠٠ مليم وأخذ بها إيصالاً رقيق الورق أحمر اللون .

كانت أمه قد أطلت من البلكونه على البائع الذي كان ينادي من تحت "بِيكيا . بوتيلْيا . . " وقالت له : تعال . وكان صعيدياً يلف على رأسه عمامة من قماش أسود وحول رقبته الطويلة كوفيه سوداء ، وساومته طويلاً وقال لها صلّي على النبي ، طَبْ مجّدي سيّدك ، ما هي جايبة حَقّ المشال . حتى رضيت بأن يأخذ البوريه ، بمرآته البلجيكية الثقيلة ، على جانبيها دواليب صغيرة أبوابها الخشبية مشغولة ولها زجاج محبب أصفر وأحمر داكن، ورخامته المحمرة مجزعة بتشريجات بيضاء متشعبة ، وأدراجه التي كان يرسم على خشبها الداخلي الأبيض ، وهو طفل ، رسوم رجال لهم وجوه دائرية مقطوعة فيها عينان وشَرطة فم وأيد وأرجل كالعصى ، وكُتب عليهااسمه من غير حروف المد كلها ، بحروف منفصلة م خ ء ل . وذهب الرجل وعاد معه "شيّال" صعيدي ثقيل الجسم فَكّ أجزاء البوريه وحملها على ظهره ونزل بها السلا لم .

كان جابر هو الصديق الوحيد الذي ظل يأتي من غيط العنب . كان قد قضى العام كله في المدرسة الزراعية في شبين الكوم ، حيث عاد أبوه ، مازال يعاني من المرض ، والكحة ، ولكن عنيد ، وصلب العود ، ليعمل مزارعاً في عزبة البيه القريبة من البلد ، وقال له أنه سقط في أمتحان آخر السنة ، وأنهم عادوا إلى بيتهم في غيط العنب ، وأنه اشتغل ظهورات في البلدية ويكسب الآن عشرين قرشاً في الأسبوع ، كل يوم سبت ، نعمة من عند ربنا ، وكان يأتي إليه بأعداد رجوع من مجلة أبوللو ، وروايات الجيب ، وأهداه صورة قطعها من مجلة أبوللو ، على ورق حِسُّه ناعم ، بألوان مضطربة ، وفي أسفل الورقة علامات خروم الدبابيس الّتي كانت تثبته بالمجلة، وعنوان : نفرتيتي والمثال .

نفرتيتي تجلس على منصة عالية بدرجتين عن الأرض ، وبجانبها أصص زرع بنفسجي وحشي مهتَدل تحت ستارة ثقيلة زرقاء عليها رسم أعواد اللوتس القائمة الطويلة تنتهي بازدهار مقوس تخطيطّي الزخرفة . تاجها الأزرق المقطوع السطح معقود بشريط مذهَّب التطريز ، وكأنها تنظر إلى ما وراء الصورة ، وجهها صارم ودقيق فيه شبه ابتسامة ، وصدرها عارٍ تماماً لا يغطيه إلا عقد عريض متعدد الحلقات بالأزرق والأصفر وثدياها صغيران وقائمان في دورانهما ليونة متماسكة مخروطة ، وينسدل على فخذيها ثوبها الحريري الأبيض اللدن الطيات . أمامها ، من بعيد وإلى تحت ، المثّال . يضع اللمسات الأخيرة في تمثالها ، جالساً على كرسي بغير ظهر وإحدى ركبتيه مثنية ، نصف جسمه العلوي عارٍ خشن الأضلاع وشعره جَعْد مربوط بعصابة رفيعة من القماش الأبيض ، ويلفّ على حقويه إزاراً معقوداً بحزام قماش أحمر ، لا يصل إلى ركبتيه العاريتين . وهو يرفع إليها عينين عابدتين . وبجانبه قِصاع الألوان الصغيرة وفُرَش التلوين ، والقادوم والإزميل والمساطر والإبر الطويلة وسائر عدّة مهنته .

زرقة الحلم الداكنة هي لون العالم .

وعلى ظهر الورقة البيضاء الأملس مكتوب بخط كبير : إهداء من جابر بسيوني إلى ميخائيل قلدس ١٩٣٧ - ١٩٣٨ ، في داخل إطار مستطيل له ثلاث خطوط بالمسطرة والقلم الرصاص الذي بهت الآن .

كان أمام بيت عبده ، في محرم بك ، فيللا قديمة من الحجر ، مربعة ، مسطحة الجدران ، ووراءها حديقة لا يرى منها ، خلف البناء المتين ، إلا أعالي النخل وشجر المنجة والتوت الداكنة . ولم يكن يعرف عن أصحاب هذا البيت إلا أنهم أغنياء ، مترفّعون ، لا يختلطون بالجيران بل لا يكلمونهم، وأنهم أم عجوز لم يرها قط ، وولد في مثل سنه كان يخرج إلى البلكونة ، في

مقابل بلكونة بيتهم ، كثيراً ، وكان يذهب للمدرسة في سيارة فورد سوداء عالية ومربعة ، وأخته الأكبر منه بعدة سنوات ، جميلة جداً . ولم يعرف أسماءهم ولا جرؤ أن يسأل ، وكان يعرف أنهم من أصل تركي .

كان يقف في البلكونة المطلة على الفيللا ، أعلى منها قليلاً ، ساعات . لا يفعل شيئاً ، ينتظر فقط أن تخرج إلى الشرفة المقابلة .

وكانت لا تخرج إلا لحظة واحدة ، ثم تدخل على الفور .

كانت بيضاوية الوجه ، ناصعة ، شعرها الفاتح ينسدل على كتفيها وتلمه وراء عنقها بربطة زرقاء رقيقة ، ودائماً تخرج في "روب دي شامبر" حريري، أزرق سماوي عليه رسوم ورد أحمر وأصفر كبير ، ملفوف على جسمها اللدن ، سابغ يؤكد انسياب ساقيها الطويلتين ، وكان لحذائها الصغير ذي الكعب العالي قليلاً وقع على بلاط شرفتها ، يسمعه في الشارع الساكت .

يحبها جداً ، ويحلم بها أحلاماً مبهمة غير متحددة ، ولم يفكر قط في أن يعرفها أو تعرفه أو تنعقد بينهما علاقة من أي نوع . فقط ينتظرها ، وينظر إليها ، وترفع إليه عينيها أحياناً ، ويحبها جداً .

الحلم لم ينطق . اسودت شفتاه .

نعمتي بئر عينيها عميقة تومض بلمعة سوادها ، وكان الصراع بين جسدينا لا ينتهي ، ومعركة الحنان بيننا لا شفاء لها . جسمها كالعجين الأبيض المتماسك ، والسواد الشفاف يبرق نسيجه المُهفْهَف كالموج ، بالليل، على رمالها الدمثة ، وهي تنفتح عن ربوة فينوس المتحدرة ، شِقّها الطري ملتئم بنعومة وشوق ، وشفتاي منطبقتان على ثمرة البلح الصغيرة الداكنة ، أستطعم سُلافتها المسكِرة ، وأنين المتعة كأنين الموت ، لم أجد في الجسم الإجابة التي أنشدها ولوعتي إليها لاعجة ، أبداً . الطائر الأبيض الرؤوم يطبق عليَّ بجناحيه الأسودين الوثيرين ، يرفرفان ، حنانه قاتل ولا غنى لي عنه

واختناقي في الريش اللين كأنني أريده وآوي إليه . الغراب الحدأة الأنثى الخصيبة المعطاء ، بَذَلتْ لي جسم عمرها ، وعرفت في صدرها الطيّب قوة الحب والمقدرة على البقاء . فأين مهبّ الهواء الفسيح في الأفق الواسع المفتوح؟ وأين عصف الرعد بموسيقى الحرية والفرح ، ومياه المطر الهامرة ، مدراراً مُنبرئة ؟ عدت إلى حضن طائري بعد أن أحرقني عقيق برق العشق ، بعد أن اشتعلتُ في نار العليقة القائمة أبداً لا يبقى منها إلا جذع أسود الجمال ، متفحم وصلب ومستضئ، لا يسقط ولا ينكسر .

كان أبوه أيامها قد ترك عمله عند الشيخ المراغي تاجر البيض والبصل والمسلى في شارع انسطاسي بسبب قضية ما ظلت غامضة عليه حتى الآن ، وكان بالكاد يعمل حسابات التجار الآخرين باليومية ، أو بالمقاولة ، يشتغل يوماً أو يومين ، أو أسبوعاً أو أسبوعين ثم لا يجد شغلاً بالأسابيع ، ولكنه ينزل كل يوم على الصبح ، في ميعاده ، بعد أن يشرب قهوته التي يصنعها بنفسه على "السبرتاية" ولا يعود إلا على المساء . جفّ وجهه ونحل وغارت عيناه الثاقبتان المليئتان بالذكاء واليقظة ، ولم يعد يشرب خمسينية"الكونياك" على العشاء إلا في النادر ، ولكنه ظل أنيق الملبس ، أمي تنظف له "البالطو" بالفرشة صباح كل يوم ، والجلابية المفتوحة الحرير "السكروته" مكوية دائماً تهفهف ، شقها مطويّ على الشق الآخر بحزام مضفور دقيق ، والطربوش حادّ الدوران ، جافّ الحافة من غير أثر للعرق ليس عليه ذرة غبار .

وقرأ في اللطائف المصورة أن حضرة صاحب السعادة مراد سيد أحمد باشا عيّن وزيراً مفوضاً لمصر بألمانيا بعد أن كان يشغل هذا النصب في بلجيكا خلفاً لسعادة سيزوستريس سيداروس باشا وترك أثراً جليلاً في التمثيل الخارجي ، وتأمل قليلاً في صورته ، بالطربوش القصير والنظارة المدورة

اللامعة والشارب المشذب ، والياقة "البمباغ" والمعطف "الاسموكنج" ، ممتلئاً باعتدال وكبرياء .

عاد أبوه مرهقاً ، هالكاً من البحث والفشل ، وسمع أمه وهي قاعدة على الأرض في الفسحة تقول باللهجة الصعيدية التي تعلمتها منه رغماً عنها : يا حزْني يا حِزْني . . . يا ميلة بختك يا سوسن . . ودخل أبوه غرفة النوم وأغلق بابها على نفسه وسمعه يصلي وارتفع صوته من وراء الباب بنشيج مكتوم ودعاء لله ، محروق القلب ، فثارت نفسه عندئذ على أبيه وأمه معاً ، واعتمل قلبه بالسخط الغامض عليهما معاً ، والغضب ، وهرب إلى الغرفة التي فيها مائدته الرخامية أمام "الكنبة" ، فتح كتاباً لم يقرأ فيه ، وعندما نادته أمه على العشاء مع أخوته قال لها أن نفسه مسدودة فقالت إنها ستترك عشاءه على ترابيزة الوسط في الفسحة وقال له أبوه ربنا يرضى عليك يا وَلَدي وينجّحك ويفرّح قلبي بيك .

قال : وقامت الحرب بعد ذلك ، وانصلحت الأمور قليلاً وانتظمت، ودخلتُ الجامعة لأدرس الهندسة لأن أبي كان يريد أن يراني مهندساً وبَنّاء عظيماً ولكنه مات في ثاني سنه لي في الجامعة ولم يفرح قلبه بي .

وقال : مثل ناس كثيرين ، جداً . وليس مِثل أحد .

استيقظ من النوم متأخراً ، فوجد أن أخته التي كانت تنام على نفس سريره قد قامت قبله ، ووجد أن صباح الجمعة يمتد حائراً وخاوياً أمامه . نزع ملاءة السرير المغضنة من عليه ولّم جلابيته حوله ، وعندما فتح الشباك دخل الذباب إلى الغرفة ، وكان كثيراً وعنيداً وراح يدور ويئزّ . فذهب إلى المطبخ الكبير الخالي ، وكان معتماً ونظيفاً ، وإبريق الشاي يغلي على الوبور وفطوره جاهز ، تسقية الخبز الناشف المكسر والمكوم في صحن غويط ، وكوز اللبن المغلي بجانبه . وسمع أخته عايدة وأخته الصغيرة هناء تلعبان في

البلكونة وتثرثران بذلك الذي تثرثر به البنات في سنهن ، أيا كان ، لا يسمع إلا أصواتاً طفلية مستغرقة في اهتمامها بنفسها ، تماماً . وصبّ لنفسه اللبن على التسقيّة ، وجلس يأكل بملعقته الفضية الخاصة به منذ كان صغيراً جداً ، وكان يصنع في ذهنه شعراً حزيناً ويردد لنفسه : "حالت من الروض ورُوذُه، وماء الحسن قد جفّ عوده . . وذوى النْبت يا طول ما ماست قدوده" ثم قام ليغسل وجهه .

قال لأمه : عايز مصروفي النهارده . نص فرنك . كفايه بقى . أنا ماخدتش حاجة بقى لي أسبوع بحاله .

فنظرت إليه بصمت ، وقالت : حاضر .

قال ملحاً : دلوقتي : أنا نازل بعد الضهر .

فقالت مرة أخرى : حاضر ، ورآها تذهب إلى دولاب الملابس ، واشتغلت بما فيه مدة ترفع الأشياء التي فيه وتقلبها وتحطها ، وعادت إليه تحمل شيئاً ملفوفاً في ورقة جرنال . أعطته له فأحسه لينا وطريّ الّطيـاّت في يده من وراء الورق الخشن الذي له حفيف .

قالت له أن يذهب إلى محل الرهوناتي الذي في آخر شارع محرم بك ، على اليمين ، بعد شارع عِرْفان ، سيجد يافطة بأسمه ، أسمه يواقيم اسكندر .
قال لها : آخد كام ؟ قالت : إللي يديهولك . وحولت عنه وجهها .

نزل السلالم بالجلابية ، لم يغيرها ، يحمل اللفّة المطوية، بعناية ، ورفع رأسه إلى البلكونة المقابلة ودق قلبه لأنها كانت خالية ، وخرج من الشارع الترابيّ العريض إلى شارع محرم بك وهو يسير بسرعة ، والترام يهتز في صباح الجمعة الموحش ، وعربات الحنطور تجري بجانبه تحت الأشجار . ومر من على المقاهي ، خجلاً ومضطرباً يتخيل أن كل الناس تعرف ، وعبر أمام محل عينو في تقاطع الاسكندراني ومحرم بك ، وسار تحت الأسوار الحديدية

للبيوت القديمة كأنها سرايات ، بأبراجها الحجرية الكثيفة الشجر ، حتى وجد الدكان ، عليه اليافطة ، وبابه من الصاج المضلع ، مرتفعاً في اسطوانة كبيرةملفوفة إلى أعلى . وكان واسعاً ومعتماً ، والبلاط الرمادي رطب تحت حذائه القماش .

وكانت المنصة الرخامية سوداء وعالية ، يقوم في منتصفها حاجز من النحاس من الحائط للحائط ، له قطبان رفيعة لامعة صفراء ، متجاورة ، في وسطها فتحة مدورة صغيرة ، ومد الرجل يده ، من الفتحة ، بصمت .

رأى وجهه الغليظ تحت طربوش قصير داكن الحافة ضيّق على جبهته الناتئة وأنفه حادّ ، أقنى ، عيناه صغيرتان قال لنفسه إن فيهما نوعاً من الفهم والحزن وقال لنفسه لا ليس فيهما شيء .

انفكت ورقة الجرنال وسقطت ، وأحس في يديه النسيج الصوف القديم بلونه البنفسجي الفاتح عارياً وساخناً من طول إمساكه به ، فتَل الصوف واضحة متقاطعة ، كثيفة ، وشم نفْثةً خفيفة من رائحة العرق وهبوةً لا تكاد تحس من العطر الذي يعرفه . تناول الرجل الفستان من يديه ، وفرده وراء الحاجز النحاسي وهزّه أمامه ، ورأى الكمّين الطويلين الضيقين ، يهتزان بين اليدين الغريبتين ، وانسدال النسيج من تحت الحزام العريض وفتحة الرقبة المشغولة بكلفة من غير القماش نفسه خاليه ، وقال الرجل بصوت طريّ . من غير اهتمام ، وحاسم : ثمانية صاغ . وأحس صوته يخرج مخنوقاً قليلاً وهو يقول : طيّب . وكتب الرجل على ورقة مشرشرة من منتصفها ، ثم مزقها من عند الشرشرة بصوت سمعه مفاجئاً ، قاطعاً ، في عتمة الدكان الفسيحة ، ورشق نصف الورق بدبوس في رقبة الفستان ، وأعطاه النصف الآخر وقال له: شهر ، فكّ الرهنّية بعد ٣٠ يوم . من النهارده .

أعطاه الفلوس ، قطعة بخمسة ، وقطعة نصف فرنك مدورة صغيرة وقرشين تعريفة مخرومين .

وخرج من الدكان . أعشى عينيه نور الشمس الحارقة ، فلم ير في الشارع شيئاً .

تغدّوا يومها متأخرين جداً ، نزلت أمه بالملاءة السوداء ، وعادت ومعها لفة طرية الشكل في قطعة قماش سوداء مربوطة ، عندما فكّتها على رخامة المطبخ اصطدمت بها ، بصوت مبلل ، أرجل الفراخ بأصابعها المفرودة وجلدها الخشن المجعد على العظام المحزوزة بالسكين ، أطرافها داكنة اللون ورؤوسها المفتوحة العيون ، ملتصقة بالرقاب ، مقطوعة ، بعضها فوق بعض على الرخامة البيضاء المنقورة بحبيبات دقيقة . أكلوا فتة عيش بالخل والثوم ، وشوربة فراخ .

وبعد الغداء أعطته أمه القطعة الفضية المدورة الصغيرة التي كان قد جاء بها من دكان الرهوناتي .

جاء جابر بعد الظهر ، وخرج يتمشى معه حتى شارع المحمودية المظلل بالشجر الكثيف ، والمراكب البطيئة تنزلق على الماء الضيق الرصاصي ، وحكى له جابر عن شبين الكوم ، وعن ابن اخته فلفل وعن جارته امرأة البقال التي لم تخلف له ، وكيف نام معها في ظهر يوم حار ونعم بذلك كثيراً، وندم على ذلك كثيراً ، وصام كفارة سبعة أيام لا يأكل إلا بعد صلاة المغرب، فتذكر صلاته هو المُحرقة ، لإلِهَهِ ، وندمَه ودموعَه ، هو ، على لذّاته السّرية ، كل مرة ، وغَرَقه ، بلهفةٍ ومتعةٍ بجلجلة الضجيج وصامتة جداً وساطعة ، كل مرة ، في موجة جسده الملتطمة . ولم يحكِ لصديقه شيئاً.

وذهب مع جابر إلى "كازينو غيط العنب" أمام الكوبري . وطلب جابر اثنين شاي ، ولذعَ السائل الساخن المسكَّر الثقيل اللون والطعم لسانه وكاد

يشرق به وأحس الدم يكاد ينفجر من عينيه . وكانت القهوة محاطة بحيطان من الزجاج والحديد ، ومشتعلة بالنور من المصابيح الكهربية القوية ، وغاصّة بالعربجية وعمال الزرائب والصعايدة يقرقرون في النراجيل التي يغرغر الماء في بطونها المدورة ، ويشفطون الشاي بصوت استمتاع عال ، ويثرثرون بلهجتهم التي يحبها لأنها لهجة أبيه ، وأصرّ على أن يدفع ثمن الطلبات ، جاء الجرسون بجلابيته التي في مقدمتها جيب كبير مبلول ، فأعطاه كل ما معه، القطعة بقرشين ، وكان قد حرص على أن يتلمسها وهي صغيرة ، روّاغة ، في جيبة طول القعدة ، ليتأكد أنها هناك ، وأمام إصراره لم يمانع جابر كثيراً، ولكنه عندما رد الجرسون القرش تعريفه الباقي ، على سبيل البقشيش ، قال جابر همساً ، إن هذا كثير ، اثنين ثلاثة مليم كان كفاية .

ويقول لنفسه : أين أنت الآن يا جابر ؟ هل تعيش في اسكندرية ، مازلت، ولك أولاد -كبار ، واحفاد ، ربما ؟ هل متّ ، وانقضيت ؟ وما أغرب هذا كله ، وكيف لم يرك هذا الصبي ، بعد ، طوال خمسين عاماً أو تقل قليلاً ؟ أين ذهب كل هؤلاء الصغار والكبار ؟

ويقول : ما معنى هذا التوجّع الصعب ، وضعف النفس ، ولذع الحنين القديم ؟ وما قيمته ؟ أليس هذا كله معروفاً ومأثوراً ، قرب نهاية الأمر ؟ فما عكوفك ، المثير للسخرية قليلاً ، على ما باد واندثر ؟ حذار . . خلّ بالك .

في آخر ذلك الصيف رُصَّتْ الكراسي الخيزران صفوفاً في الحوش الضيق المترب ، بين حيطان البيوت المطبقة عليه . وتُركت مساحة ، تحت الحائط ، فيها كراسي فارغة ، مواجهة . كانت "الكلوبات" تئزّ بنور حجري أبيض، والمصابيح الكهربية كرات صغيرة لامعة بالضوء الأصفر معلقة يهتزّ بها الهواء في حبال عرضية ، مرتخية ، بين حائطين .

الصبيّ يجلس ، بجلابيته البيضاء النظيفة وحذاء"باتا" القماش الذي اغبّر من التراب ، على كرسيّ غير مريح في أول صفّ ، على الآخر حنب نافذةٍ مغلقة الشيش يتخايل من ورائها نور الحجرة ، وإلى يمينه سيدة بدينة فاض جسمها من على الكرسي والتصق به ، في فستانها "الساتان" الأخضر تحت ملاءتها التي سقطت على ظهر الكرسي وراءها ، وعلى حِجرها طفل نائم بعمق في ضجيج النداءات والهتافات وصراخ أطفال يجرون بين الكراسي يثيرون التراب أو يتشبّثون بفساتين أمهاتهم .كان أعضاء التخت يجربون موسيقاهم ، أصوات العود التي ترن في جوف الخشب والكمنجة التي تئنّ فجأة بنغمات خادشة رفيعة ، والعجوز الذي يلبس طربوشاً ينزّ العرق على حافته يحضن عوده ويتمطّق بشيءٍ بين فكيه المطبقين ، وبجانبه الطبّال الجسيم وجهه مدور وأسمر ومنقور بحفر جدريّ قديم ، في جلبابه الأبيض ذي الياقة الجافة المفتوحة على لغد مترجرج ، ينظر إلى الناس بعينين نصف مغلقتين من الدهن حولهما ، بجانبه الرقّاق الطويل النحيل في بالطو وجلابيه ، يداه عصبيتان وأصابعه طويلة جداً لها أظافر مدبّبة ولامعة ، يمسك بالرق ذي الصاجات التي تصلصل قليلاً في يده ، أما "الكمنجاتي" ، في بذلته السوداء التي تبدو رمادية تحت نور الكلوب وياقته "البمباغ" التي تدور حول رقبته بصلابة تتدلى منها عقدة "بابيون" سوداء ضافية القماش على صدر قميص أبيض منشىّ ، فقد أسند رأسه إلى يده ، وترك "الكمنجة" على حجره ، وبدا كأنه نائم .

ثم حدث لغط وحركة ، وانفتح الباب الخشبي المطل على الحوش ، وخرج منه أولاً صبيّ العالمة ، قصيراً ورفيعاً في جلابية حريرية بيضاء تشفّ عن "فانلة" رفيعة الحمالات ، تظهر من ورائها ساقاه النحيلتان ، وكان انفه أقنى ومدبباً ، وحاجباه مقوسان بعناية ، وهو يقول بصوت مشروخ وسَّعْ يا جدع وسّعي يا أمي خلْ بالك يا ولد ، ووراءه الراقصة تكاد تحتكّ بالحائط في الممر

الضيقّ بين البيت وبين الكراسي المصفوفة المتزاحمة الغاصة بالناس ، حتى جاءت إلى أول الصف ، ومرت من أمامه قريبة جداً إليه ، شمّ منها رائحة عطر الياسمين النفّاذ والبودرة ونفح الجسم النسائي الخاص . وكانت عارية إلا من بدلة الرقص اللامعة الصفراء تلفّ على الثديين المحبوكين والبطن المدور بترتر فضيّ صغير سريع الاهتزاز ، في حركتها ، ولحم الثديين مكور مضغوط نصفة ظاهر ومسكوب من النسيج المزدحم بحشوة اللين ؛ نوع من موسيقى الرشاقة المنسابة ، كانسلال القطط الممتلئة ، في حركة ساقيها القصيرتين نوعاً ما ، والبطن المقبب المحبوس في القماش تحت السرة التي وقع النور على غورها المدور القريب وعلى الردفين الممسوكين بقَمطة سوداء عريضة ذات شراشيب، يهبط منها ، حتى الأرض ، قماش أسود شفاف بخروم دقيقة مفتوح نصفين ، علق التراب بأطرافه السفلى ، وفيه مزقة طويلة مرتوقة بخيط أسود ضيق الغُرزَ ، شعرها خشن وقصير صلب الشكل ، وعلى وجهها الأبيض المربع العظام المفروش بالبودرة ، لا مبالاة ، وتحدي البذاءة ، وفي عينيها المكحولتين بثقل والجاحظتين قليلاً ، نظرةُ بلادةٍ ووخامة أرضية ، ورأى على ذقنها المنحدر للوراء نقطة وشم زرقاء . وعلى الفور انتبه التخت ونشط ، وناح العود نواحاً ضعيفاً والكمنجة تصاحبه بينما دقات الطبول تحت اليد المكتنزة الأصابع تتتابع وتتسارع . وقف الرقاق بجسمه الضاوي المشدود يهزّ الصاجات وراء الراقصة ، فانخرطت مباشرة في هزّ جسمها ببطء وكسل يميناً ويساراً ، ورفعت ذراعيها المدملجتين ، عليهما أساور فضية ثقيلة ، عن الإبطين بطّياتهما الصغيرة الداكنة اللون قليلاً مكان الشعر المنزوع ، وأخذت تتحرك على إيقاع التخت في المساحة المتربة الضيقة أمام الكراسي ، حذاؤها الذهبي الناصل اللون يضغط بسيوره الرفيعة على لحم قدمها وأصابعها الغليظة . اقتربت منه جداً ، ثدياها يترجرحان في ضيق البدلة، وبطنها العاري

يهتز، فوقه السرة الدقيقة المعجونة بليونة، وتحته القبة الصغيرة كاملة التدوير فيها شقّ واضح غائر بين الخدّين الصغيرين تحت النسيج الأصفر الملتصق ، محدَّداً بأقراص الترتر السريعة التموج ، ورأى أن أطراف النسيج ناصلة ومفكوكة الخيوط ومُشَعَّثة قليلاً . ابتعدت فجأة ، واستدارت إليه بظهرها وردفاها يتراوحان في كتلة واحدة كبيرة ، وأحسّ بين ساقيه بالتوترّ الصلب يفضحه نتوء الجلابية ، وتضرّج وجهه بالدم . كانت البودرة قد ساحت قليلاً على ظهرها والصبي قد تسمّرت عيناه بالجسم الجميل العاري الذي يلف ويدور وينحني ويقوم ويرتعد وينفجر ويهدأ ويميل ويتحرك بلدونة وآلية معاً ، على ضبط التخت وأنينه ، كأنه مشدود إلى الموسيقى الخشنة بخيوط غير مرئية ، وكأنه في الوقت نفسه شيء منفصل ، يقوم بعمل مرسوم ، مخطّط ، لا صلة له به حتى انقطع التخت فجأة ، وصمت .

عاد اللغط ، والنداءات ، وصراخ النساء على أولادهن ، وعادت الراقصة إلى البيت من الباب الخشبي المفتوح على الحوش . ثم انفتحت النافذة المجاورة له تماماً ، فتحة صغيرة مواربة ، ورأى ، من الشق الطولي ، صبيّ العالمة النحيل القصير ، خصل شعره الأسود ليّنة على وجهه الأسمر الطويل ، وهو ينحني يفتح حقيبة من الخشب . تناول من بين الأشياء الكثيرة فيها علبة مدورة كبيرة عليها رسمٌ ورد ملون ، وحَفَن منها حفنة بودرة ، وراح يمسح على ظهر الراقصة ، وبطنها وفخذيها ، وذراعيها ، وأعلى صدرها ، بنظام وترتيب ، يجفّف العرق بالبودرة ، بيدين مدرّبين حاذقتين ، في حركة بطيئة فيها ملاطفة ناعمة نسائية الإيحاء ، ورأى أنه هو أيضاً متوترّ وهناك نتوء مرئي تحت جلابيته الحريرية الشفافة المنسدلة عليه تهتزّ وهو يعمل ، وسمع الراقصة تضحك فجأة بخفوت وكأنما بمتعة وملل في الوقت نفسه وهي تقول: خلصيني بقى يا أختي وَرَانا شغل تاني . وفوجئ بهذا النداء . وقام بسرعة

قبل أن تعود الراقصة للحوش ، ولفّ من وراء البيت . وقف في الشـارع ، في هواء الليل ، أصوات الفرح المختلطة غامضة الآن ، تحت سمـاء داكنـة الزرقـة حريرية الملمس ، مثقوبة بنقط فضيـة لامعـة ، حتـى جـف وجهـه الغـارق في العرق قبل أن يصعد السلالم إلى بيتهـم ، ووجـد صحـن الفـول علـى ترابيزة الوسط في الفسحة ، وأكله بشهية وجوع وغضب .

في الليل ، في ضوء المصباح الكهربي القويّ ، كـان وحـده ، علـى الكنبـة الاسطمبولي ، وحده يقرأ رواية السهم الأسود على مائدته الرخامية البيضاوية المفروشة بكتبه وقواميسه ، وإلى جانبه دولاب الملابـس العـالي ، خشبه البُـنّيّ لامع ومصقول ، وعلى كل من ضلفتيه مرآة بلجيكية سميكة بللورية النقـاء . ساقان بيضاوان يومضان باللحم الناعم وينضمان على المثلثّ المقبب المَمْسود، والنسيج الأسود "الساتان" يلتصق بالاستدارة الصغـيرة وينتهـي تحـت تكّـور الردفين بنمنمة "الدانتيللا"، يتراوح سوادها المشغول بين خرومها الدقيقـة مـع بياض الجسد المتنـزي المتقلّـب الـذي يحتضـن انبثـاق الصلابـة الجياشـة بـالدم والمتعة المحبوسة ، حتى تنبجس ، من جديد ، سورة مياه الطوفـان ، ويتقـوّض الجسم .

جاء من محرم بيك ، مشياً إلى محطة الرمل ، ترك وراءه أحزان صباح ثقيـل السحاب في سماء الاسكندرية الفضّية ، المقفلة على نفسها فوق البحر ، وعَبَر السلسة ، ووقف عند الشاطبي . ترك الكورنيش ، ونزل على سـلالم متعرجـة منحوتة في الصخر المتآكل الزلِق تحت قدميه وكانت السـلالم تغـوص في ميـاه بحرية هادئة ويهتزّ موجهاً في دوائر تتسع حتى تصل إلى حافة جدران الصخـر فتصطدم به بخفة ، رغوتها متقلبة الزبدَ . وتحـت قدميـه العـاريتين ، بـالضبط عند التقـاء المـاء بـالصخر ، طحلـب مخضـر كـثّ الوبـرة ، مُخْضـلّ بالبلولـة اللزجة؛ إذا انحسرت عنه موجةّ الماء الشفافة ، الهفهافة القوام ، جفّ الطحلب

بسرعة ، واصفرّ لونه قليلاً ونشف الماء تماماً . يبيضّ جسد الطحلب شيئاً فشيئاً فإذا هو غضّ وناعم وأملس يلتفّ بلدونة ملتصقاً بحافة الصخر الدائرية، حتى يرتفع الماء فجأة ، ويلطمه برفق ، فيبتل من جديد، ويعود أخضر غضيراً كثيف اللحم .

النور يأتي من فتحةٍ علوية واسعة منقورة في السقف الحجري مضطربة الحواف ، فيغمر هذا الاتساع الداخلي المحصور بين صخور مشقّقة عليها طبقات بارزة قليلاً متلوية الخطوط بلون أكثر صفرة كأنها هشّة ومتماسكة بالكاد . وينفتح ، إلى جانبه ، في الجدار المحبّب ، نفق منحدر نصفه الأعلى القريب منه جاف ، مدور ، أرضيته رملية مفروشة بقواقع صغيرة بيضاء كثيرة ، ثم يهوي النفق إلى الماء وتلتطم الأمواج فيه ويرتفع سطحها المتراوح المرتطم ويضيق حيزّ الفراغ فوق الموج حتى يغوض النفق تماماً في الماء الذي يملؤه ، بلونه الأزرق الداكن ، حتى العمق المدفون الذاهب إلى تحت في ظلمة القاع .

يعرف أن فتحة النفق التي تدعوه مُغوية ، ومُفضية إلى التهلكة ، وينزل بثقة على سلالم يعرف أنها ستهبط به في الماء ، إلى كهوف أخرى ، واحداً بعد واحد ، منقورة كلها في قلب صخر البحر الداخلي ، تحت الأمواج ، عالية وفسيحة يخبّ فيها نسيم رقيق ملحيّ الطعم ، منيرة بضوء خاص من غير شمس ولا مصابيح ولا شموع ، فيها فتحات على الرمل الأبيض الذي تغمر سطحه بالكاد ، مياه قليلة ، مترجرجة .

حتى وصل بعد رحلةٍ لا جهد فيها ماشياً كأنه يسبح في الهواء ، إلى أرض رملية فسيحة غارقة في شمس السماء تحيط بها أسوار النحاس المُصمتة العالية سميكة وساخنة ، إن دَققَت عليها جاءك صدى أجوف عميق ، لا باب فيها ؛

دائرية تماماً ولكن شاسعة لا يكاد البصر أن يحيط بدائريّتها المرمية على أقصى سعة الأفق ، بإحكام لا منفذ منه ، ولا رغبة له في الخروج منها .

وإلى هذه الساحة الرملية الخاوية سوف يخرج ، بعد أن يغتسل ويتطهر في البحر الملح .

يخرج إليها الماء يقطر منه ، يضع رأسه على فخذيها اللدنتين العارتين ، وهي جالسة على الرمل ، تبتسم ، وشعرها الفاتح ينسدل على كتفيها الرشقتين ، ويغمض عينيه بالقرب من بطنها المدور المحبوك ، ويرى من خلال جفنيه المطبقين ، دوائر مشعة ملونة بالأحمر الداكن ، تتسع وتتسع وتضيق، ويأتي بعدها نور حريري ناعم لا ألوان فيه . وأعرف أن الظلال السوداء عندئذ ، سوف ترفرف عليّ ، وتسقط ، من السماء الخاوية .

لماذا انثر حبات قلبي على الرمال ، تحت أقدام العابرين ، منْ سوف يلتقطها ؟ وماذا سيفعل بها ؟

٦) النوارس بيضاء الجناح

سمع الطفل رفرفة أجنحة الملاك .

عرفة نومه كأنها واحدة ، متكررة في بيوت متعاقبة ، دافئة وليلية ومزدحمة بالسرير العالي ذي الأعمدة الأربعة ، داير السرير التُلّ الأبيض المخرَّم ، عليه نقوش مشغولة ، لسلالٍ مخصوفة متهدلة بالورد المفتوح ، يحاصره من فوق ، ثابتٌ وساقط في النور . "لمبة الجاز" نمرة خمسة معلقة على الحائط ، كأنها قريبة إليه جداً ، شُعلتها البيضاء مدببة ، لسانها رفيع صاعد يذوب في سنٍ من النار ترتعش وتتجدد من وراء زجاجها الرقيق .

والألم في أذنه كان ثاقباً ، ودائماً ، لا يخفّ ولكن ينبض ، يهزّه بايقاع متكرر ، مستمرّ والطفل كان قد قبل هذا الألم الذي لم يكن الرحلً يقبله ، أبداً . ورقبته كانت ضخمة ، متورّمة تملأ عليه إحساسه ، ملفوفة بربطة بيضاء عليها قماش ملويّ بعضه على بعض ، طريّ بشيءٍ لزج وداكن اللون والنار كانت في وجهه ، ورأسه ، كأنها قد أصبحت مادة جسمِه نفسها. كان قد سكت الآن يُغفي قليلاً كأنه يحس أنه نائم ، ويستيقظ ، في الليل ، وكأنه نائم ، ودقات الوجع الممزَّق في جانب وجهه ، منتظمة بإصرار لا ينتهي ، وهو يرى شعلة النار الدقيقة باردة ، وكبيرة .

كانت أمه راكعة تحت سريره ، لا يرى في عكس النور إلا ظلمة رأسها المحنيّ المسنود على حافة السرير، وشعرها القصير المضطرب كتلة واحدة من غير تفاصيل . وكان يسمع من خلال خبطات الألم المسدودة ، صوتها الخافت الحار المِلحّ ، تصلّي .

قالت له : كان عندك سنتين ، يمكن ، تلاتة. وكنت هتروح مني .

وقالت إنها سَبَحت على بحر الليل بطوله ، وإنها نذرته للملاك إن وصل للبر .

كان راقداً لا يتحرك الآن ، جسمه يتقّد بهدوء ، ساكناً بسطوع الألم واللهب المستديم ، ولم يكن للخوف معنى ، بعد ، ولا للحركة . وعندما بهتت شعلة " لمبة الجاز" واصفرّت ، آخر الليل ، وبطنها الشفاف أصبح داكن الزجاج قليلاً ، ودخل الغرفة ما يشبه نور الأشياء عندما لا تعود مظلمة، كانت أمه قد تركت رأسها علي حرف السرير ، وهي ما زالت راكعة ، ولكنها كانت هادئة تماماً ، منتظمة الأنفاس ، نائمة كان الليل في آخره صامتاً فسيحاً جداً وصامتاً .

عندئذ سمع رفرفة الأجنحة ، واهتزّ داير السرير فوقه ، وتموّج ، وهبَّت في الغرفة المقفلة الكثيفة أنفاسُ ريحٍ باردة منعشة ، وكأنها نفحةُ من بخورٍ خفيف عَبِقٍ بعذوبةٍ لم يعرفها أبداً من بعد .

ولا يذكر شيئاً آخر.

كُنّا في بيت بسيوني ، في شارع الأنهار الذي ينتهي ببيت أم توتو .

وله شرفة واسعة تطلّ ، عبر الشارع الترابي النظيف ، علي جنينة فيها شجر ونخل وكانت أمي تقوم في آخر الليل وتعجن فطير الملاك في قصعة فخار واسعة ، في هذه الشرفة ، وأستيقظ علي طبطبة العجين فأجري حافياً وأقف أراقبها ، وفي أول الصبح تأتي أقراص الفطير ساخنة من الفرن ، هشّة مكورة ومنداحة قليلاً ، وجهها محموش محروق الصفرة لامع من زيت السيرج وعليه النقوش باللغة القبطية والصليب المُورق الأطراف . وكانت أمي كل سنة ، تضع الأقراص في " كرسي عباس" زجاجي كأنه زهرة بلورية ضخمة مفتوحة التويج ، ساقها الرشيقة قائمة تومض في الضوء ، تحمل السَعَة الشفافة الرقراقة المُضلّعة وترسل منها في أطباق واسعة مسطحة من الصيني الأبيض

المنقوش بزهور صغيرة زرقاء إلي الجيران والحبايب ، وأم محمود ، وأم حسن ، وأم توتو ، وخالي حنا ، وخالتي لبيبة . وكان جيرانها من المسلمين يرسلون إليها أطباق العاشوراء في موسمها ، وأباريق الخُشاف في رمضان ، ونتبادل أطباق الكعك والبسكوت والغُرَيَّبة والقراقيش باللبن ، في أعياد القيامة والأضحى والميلاد والفطر ، مكسوةً بفُوَط ناصعة البياض، مكوية ، أو ملونة بمربعات ذات شراشيب ، وتظل أمي تقارن بين فضائل كعك كل حارة وعيوبه ، لدونة العجميّة فيه أو صلابة قوامه ، ونعومة الغُرَيبة أو حُبيبيّتها ، وتُخمّن ، بالتذوّق والاستطعام ، نوع السمن ، بقري أو جاموسي ، صعيدي أو فلاحي ، المصنوع منه البسكوت .

ومن هذا البيت أخذتني خالتي سارة ، من يدي ، أول مرة ، وذهبت معي إلى روضة الكرمة القبطية الأرثوذكسية في شارع نزيب . وكانت خالتي سارة صغيرة لا تكاد تكبرني إلا بسنوات ولكنها كانت " الألْفَة" في درس مدارس الأحد التي تقام في الروضة بعد خروج الكنيسة ، تنظّف الغرفة الكبيرة وتعدّها وتمسح السبورة وترصّ أصابع الطباشير الملونة بالأحمر والأصفر والأخضر، وترتّب الصور الدينية التي تُوزَّع على الصغار مجاناً، وتجمع كتب الترانيم بعد الدرس .

ويومها كانت الدنيا قد أمطرت طول الليل ، وكان الشارع موحلاً، وكان حذائي الأسود الجديد يغوص في الطين ، وهي تمسك بيدي ، وشرابي الأبيض الناصع انتثرت عليه نقط الماء الطينيّ الأسود وحزنت عليه جداً ودخلت معها غرفة الناظر ، وجلست على كرسيّ عالٍ عليّ جداً ، وكان على حيطان الغرفة المدهونة بطلاء أصفر لامع صور معلّقة للأسد والجمل والزرافة ، وخريطة لمصر ملّونة بالأخضر والأزرق والبنيّ المُحَمَرّ ، وفي أسفل الصور الورقية المبطنة بالقماش المسدلة بين قضيبين خشبيين عرضيّين ، بلونٍ

داكن ، كتابةٌ عرفت بعد ذلك بكثير أنها بالعربي والإنجليزي وتعلمت أن أقرأ أسماءها .

دخل منصور أفندي الناظر، طويلاً ، قائم العود ، صارماً وحنون النظرة ، وجهه أسمر وفيه نُقَر الجدري القديمة الدقيقة الغائرة . وأحببته على الفور لأنه سلمَّ عليَّ باليد ، وكلّمني كما يكلّم الرجال ، ومعه "مس كاترين" ، نحيلة وبيضاء الوجه كالأطفال وشعرها البنيّ الفاتح ينهمر ناعماً ومصقولاً على كتفيها ، وقبّلتني على خدّي ، وكانت هي التي علّمتني الأبجدية بالإنجليزي وأن أقول الأرقام واستهجي كاتْ . ماتْ . مانْ . رانْ . تحت صور القطة والحصيرة والرجل والولد الذي يجري بلا توقّف .

وعندما رجعت من الروضة ، مليئاً بالأخبار والحكايات ، كانت أمي قد ذهبت ، بالملاءة السوداء ، إلى حلْقة السمك في الأنفوشي ورجعت بالترام إلى غيط العنب ، ومعها شروة سمك ، بلطي وقراميط وثعابين ، وجنبري . وقبل أن يغلبني النوم دخلت المطبخ ، أشرب . وكان مظلماً تماماً في أوّل الليل ، وبمجرد أن عبرت باب المطبخ انخطف بصري ، وتوقّفت ، مسحوراً.

كان الجنبري الكبير شفافاً ومنيراً في الظلمة ، طافياً وممداً في الطشت النحاسي الكبير المملوء بالماء ، على الأرض . كل واحدة على حدة ، إحداهما فوق الأخرى ، وجنب إحداها الأخرى ، تلمع بنورها ، مرسومةً بخطوطٍ فسفورية مضيئة في عتمة الماء ، من الرأس حتى الذيل ، والخيوط الرفيعة السوداء تُحدّد هيكل العظام الدقيقة ، واللحم الأبيض متوهّج تحت القشرة الهشة ، يضوء بإشعاع ساطع ، وذيولها تتحرك أهون حركة ، ترسل في الماء الذي يغمرها بالكاد رعشاتٍ صغيرة .

وأحسست بموسيقى الموت البطئ .

هذه الموسيقى كنت أحسها ، خفيةً وتسحرني ، كأنما تترقرق في زجاج الصورة التي يحيط بها إطار خشبي عريض بلون الجوز ، وفيه الرجل برأسه الأصلع المدوَّر ولحيته الشهباء ، متّقد العينين ، ينحني على الطفل يسوع الذي تشعّ هالة من نور فضيّ اللون حول رأسه الصغير ، والرجل قد ألقى على إحدى كتفيه حرملة حمراء فوق القميص الأزرق اليانع الواسع التقويرة على صدره العظْميّ ، والطفل يرفع إليه عينين واسعتين مدهوشتين . وعندما كبرت كنت أحبّ أن أنظر إلى هذا الشيخ ، كثيراً ، وأحسّ حنانه . قلت لأبي : صورة مَنْ ؟ قال أبي : كان رجلاً باراً تقيّاً . أوحى إليه الملاك أنه لا يرى الموت قبل أن يرى الرب . سمعان . سمعان الشيخ وقال لي أبي : أنا تعبت يا ولدي . جاهدت الجهاد الحسن . فقط تتخرج أنت ، وتأخذ شهادتك . حتى أستطيع أن أقول وقلبي مرتاح : " أكملت السعي، وحفظت الإيمان . الآن تطلق عبدك يا سيد حسب قولك بسلام . لأن عينيّ قد أبصرتا خلاصك " .

وفي ليلةٍ باردة جداً من ديسمبر كنت في غرفتي أُذاكر ، وأرسم تصميماً لا نهاية له ، بالمسطرة والمثلث والبركار ، وكانت الواحدة صباحاً . سمعت الشهقة فقط ، في صمت الليل ، شهقة واحدة ، حادة ، انقطعت مرة واحدة جاءت أمي تجري إليّ : أبوك. . أبوك. . إلحق هات دكتور .

لما رجعت من ظلمة الليل في اسكندرية كان الهواء حادّ البرد ، وكان قد مات . بسلام .

لم أكن قد أكملت سعيي ، ولم أكمله . ولم أعرف – حتى الآن - ما الخلاص .

في حارة الجُلّنار في راغب باشا ، كان البرد في بيتنا لاذعاً للعظْم ، ولكنه لم يكن أبداً جافاً ولا قاسياً ، بل كان مبلولاً بشكلٍ ما ، ورطب الهواء

وكنت أنزل فأشتري الفحم من عم عبده البقال ، ونضع قطع الفحم الهشّة ، تلمع بقطرات الجاز القليلة المصبوبة عليها ، على التراب في الموقدة الفخار ، وعلى أصابعنا آثار سواده الناعم ، يدخّن الفحم قليلاً برائحةٍ نفاذة ، ثم تتطاير ألسنة النار الصغيرة ونحن ننفخ عليها ، حتى تتّقد حبات الفحم وتسطع ويتحول جسمها الهشّ إلى جمراتٍ متوهجة الحمرة فيها خطوط رقيقة أكثر اتّقاداً وحمرتها أكثر التماعاً ، وتتكون عليها طبقةٌ من رماد أبيض كالدقيق ، وتظل محتفظة مع ذلك بشكلِها ، وتَكَسُّرِ حناياها الحادّة وطبقاتِها المتراوحة الحمرة ، ولا تنهار إلا إذا حرّكنا الموقدة ، وجدّدنا الفحم ، ووضعنا عليه حبات " أبو فروة " بقشرها البنيّ الجافّ المتجعد ، نتخاطفها ساخنة ومحمرة البطن ولها عَبق خفيف فيه نفحة من حلاوة السكر وطزاجة الفطير في الفرن.

وكان أبي يجلس على الشلتة ، على الأرض ، وأمامه الطبليّة المنخفضة، وعليها خمسينيّة "الكونياك" ، وشقائق البيض المسلوق المقشّر وقد عُصِرَ عليها الليمون ، ووِرْك الفرخة المحمَّر ، وشرائح الجبْنة التركي الصفراء يابسةً ومشقّقة وندية في الوقت نفسه بزيتها النّاضح من لحمها الداخلي ، وأرغفة الخبز الصغيرة المقبّبة وجهها المحموش الرقيق مغروسٌ بحبّة البَرَكَة المنقّطة والسمسم السريع التفتّت . وكان يحكي لنا حكايات ، ويضحك قليلاً جداً عندما أغالط أخواتي في عدد أبو فروة وأستولي لنفسي على واحدةٍ أكثر، ولا يأخذ منه شيئاً .

المطر يقرقع على زجاج الشبابيك بإيقاع مطّرد سريع ، الدفء داخل الغرفة يصنع غشاءً كالضباب ، رقيقاً على لوحة الزجاج الخارجية ، وأرى أنوار الحَارَة من خلال نداوة الماء المُغبَّشة على الزجاج كأنها نجوم صغيرة كثيرة متشعّعة ، وعندما يَنْعَقُ البرقُ في خطفاتٍ ساطعة تشب فيها البيوت

وسطوحها وسحب السماء في ضوءٍ فضيٍّ باهر ثم يختفي ، تتلوهـا بعـد ثـوان قرقعة الرعد المليئة الصدر ، يُجلجلُ متلاحقَ الارتطام ، كـالطبل الضخم ، كان قلبي يبتهج جداً ، وتصرخ عايدة أختي صرخـة صغيرة وتجري هنـاء إلى حضن أمي ، فتضحك أمي ويُهدئ أبي من رُوعها ، وأحسّ مع ذلـك لمسةً من الخوف تحبك البهجة أكثرَ إثارة وأكثر توهُّجاً ، وإحساساً بالأمن والكِـنّ في الغرفـة الـتي دفئـت ، وطـابت ، والفحـم قـد صفـا ، نـارُه رائقـة ، وبعـد اصطفاق صنوج الرعد الهائلة الفسيحة المدى يكـون للفحـم هسيسٌ خـافت، ووشيش مكتوم في اشتعاله الفرِح الهادئ .

وفي الحرب غلا الفحم ، وشحّ ، وكنت في الثقافة العامة ، أتدّفأ "بوابـور" الجاز ، أضعه يفح ويئز أزيزاً متصلاً ملهوفاً ، فوقه كوز ملـيء بالمـاء ، جنـب رِجلي ، وأنا أذاكر دروسي على مائدتي الرخام المثقلة الآن بـالكتب ، وأفتـح " كتـاب التنـين للشـعر" طبعـة أكسـفورد ١٩٣٦، بجلدتـه الصلبـة الزرقـاء الداكنة، وأقرأ شيلي بالإنجليزية ، يتغنىّ بأوزيماندياس ملك الملوك الذي تحت ساقيه الهائلتين المكسورتين تمتد الرمال موحشةً ومُصَوّحـة ومُسـوّاة إلى بعيـد، بينمـا الغرفـة تمتلـئ برائحـة "الجـاز" المحـروق الممـتزج ببخـار المـاء ووشـيش "الوابور" المستمر ، وكان اسم أوزيماندياس يسحرني ، وأمجاد الهوى المشبوب الذي نَحَتَهَ شيلي في وجهه المقوَّض المُلقى على الرمال الساخنة تزلـزل قلـبي ، بينما يسقط المطر يدقُّ خشب البلكونة المقفـل دقـاتٍ متلاحقـة، لا تنقطـع ، تجعل جسمي المُتوتّر مشدودَ الجوارح ، لا ينطفـئ . وكـانت شـهوات الصبـا ومعاشِقُه حادة ناتئة الشظايا .

وكأنما كان أبي يسير معي ، ممسكاً بيدي، وأنا أسير في شارع الفراهدة في أول المساء ، وأعمدة النور معلقة بها الكـرات المـدورة الزرقـاء تريـق ضوءهـا الشاحب ، وكنت أفتقده جداً ، ومخـازن الخشـب العريضـة مقفلـة الأبـواب.

ظهرت من آخر الشارع جماعة مـن العسـاكر الإنجليز ، يجـري بعضهـم وراء بعض ، ويصرخون بأصوات ثاقبة ، صبياناً في مثل سنّي ، سكرانين مـن يقـين الموت القريب ، محترقين بلدغـات الأجسـام المقضـيّ عليهـا مـن الآن ، وأهـل البلد القليلون يسيرون بسرعة ، على جنب ، في حالهم ، ويتبع العسـاكر ولـد سَفْروُت أكرت الشعر ، على ساقيه السوداوَين الممصوصينّ "شُورت كـاكي" واسعُ ومقطوع ، وعلى كتفيه"جاكتـة" بحّـاري زرقـاء باهتـة في نـور الليـل، حافي القدمـين ، أراه يقتفيهـم بحـذر وتربُّصٍ حتـى يهـدأ ضجيجهـم قليـلاً، فيقـترب بجـرأة ويدخـل معهـم علـى الفـور في مفاوضـات سـريعة منخفضـة الصوت وملّحة ، بإنجليزية شوارع اسكندرية في الحرب ويقودهم بثقـة وهـم ينحرفون معاً في حارة جانبيـة مظلمـة . وأنـا أمرّ أمـام "البـارات" الصغـيرة، المتعاقبة في الشارع ، تتدلى فوق أبوابها فوانيس محمـرّة داكنـة علـى اللافتـات المكتوبة بالإنجليزية : القـط الأسـود ، كنـج جـورج ، نجمـة لنـدن ، الحصـان الأبيض ، والباب ينفتح فجأة عن نورٍ صاخب مدخّن يقطع أسـفلت الشـارع وموسيقى حـادة ولغـط الشـرب ودندنـة السـكارى وطنـين الحديـث تقطعـه ضحكة نسوية فاقعة ثم يصمت فجأة بارتداد الباب ، ويعود الظلام .

بعد سنة أو أكثر من موت أبي كنت أشتغل مساعد " مخزنجي" في مخزن ٦ للبحرية البريطانية ، في كَفْر عَشْري ، وأواصل دراستي الهندسة . أستيقظ مـن النوم في الخامسة صباحاً لكي أفتح المخزن في السادسة ، وأعمل حتـى الثالثـة بعد الظهر . وكنت أنقل المحاضرات من صديقٍ نوبيّ دمِث الوجـه ومنخفـض الصوت دائماً ، ذهبتْ به أمواج الأيام عن كلّ شـواطِئي ، ولم ألتـقِ بـه أبـداً بعـد أن تخرجـت ، ومـازال صوتـه الهـادئ يطـوف بـي حتـى الآن . وكنـت أستأذن أحياناً من مستر لي ، رئيس المخزن ، لكي أخـرج فـأحضر العمـل أو أقدّم المشروع ، فكان يأذن لي ، غالباً ، بل يأمر سائقه اليوناني المجندّ فيوصلني

لغاية الكلية في محرم بك ، بسيارة جيب مفتوحة من سيارات البحرية البريطانية ، وأعود بالترام ، وأشتغل ساعتين أو ثلاثاً في دورية بعد الظهر فيحسبها لي "أوفر تايم" أو لا يحسبها ، حسب المزاج ، أو أخبار الحرب . وعند وصول البواخر بشحنات جديدة أطّبق ورديتين فأصل بيتنا في راغب باشا قبيل منتصف الليل ، ميّتاً من التعب . وإذا وجدت أن عباس قد ترك لي الكشكول أسهر في نَقْل المحاضرة ، ومع ذلك أقرأ في السياسة أو في الشعر من مجلات كانت تصل إليّ بالبريد من فرنسا وانجلترا، قبل أن أنام ساعتين ، وتوقظني أمي في الخامسة ، وأخطف منها خمس دقائق نوم زيادة ، ثم ألحق بأول ترام في شارع راغب باشا وأغيّر إلى ترام القباري، وأفتح المخزن في السادسة .

كنا في ١٩٤٤، وكنت في الثامنة عشرة ، ومزعزع الإيمان وشديد الوَرَع، غارقاً في حسمي وطُهْرانياً لم أذهب إلى امرأة قط ، وأعتبر نفسي "حر الفكر" وسوادويّ المزاج ، على الطريقة الرومانتيكية .

وكنت في مخزن٦ مسئول عن العمال المصريين ، أشغّلهم وأترجم لهم وعنهم وأحسب أجورهم . وفي الأوّل كنت غريباً بينهم ، قليلاً ، ولكنني عندما أكلت معهم العيش والملح والبطاطس المقلي والجبنة التركي ، وتعلمت أن أشخر لهم بالإسكندراني وأن أشتمهم بالأب والأم والمِلّة ، حتى الآخر، وأطلب لهم مكافآت خاصة في الوقت نفسه وأزوّد لهم قليلاً في الأجر الإضافي، ووصلنا إلى اتفاق عام مُضمَر بالتغاضي عن السرقات الهايفة فأقيّدها في الأذون والدفاتر"خسائر" أو " مفقود عند التفريغ " وأن أبلغ فقط، مع الريس نونو ، عن السرقات الكبيرة المحترمة ؛ عندئذٍ قبلوني واحد منهم ، وكنا يعزّ بعضنا بعضاً جداً . وما زالت أحنّ – بسذاجة - إلى صحبتهم .

ليلتها ، بعد أن انصرفتْ الوردية الثانية ، في العاشرة تماماً ، قال لي مستر لي أن أنتظر ، ودخل مكتبه الزجاجي وتكلم بالتليفون ، وناداني وقال لي إن عندنا وردية ثالثة طوارئ ، وإن باخرة وصلت الآن فجأة بشحنة كبيرة، وإن سيارات النقل العسكرية ستتصل من الميناء في أي وقت الآن ، وقال أنه متأسّف جداً لأن سائقه اليوناني قد أخذ السيارة ليعيد التذاكر التي قد حجزها لحفلة الساعة التاسعة في سينما رويال ، وإنه سيصرف لي بدلّ انتقال لأن عليَّ أن أذهب إلى بيت الرّيس نونو أكلفه أن يتولّ جَمْع العمّال ، بما فيهم عمّ على الونْشمان ، والأسطى مُرسي النجار ، من منازلهم ومقاهيهم، وإننا سنشتغل ، كلنا ، ومعنا مستر ويلز ومستر رينشو حتى نفرّغ الحمولة ونرصّها في المخزن . وأعطاني عنوان الريس نونو : ٣١ حارة القاضي الفاضل المتفرع من شارع الفراهدة ، وقال إن الساعة الآن العاشرة وسبع دقائق ، وإنه ينتظر الرّيس نونو والعمّال في تمام الساعة الثانية عشر وقال "الثانية عشر، على دَقّة الساعة ، من غير معلهش " فقلت له ، بحدّة : "الثانية عشرة ، على دقة الساعة ، وليس هناك معلهش ، ومن فضلك لا داعي للأفكار الجاهزة ولا للانحيازات ، لأن أولاد البلد – هؤلاء " النِيتِفْز " أو " الوُجْز " كما تقولون – يعرفون معنى الواجب والشرف في العمل". فابتسم لي بعينيه فقط من وراء زجاج نظّارته السميكة قَعْر الكوب ، وقال "رايْت أُو". فقط .

ركبت ترام السبع بنات ، ونزلت في محطة كركون اللبان ، وخرّمت على الفراهدة مباشرة . لماذا افتقدتُ أبي ، فجأة ، وأنا أسير في الشارع ، بأنوراره الزرقاء ، وباراته ، وبيوته الغامضة ؟.

انطلقتْ قريباً منيّ عربة "حنطور" مثقلة بالعساكر الأستراليين ، مكوَّمين فيها ومتدلّين من جانبيها ومعلّقين بمؤخرتها ، بقبّعاتهم المدوّرة العريضة وجثثهم الضخمة الشاهقة ، عملاقٌ منهم أخذ مكان " العربجي الذي انحشر

جنبه فارغ اليدين مُسلماً أمره لله ، والعملاق أخذ يفرقع بالكرباج فوق ظهر الحصان فراح يعدو كأنه قد جمح بالعربة المائلة إلى جانبها بخطورة، والأسترالْ يصفّرون صفيراً ثاقباً يائساً ويصرخون باستماتة: هَا . . شي . . شي . . بأعلى أصواتهم ، في صمت الشارع الخالي .

وجدتُ حارة القاضي مباشرَّةً بعد أنقاض البيت الذي سقط عليه "طوربيد" طلياني ، السنة اللي فاتت ، وتكومت أحجاره القديمة وترابه وخشبه ونَبَتَتْ فيها عناقيدُ مُلْتَفّة من النباتاتِ والحشائش شَكْلُها بالليل مهدّد وكانت رائحة البحر دافئة .

عندما دخلتُ الحارة الطويلة أحسست بأمان أكثر ، كانت مصابيح النور الزرقاء متباعدة وأبواب البيوت مفتوحة ومظلمة كأنها لا تغلق أبداً ، ورأيت جماعات صغيرة من العساكر " الأفريكان " السود الضخام ، والإنجليز الشُقر الناحلي القامات ، وعدداً قليلاً من أهل البلد بالجلاليب والبلاطي الخفيفة أو البنطلونات ، معظمهم كبارٌ في السِنّ جداً ، يخرجون ويدخلون البيوت بصمتٍ وسِرِّية . ومررت ، وأنا أحاول أن أقرأ أرقام البيوت ، على بار واحد ضيّق الباب وعليه كلمة واحدة بالإنجليزية "بار" تومض وتنطفئ لمبة كرويةُ حمراء فوقها ، وعلى قمة الحارة التالية عربة الكِبْدة والطحال ، عليها صينية مدوّرة فوق "وابور" حاز يفحّ بصوتٍ واضح أبحّ في سكون الليل ، ونشيش مرقة الكبدة ورائحتها المقلية تَفغْمني وتفتح نفسي للأكل .

وصلت البيت رقم ٣١ ، وخرج إليّ من الظلمة وراء الباب ، فجأة ، رجل طويل ومخروط الوجه وشمعيّ اللون ، يعرج قليلاً خفيف الساقين سدّ عليّ الباب وهو يسأل بخشونة : رايح فين يافندي ؟ بلهجةٍ ممطوطة ومُنذرة. ترددت لحظة ولكني أجبت طائعاً : عايز الريس نونو . مش دا نمرة ٣١ برضو؟ فنظر إليّ نظرةً ثاقبة كأنه يزن صدقي ، ومعدني ، وأفسح الطريق

بخطوةٍ جانبية مفاجئة وقال : اتفضل . الكاتْ التالت فوق . اتفضل أُمال يافندي .

هبّت عليَّ من بيرِ السلم رائحةُ رطوبةٍ قديمة ، وكانت الأنوار تتخايل على السلالم ، فوق .

كانت أبواب الشقق كلها مفتوحة وساطعة . وكانت درجات السلالم الحجرية البيضاءُ ناعمةَ الحواف ، انبرتْ من الرِجْل طالعة نازلة .

في أول دور ، على الباب الذي يتّقد في الفسحة وراءه مباشرة " كلوب غاز " متوهج ، وقفتْ بنت ، في الثانية عشرة ؟ أصغر ؟ عارية تقريباً ، صدرها لم يكد ينهد ، صغيراً وقليل الصلابة . كانت تستند إلى قائمة الباب من الداخل ، والنور يسقط على شعرها الجعد القصير الخشن اَلملفْلفة ، تلبس قميصاً بحمّالات ، موجزاً جداً ، أسود ولامعاً وواسعاً قليلاً يكشف كلّ كتفيها النحيلتين وظهرها وينزل إلى أعلى وركيها الرفيعّتين المدوّرتين ، ترفع يدها المطلّية الأظافر بالمانيكير الأحمر ، بسيجارة مشتعلة لا تدخنّها ، إلى شفتيها الداكنتين بحمرة قانية ، وفي يدها الأخرى المدلاة إلى فخذها العارية عِلْبة بلايرز انجليزي زرقاء فاتحة ، وتخشخش حلقتان من الأساور الكهرمانية الصفراء على ذراعها السمراء الضاوية ، وعيناها ثقيلتان بالأسود الذي يحددهما ، وعظام وجهها تومض ، وهي تنظر إليّ .

لمحت في الشقة بنتين أو ثلاثاً من سّنها أو أكبر قليلاً ، كأنّهن أسماك ملونة داخل " أكواريوم " زجاجيّ منير ، في درجات متراوحة من العُري ، جالساتٍ بصمت وانكسار على "كَنبَة اسطمبولي" طويلة ، ناحلات ، مسوخُ صغيرة مُزوَّقة ببذاءة . وسمعت فجأة صوتاً مبحوحاً أجشّ من الحشيش ، لم أرَ مَنْ صاحبته ، أو صاحبه ، من داخل الفَسَحة : اتفضل يا فندي ، عندنا حاجة على ذوقك والنبي . وبرُبَع جنِي بسّ . اتفضل يا خويا . على عينك يا

تاجر. واللي ما يشتري يتفرج . وتمتمت بشيءٍ كأنه متشكّر أو ما يشبهها ، وكدت أتعثّر بالسلالم ، والصوت يُلاحقني بضحكةٍ مبحَّوحة محمَّلة بإيماء لم أفهمه : يُوه . . هوانته من بتوع فوق يا جَدَع. . ! ياختي بَلاَ وكْسة. . !

في الدور الثاني كانت دكة خشبية موضوعة أمام الباب المفتوح ، تكاد تسدّه ، شوَّرَ لي الرجل الذي يجلس عليها ، بيديه . كان باهظ البدانة ، عليه جلابية ممزقة غليظة النسيج و"جاكتة كاكي" فوقها من غير أكمام . خرجْت من فمه المتدلي أصْوات مليئة مُلحّة وأدركت أنه أخرس ، كانت في حشرجته دعوة خشنة مباشرة وفيها يأس لا يأتي إلا في أصوات الخُرْس التي تجاهد ، بشقّ النفْس ، للطلوع . ومدّ إليَّ يدين متضخّمتين حيّتينْ ، أظافرهما طويلة انحشرت تحتها خطوط سوادٍ قديم ، وأوشك أن يجذبني إليه بقوة خارقة وهو مازال يزوم ويحزق ويغصّ بالحمحمة والمجاهدة ، رأيت وراء الدكة شلتة عريضة نام عليها ولدٌ صغير السن ، طويل الجسم ، يلبس جلباباً أبيض شفّافاً يكشف عن قميصٍ بناتي فُسَدقي اللون بحمّالات ، وقد رفع أمامه ساقيه العاريتين الملساوين بحيث أخفى عُري ما بينهما ، وكان ينظر إلى السقف ، وفمه مصبوغ بما يشبه الدم السائل وعيناه مكحولتان بدقة وحاجباه قوسان رفيعان مدوّران ، ويبدو كأنه لا ينتظر شيئاً ولا يريد ولا يرفض شيئا ً.

وفكرت أننا ربما ما زلنا أول الليل وأن الزبائن لم يصلوا بعد .

كان دمي قد نشف عندما خبطت على باب الريّس نونو ، وخرج إليّ ، منتفخ العينين قليلاً ، بالصديري واللباس الإسكندراني المنفوخ المتراكب الطيّات ، ورحّبَ بي جداً . وكنت أعرف أنه قد طلّق امرأته وأنها تعيش مع أولاده في السيّالة وأنه وحده في هذا البيت الغريب ، ولكنه عَزَمَ عليَّ بشاي ثقيل عمله بنفسه وقال لي : ولا يِهمَّكْ يافندي ، طَبْ وحياة اللي خلَقك ،

وسِيدي المُرسي أبو العَباس ، دول كلّهم غلابَة ، وأهُو كلّه أكْل عيش بَرْضُو.. وضحكنا ، ونزل معي حتى باب الشارع . ولم نتكلم .

وكان البيت ، ونحن ننزل مظلماً وهادئاً ، والسلالم صامتة تماماً ، والأبواب مغلقة .

وفي الثانية عشرة إلا دقائق كان الريّس نونو ، وعمّاله الصعايدة والبحارْوة وأولاد البلد وعمّ علي بعمامته البيضاء وجاكتته ومعرفته السحرية بأسرار "الوِنْش" والأسطى مُرسي وعامل "البوفيه" أيضاً كلهم ، بربطِة المعلّم ، من "أبو شنب" العجوز الخشن الصوت الذي يتحرك بصعوبة إلى "حميدو شُورتي" الولد السَفْروت الذي في جسمه قوة رَجُليْن ، كلّهم ، على باب المخزن . وكانت السيارات الضخمة ، تقف صفاً في الظلام ، عالية وسوداء ومغطاة بالتاربولين المطّاط الداكن المشّمع اللمْعة ، تكاد تسدّ الحارة أمام المخزن . ودخل العمال من الباب الحديدي الكبير وهم يسلّمون على عسكري الحراسة اليوناني الذي يعرفهم واحداً واحداً . وبدأ الشُغْل فوراً ، على الأنوار القوية ، وهم يغنُون ، والريس نونو يحثّهم ويمد يديه في الشغل ويقود الغناء وأنا أهتف بهم وأشتم ضاحكاً وأناديهم بالاسم ، وهم يعتلون الصناديق الكبيرة والبالات الهائلة ، وأزيز الوْنش يصعد بها إلى النافذة المفتوحة الكبيرة في الدور الثاني ، وينزل ، سلاسِلُه الحديدية تصلصِل وتصطفق ، حتى الفجر . وفرشوا حصيرة نظيفة في الحوش ، وصلّوا الفجر ، وتكوّموا جنب الحائط العالي المُصمَت في الحوش ، يشربون الشاي بشفْط مسموع ، ويتكلمون بأصواتٍ خافتة ، مهدودة .

وقفت بجانب "الونش" على حافة النافذة الكبيرة المفتوحة بعرض الحائط كله ، من غير حاجز ، خطِرة ومغْوية ، وكنت أنظر إليهم ، في نور الفجر

الغامض الشاحب . وارتعدت من نسمة البحر التي هبّت باردة ، مفاجئة ، وكنت غائر القلب ، عاضباً .

قبل ذلك بسنتين تقريباً كنت قد أخذت التوجيهية ، عِلْمي ، بتفوق . وكنت أبحث عن عمل في أول الإجازة الصيفية . كان أبي يقطع من لحمه الحيّ ليعطيني مصروفي اليومي المتراوح من نصف الفرنك إلى الشلن ، أو البريزة في أيام الشَبَرْقة الخاصة جداً . وكنت قد تعلمت المِرواح للسينما، ريو أو بلازا ، بل ورويال – أحياناً قليلة . فقد كانت تذكرتها بستة صاغ ونصف – وكان صاحبي جورج يدفع تذكرته ويستلف مني القرش التعريفة ليشتري ثلاثة سجاير فَرْط ، ماركة الفيل ، وكنت لا أدخّن ولا أستردّ السلف . واشتريت أيامها ، بأربعة قروش صاغ أوّل كتاب انجليزي وكان اسمه "آرييل"، كتبه "أندريه موروا " عن "شيلي" ، وكانت طبعة "البنجوين" خفيفة الورق وغلافها داكن الزرقة . جاء إلى بيتنا في راغب باشا صاحبي جورج الذي كان أبوه ناظر محطة ترام سيدي جابر، خط الرمل ، وعنده دكان بقالة صغير في شارع دارا في سيدي جابر أمام بيتهم مباشرة ، وقال لي إن له قريباً يشتغل في شركة فرنسية اسمها باتينيُول تبني مشروع الميناء في الدخلية ، وإنهم يريدون مُلاحظ عمال ، باليومية ، وإنه أخذ لي ميعاداً هناك في الثامنة صباحاً يوم الاثنين بعد غد .

صحوت مبكراً جداً ، من القلق والتشوق ، كأننا في شم النسيم . ونزلت من راغب باشا في السادسة صباحاً وجريت وراء ترام المَكْس ولحقته ، وركبت مع العمال وصغار الموظفين الطالعين على رزقهم في أول الصبح الصيفي المنعش البرد ، ذاهبين إلى الميناء والفبارك ومخازن القطن والسكة الحديد في القباري والورديان وكوبري التاريخ ورصيف الفحم ، والمدابغ التي هجمت عليّ رائحتها النفّاذة وأنا في الترام المتأرجح بعد أن خلا قليلاً من

ركّابه ، وقرأت على واجهة المبنى العريض ذي البوابة الحجرية الواسعة كلمة "آباتوار" الفرنسية بحروف بارزة من طراز القرن التاسع عشر . وفي المكس عبرت "الكوبري" الخشبي الرقيق المهتزّ ، بفِلقِه الخشبية المنفرجة قليلاً أرى منها الماء في لسان البحر الضيّق ، وركبت "الأوتوبيس" إلى الدخيلة وخرّمت ناحية البحر ، على الرمل ، حتى وصلت إلى الكشك الخشبي الذي أقامته الشركة ، تحت لافتةٍ ضخمة باسمها وعنوانها في فرنسا ، في موقع العمل على حافة الصخور ، والخلجان الصغيرة بينها يضرب فيها الموج ويُزبد قليلاً على الحصى والرمل الخشن ، برغوته البيضاء المُستَنفدة .

لم أكن ألبس ساعة في تلك الأيام ، وسألت سواق "الأتوبيس" الذي ذكّرني بخالي ناثان ، على نحوٍ ما ، فقال "الثامنة إلا ربعاً"، وارتاح قلبي .

كان الكُشك مغلقاً ، ومن نافذته الصغيرة المسدودة بشبكةٍ خضراء دقيقة الخروم ، ضد الذباب والناموس ، رأيت وجهاً مدوّراً متهدّل الخدّين، وصدر الرَجُلِ السمين المرتخي في قميص مفتوح حتى بطنه الذي يضغط على مائدةٍ خشبية محملة بالمساطر والمثلّثات ولفّات ورق الرسم والأدوات الهندسية ، وعندما طرقت الباب الخشبي سمعته يقول بالفرنسية " ادخل" وفهمت أنه المهندس الفرنسي وليس قريب صاحبي ، وصبّحت عليه بالفرنسية فردّ باقتضابٍ وشيءٍ من الدهشة وقلت له بفرنسيةٍ جاهدتُ أن تكون صحيحة كنت قد تدرّبت عليها وحدي الليلة الفائتة إنني جئت من أجل الوظيفة ، وأكملنا الحديث كلّه بالفرنسية ، واضحةً ومحددة وبطيئة النطق وسليمة النحو . قال اقفل الباب من فضلك ، بلهجةٍ ممطوطة فأدركت أنني أخطأت وأقفلت الباب بيدين مضطربتين ، وعاد ضوء المصباح الكهربي العاري المائتي شمعة يتقد بصمت في عتمة الكشك الداخلية كأنها قَمَرة مضيئة تغوص في عُمق البحر ، وتأمّلني الرجل قليلاً بعينين كعيون السمك ولكنها زرقاء فاتحة

جداً وقال لي ، بأدب ، إنه آسف حقاً ولكن المركز قد شُغِل بالفعل . أكتب لي أسمك وعنوانك على هذه الورقة وسنتصل بك عندما نحتاج إلى خدماتك. ومدّ إليّ ورقة رَسْمٍ عليها تصميمات وخطوط رأسية وأفقية ومساقط ومقاطع وكتابة بحروف مُفردة كبيرة ، فانحنيت وأنا واقف وأحسست عينيّ مبللتين بالعرق ، وكتبت بقلم الأبنوس الذي تدفّق حِبّره فجأة بعد لحظةٍ جفاف وجيزة ، ولم أكن ألبس نظارة ولم أعرف أنني كنت أرى العالم كلّه غائماً ومتميّع الحوافّ إلا بعد ذلك الصيف عندما دخلت الكلية وفي كشْف النظر دُهش الدكتور وقال لي كيف تقرأ وتكتب ؟ وكتب لي على نظّارة . قال لي المهندس الفرنسيّ بصوته الدُهني قليلاً ورأسه الأصلع يلمع في النور ، وجسمه العريان المتراكب الطوايا ينضح بعرَقٍ خفيف : نهار طيّب إذن ، وقلت له نهار طّيب. ولم يتّصل بي أبداً خرجت إلى بهرة شمسٍ أخذت تحمى قليلاً ولكني أحسست رعدةً مفاجئة تنفض جسمي . وكان الهواء بارداً على وجهي ، وكان العمّال جالسين تحت سور حجري منخفض على الشاطئ أمام الكشك ، في حلقات صغيرة غير مستبينة، يتكلمون بأصوات منخفضة ويشربون الشاي ، ولاح من بعيد فندق "سي جَلْ" حيطانه بيضاء حائلة اللون ناحية البحر ، وشبابيكه مُغْلقة بالخَشَب الأخضر الباهت، وكان صاحبي جورج قد حكى لي كيف أنه يأخذ المرأة الإيطالية التي كان يرافقها إلى هذا الفندق ، يستأجران غرفة باليوم ويقضيان النهار هناك ، وقال إنه مكان هادئ جداً لا يسأل فيه أحدُ عن شئ ويمكن أن يُقتل دون أن يحس به أحد . وقال إن هذه المرأة كان زوجها قد اعتقله الإنجليز عندما دخلت إيطاليا الحرب ، وإنها عَلّمته من فنون صُنع الحب أشياء وأشياء ، ولم أسأله ، عن شوقي إلى السؤال ، وكان حصيفاً فلم يدخل في التفاصيل .

ودخلت الكلية بنصف مجانية ومات أبي فأخذت مجانيـة كاملـة واشـتغلت في المخزن و لم يدخل صـاحبي جـورج الجامعـة ، وتطـوّع مُجنَّـداً في الطـيران الإنجليـزي وبـدأ يتعلـم الطـيران ، ورأينـاه فِعـلاً في حلّـة عسكرية بريطانيـة "كاكي" أنيقة وعلى كمّه شريطان بالأخضر ، ثم رأيناه بعـد ذلـك مـن غـير اللباس العسكريّ و لم يشرح لنـا أبـداً لمـاذا لم يستمر في الجيـش البريطـاني . ولكن دكان البقالة الصغير في شارع دارا كان محطّا وموئلاً لجماعاتٍ متعاقبـة من العساكر الأفريكان والاستراليين والإنجليز ، وكـان جـورج يجيـد الحديـث معهم ، كُلاً على مقتضى الحال ، باللهجات الكوكني والأسترالي والأفريكـان كأنه من أبناء كلّ بلدٍ على حدة ، وكنت عندما أمرّ عليه أجدهـم يقفـون في الدكان يأخذون كأساً أو كأسين من برميل "الكونياك" الصغـير ذي الصنبـور الخشبي الدقيـق ، خِفيـة وبسـرعة ، فلـم يكـن عنـده تصريـح بتقديـم الخمـر، وكانت عربات الجيش الإنجليزي المحملة تقف أمام الدكان في ساعات محسوبة بدقة ، بين وَرْديات " البيكيـت " الحربي ، و تُفـرغ جانبـاً محسـوباً بدقـه في حمولة "البلوبيف" أو "البلاطي" العسكرية وَبَر الجمل التي كانت مطلوبة جداً في السوق ، أو علب اللـبن المركّـز المسكّر ، أو البطـاطين ، تختفـي في المَنْور خلف الدكان ، على الفور . وكـانت لـه أيضـاً شبكة علاقـات واسـعة مـع النسوة اليونانيات والإيطاليات والشاميّات في الإبراهيمية وكامب شيزار ومـع العسـاكر والضبـاط ، في الوقـت نفسـه ، وكـانت سـاحة "الباتينـاج" في "سبورتنج" هي مكـان التواعـد والتعـرف وانهـاء الصفقـات . وبعـد الحـرب اشترى جورج عربيتين "لوري" واشتغل بالنقل وفَتَح الله عليه . وكانت عنده غرفة على البحـر ، في فنـدق سـيرانادا في ستانلي ، صيفـاً وشـتاء . وكـانت الغرفة زجاجية كلّها من ثلاث نواح ، وداخلةً في قلب الخليج الواسع .

تخرّجت واشتغلت في المتحف اليونـاني الرومـاني بعـد فـترة تعطّلٍ طويلـة وانخرطت في الحركة الثورية التي كان يتمخّض بها البلدُ ويمـور ، وطلعـت في المظاهرات واشتركت في تنظيم الإضرابات وكوّنـت خلايـا سـرية ، وكتبـت بيانـاتٍ وتحليـلات ومنشـورات ، ودخلـت المعتقـلات ، وخرجـت منهـا ، ويئست من العمل السياسي ، ومن الحـب ، ومـن الحيـاة ، ولم يكـن جـورج يفهم ماذا أفعل ولماذا ، طول الوقت ، ولم يكن يبالي ، ولكنه كان على الأقل لا يسخر مني وينصحني فقط بأن أكـون عـاقلاً ويتمنّـى أن يتـوب ربّنـا علـيّ وكنا قريبين جداً أحدنا مـن الآخـر ، ثـم تباعدنـا ، ولا أعـرف ، منـذ سـنين طويلة ، ماذا حدث له .

وفي ١١ فبراير ١٩٥١ كنت أتوجس من حَمْلة البوليس التقليدية علينـا في ليلة عيد ميـلاد المَلِـك ، وطلبـت مـن جـورج أن أبيـت في غرفتـه في ستانلي فأعطاني المفتاح بصمت وقال لي عَدِّ عليَّ بُكره الصبح في المحل ، فقط. وكـان موظف الاستقبال في فندق سيرانادا يعرفني من زمان فحيّاني بهزةٍ من رأسه ، وكان الممرّ المفضي إلى الغرفة خاوياً ومعتماً ووقع أقدامي على البلاط الأسـود المغسول له رنين . ودخلـت ، وأدرْت زر النـور ، فوَجَـدْتُ الغرفـة ، حيّـة ، وأحاطت بي .

كانت الغرفة ضيقة ودافئة ، والسرير صغير ولكنه نـاعم لـينٌ رقـدت عليـه فوراً من التعب والقلق ، وغاص بي ، وعلى الأرض سجاد عميق الوَبَر طوبـيّ اللـون ، وعلـى الحـائط صُـور زيتيـة لنسـاء عاريـات ، راقـدات وراكعـات ، ولحمهن مُحمّر النسـيج وأُملـود الحَنْيـات ، كـأنهن سمكـات أنثويـة ، فارغـة العيون تماماً .

كان البحر مصطخبـاً اسمع عجيجـه مـن وراء الزجـاج المغبّـش بـالندى ، والأنوار على الكورنيش الطويل أراها من ورائه بُقَعاً صغيرة لهـا أسـنّة مُشـعّعة

مهتزّة ، ممتدةٌ واحدة بعد الأخرى بعيداً . ولم أستطع أن أقرأ فأطفأت نور الحجرة الكبيرة ونور "الأباجورة" الحمراء جنب السرير ، ودخلت تحت البطانية الصوف الكثيفة الناعمة وأحسست جفاف الملاءة النظيفة البيضاء تحتي ، وكان ضجيج الأمواج يلتطم تحت الغرفة ، يضرب أحجار المبنى وأعمدته ، وأسمع رشّاته المليئة تخَبْط وتنحسر ثم تعاود ارتطامها بصخور البحر وحيطان الفندق المتينة ، وكنت أحس نفسي وحيداً جداً ، ومغلقاً عليَّ تماماً ، في قلب هذا الهدير الرتيب الذي ما عدت أسمعه ، في دَوِيِّه المتصل ، وحيداً وغريقاً أتنفس هواء غَرَقي الدفيء المُريح ، ونمت أخيراً وأنا أفكر في غموض الليل الذي يُدَوِّم بهدَير الموج المُلِحّ المتراوح لا يكفّ عن الارتفاع والهبوط من جديد ، ولا أفكر في شيء آخر .

وفي الفجر فتحت عينيّ فجأة ، وقمت ، وفتحت النافذة في الواجهة الزجاجية . نشقت الهواءَ الملح الرطب المنعش ، مِلْءَ صدري ، وفكّرت : هل عدَّتْ الليلة على خير ؟ وكان البحر هادئاً تماماً ، وقد انجابت العاصفة، وسطحه ساج ممتدّ ، زيتي السكون في النور الوليد الذي يُضفي على العالم صمتاً مائياً كأنه تَرَقُّب ، وانتظارٌ للفرَح .

كانت ترتفع من مرآة البحر الرصاصية اللون صخرةُ نائتة عريضة رأيتها مكسوةً بأكملها بالنوارس ، كأنما حطّتْ عليها سحابةُ كثيفة مبطّنة بالريش الأبيض ، ساكنةً عليها ، متشبّثة بها . النوارس متجاورةٌ متزاحمة ، الجسمِ المطويٌّ يلتصق بالجسمِ المطويّ ، وقد أحنت رؤوسَها وأدخلت مناقيرها الطويلة في صدورها ، محدّبة الظهور ، أجنحتها مطبقة إلى جانبها، وكانت كلّها تبدو جافّة ، مكسورة .

وألوان البحر قد أخذت تتخطط ، أمام عيني ، بنفسجيّة وزرقاء وبيضاء فضّية مشّعة تحت سحابٍ أبيض تختفي الشمس وراءه ، وتضيئه باحمرارٍ سائلٍ

مشاع ، وهدوء البحر عميق ، صفحة مبسوطة لا تكاد تترجرج ، و وشوشة الموج الذي يترقرق ، على مهل ، ناعمة ، أسمع صوت الصمت المُطبق تُطرِّزهُ وتُنمنمهُ ، فجأة ، زقزقةُ العصافير التي تتواثب على الرمل الطريّ، وتنقر العشبَ اللزج والوَدَع والصدَفَ الحيَّ بمناقيرها الصغيرة السريعة. ومن بعيد صدى نداء يتردّد على الكورنيش : سيّد . . حسّونة. . لا يكاد يُسمَع ، وعلى آخر المدى أرى عاشقْين غامضين على الرمال العذراء. في هذا الفجر ؟ أيّ هُيام لا يقاوم ؟ أية رغبة مبهمة وخرساء ، مُطْلَقة تدفعهما يمشيان على هذا الشطّ الموحش المبلول ؟

عند التقاء الرمل بالموج خطٌّ الطحلب الأخضر الذي يَبْيَضُّ حينما ينحسر عنه الماء ، عضٌّ ويابس على التوالي ، بلا توقّف . قلت لنفسي : أبديّ ، دائم، أمام فنائنا وانتهائنا .

وقلت : أوقوفٌ ، بلا رحمة ولا دموع ، على ما باد من طَلَل ، واندثر ؟ فماذا يُجدي ؟ وبم يُقَام ؟

وقلت : وهل من مُعَّلولٍ – بالعكس – إلا على الرُسومِ الدَوَارسِ ؟

الشاطئ طويل هشّ مشدود ، مُلقىً بين الفراغ والملء ، خصرٌ هضيم ضامر مسحوب ، قابل للانكسار في أية لحظة ، في أية بقعة ، لا بؤرة له يتكّثف وراءها ويحميها بنطاقٍ وراء نطاقٍ من الحواجز الواقية ، خطٌّ متموج يقع على حرفِ هوّة لا قرار لها ، متلاطمةً ، وخادعة عندما تهدأ لأنها دائماً مُهدَّدة بالعصف وضاربةُ بحبال الماء ، سِحرُها جذاب لا يُقاوَم ، وجمالها لا يمكن أبداً الإحاطة به ولا الانتهاء من تمليّ مفاتنه ، قوية الأذرع ممدودة إليّ تدعوني دعاءً لا أعرف كيف أصدّه ، دعاء في الاستجابة له وقوعُ القضاء الذي لا مردّ منه . على هذه الحافة الهشة القلقِة ، بين الحياة والعدم ، وطني الذي لا أعرف كيف أستقر إليه .

أنظّر إلى البحر وأُفقِه الغامض ، أعرفُ أنه لا شيء وراءه ، أبداً ، هذا امتدادٌ لا نهايةَ له للعبابِ المجهول ، إلى مالا نهاية له . وكأنني أرى شاطئ الموت نفسه ، سوف أعبره ، بلا عودةٍ ولا وصول .

مياهٌ كثيرة لا تُغرق عشقي ، والسيول لا تغمره . صخرةٌ ناعمةُ الحنايا أنتِ في قلب الطُوفان ، سفوحها ناعمة غضّة بالزروع اليانعة ، بالسوسن والبيلسان ، ترابها زعفران ، خِصبٌ وحيّ ، ترفُّ عليها حمامة سوداء جناحاها مبسوطان حتى النهاية ، لا تكفّ رفرفتها في قلبي .

٧) السيف البرونزي الأخضر

كأنّ ساحة المنشية عنده - هو ساكن غيط العنب - ليست من هذا العالم .

لأن العالم كان غيط العنب .

الفراغ الشاسع في ميدان المنشية ، ومبانيه الشاهقة بأعمدتها المدورة الرخاميةِ الشكل ، ونخيله السلطاني العالي بجذوعه البيضاء الرشيقة الناعمة ، تميس صفوفاً على طرفي الحدائق الطويلة ، اليانعة دائماً بعشب غضّ وطريّ، والترام يتخطر ويدور حولها ، أصفر ونظيفاً ويومض ، وعربات الحنطور خيولها الصهباء سنابكها تدق موسيقى مُوقَّعة على الأرض السوداء تلمع بالبلل ، وهذا الهدوء ، والجمال ، والسعة الفسيحة ، هذا أسطوريّ مخيف قليلاً ، ومُغو جداً .

أما هو فيعيش بين البيوت الصغيرة ، من دورين أو ثلاثة بالكثير ، مبنية غالباً من الطوب الأحمر القاتم ، العاري من غير ملاط ، والشوارع بينها ترابية وأشجارها وجناينها كثّة وريفية الشكل .

قال : لم أكن أعرف أن البكاء على الأطلال موجع بهذا الشكل .

أطلال الطفولة والصبا والشباب التي تقوّضت ، ومازالت رسومها ماثلة ، غير دارسةٍ بعد ، وأنقاض القلب الذي دمرّته أمجادُ معاشِقه ولكن أعمدته قائمة لا تريد أن تنقضّ ولا تريد أن تنقضي .

في يوم أحد الشعانين ذهبوا إلى الكنيسة وحضرَوا القُدّاس وعادو بالسَعَف اللبنيِّ الخضرة ، أبيض تقريباً وغضّ الجلْد ، مخصوفاً على شكل صلبان صغيرة وكبيرة وأكاليل مُشبّكة ومدَّورة متداخلة مازال طلّ الماء المقدس يبللها . وفي

العصر زارهم فارس أفندي ، وكان صديقاً لأبيه ، وزوجته الست أم أليس من حبايب أمه . وكان موظفاً بالسكة الحديد وقصيراً بديناً مكوَّر الجسم ويلبس نظارة سميكة الزجاج وطربوشاً ضيّقاً على جبهته المنحدرة إلى الوراء . كان يسمعهم أحياناً يقولون أن أليس لميخائيل ، وكانت البنت البيضاء المدورة تُنفِّره جداً بضحكتها البلهاء ونظرتها الزيتيّة وجلس فارس أفندي مع أبيه على كرسي الصالون الجديد ، كان كرشه المتضخم المحزوق في "بنطلونه" المرفوع قليلاً يستقر على فخذيه القصيرتين المدملجتين ، براحة ، وكان في كلامه خُنّة خفيفة . دخل الولد يسلّم عليه، ألحّت أمه عليه : أدخلْ بقى سلّم على الراجلْ أدخل يا لله ، فسمع أباه يحكي للضيف حكاية مضطربة متقلبة الأدوار عن النحّاس باشا عندما كان مسافراً مع الزعماء إلى مؤتمر في بني سويف ، فحاصر الجنود المحطة بأسلحتهم وأوقفت الحكومة سفر القطار كله فلم يدخل المحطة أصلاً ، وقضى النحّاس باشا ليلته على رصيف المحطة في بني سويف ، ونام على مقعد خشبي طويل من مقاعد الانتظار . وعندما اقتحم الناس المحطة في الصباح ، في صفوفٍ متراصة وسط الرصاص ، ضرب العساكر النحاس باشا بالعصيّ الغليظة وافتداه سينوت حنّا بك بذراعه فانكسرت ، بينما كان الناس يحطمون ، بالبُلَط والفؤوس ، سلاسل الحديد الممدودة على باب المحطة ، وقُتل وجُرح كثير . وكان فارس أفندي غاضباً وقال إن النحاس باشا زعيم الرعاع . ولم يكن الولد يعرف هذه الكلمة ولكنه فهم فوراً أنها شتيمة وأن الناس رعاع ، وردّ أبوه بحمية على صديقه وقال إن النحاس خليفة سعد وزعيم الأمة وعدّو الاحتلال الانجليزي وإنه يحمي البلد من جشع هذا الملك الذي ينبح بصوتِ كلب عندما يتكلم . وكان الولد ساكتاً ولم ير أباه يتكلم أبداً من قبل بهذا العنف وهذه الحدّة .

وفي يوم أثنين البَصْخَة ، بعد الظُهر ، نزل مع أمه ليشـتريا حاجـات العيـد الكبير . ذهباً بعربة حنطور إلى شارع انسطاسيي ، ووقفت أمه بعيداً ، قليلاً عن باب المحل وذهب هو يجري إلى أبيه فخرج معه من الشـغل قبـل ميعـاده ، وقطعوا شارع السبع بنات مشياً حتى المنشية ، ولفّوا على المحلات بين كنيسة سانت كاترين والكنيسة اليونانية في المنشية الصغيرة ودخلوا هانو وشركة بيع المصنوعات المصرية . واشترت أمه خمسـة أمتـار مـن قمـاش حريـري منقـوش ستفصّلها فساتين لأخواته البنات ومترين بوبلين أزرق فـاتح مقلّـم لتصنـع لـه جلابية جديدة على العيـد ، وبكـرات الخيـط الأبيـض والملـون و" فـانلات " وألبسة وشرابات وحذاءً جديداً له من الجلد الأبيض السميك له نعل كثيف ، وأحذية ملونة بسيور وزراير لأخواته ، واشـترت لنفسـها قميـص نـوم فضـي اللون "ساتان" لامعاً بحمالات له وَبَرة خفيفـة ناعمـة ومُوشـيٌّ بـالدانتللا مـن تحت ومن فوق ، ولم يشتر أبوه لنفسه شيئاً وقـال إنـه الآن عنـده كـل شـيء ماداموا قد اشتروا هم لوازمهم وعادوا يحملون اللفـف والرُّبَـط وعلـب الجـزم الملفوفة "بالدوبارة". وعلى مقدم المساء ركبوا ترام غيط العنب من أول محطـة في ميدان المنشية .

كانت بهجته بملابس العيد الجديد ، وتشـوّقه إلى فرحـة شـم النسـيم يـوم الأثنين القادم ، تمتزج بحسه المُمِـضّ الغريـب بـأن أسـبوع الآلام قـد بـدأ وأن المسيح سُيرفَع على الصليب ، في العراء ، يوم الجمعة الحزينة وعلى رأسه تـاج الشوك ، ويطلب ماءً فيعطي شراباً من النبيذ والخل ، وأنه سيموت من أجلنـا وإن كان رئيس الملائكة ميخائيل سيدحرج الحجر عن فم القـبر المقـدّس ليلـة سبت النور ، وسيقوم المسيح ، مجيداً ، من بين الأموات .

كان الترام خالياً ، تقريباً ، والمصابيح الكهربية القوية الشكل تصب نورها الثابت الأبيض على المقاعد الخشبية ، مقوسـة ومتينـة ، مـن أضـلاع خشـبية

مصقولة في لـون الكهرمـان الفـاتح ، متلاصقـة ، وأرضيّـة الـترام مـن ألـواح خشب عريضة متجاورة ، بينها شقوق رافيعة جـداً ، تربطهـا سيور عريضـة لامعة فيها مسامير ممسوحة الرؤوس . وكان الولد يحـسّ ، في جسـمه، وثاقـة "الترام" ، وطاقته المنطلقة بقوةٍ كامنة ، وهو يدور حول الميدان الفسيح .

الحصان يقوم في وسط الميدان ، عاليـاً وسـاكناً . رقيـق الخصـر ، صافنـاً ، يرفع ساقه الأمامية مثنية كأنه يهمّ بالانطلاق ولا يتحرك أبداً ، والفارس فوقه شامخ ومتمكن ، داكن الخضـرة ، عمامتـه كبـيرة ومتعـددة الطبقـات، يطـير الهواء بثيابه وعباءته الفضفاضة، والسيف البرونزيّ الأخضر مدليّ إلى جانبـه ، كامُن شَّره وتهديده ، مخبوء ، ولكنه ماثل .

وحول قاعدة التمثال الرخامية الناصعـة حديقـة صغـيرة مـدوّرة لهـا سـياج حديدي من حلقات واسعة متداخلة ، دائـريّ ، تعلـو فوقهـا مصـابيحُ النـور، عناقيد خُماسيِّة من حبّات كبيرة بيضاء لدنة النور ، تصبّ ضوءها اللبنيّ على الخُضرة اليانعة القصيرة العشب .

كان هواء الليل يدخل إليه من نافذة "الترام" المفتوحة ، يهبّ علـى وجهـه الذي يحسّه مندّى بعرق بارد ، قلقة "الترام" تهزّ معدته فتطفو ، و تَمُـوع ، في داخله ، ويتجلَد ، يتعلّم كيف يصبر على نفسه ، كيـف يقـاوم اضطـراب أحشائه ، بينما العجلات تصرخ وتئزّ في احتكاكها بالقضبان التي تدور .

أحس بأرضّية الترام ترتفع إليه ، كالموج ، ومعدته يقبـض عليهـا تشـنّج لا يُقاوم ، وتتكون فيها على الفور عُقدة قوية طارِدة ، ولم يستطع ، أخيراً ، أن يحبس نفسه ، دفع برأسه من النافذة الزجاجية المفتوحة ، وسفعه الهواء البـارد بينمـا أحشـاؤه تنقـذف دفعـةً واحـدة إلى الخـارج ، صـوت التقلـص خشـن وغريب ، وهو ينحني على نفسِه ويتهـوّع ، مـرة ، مرتـين . ويتطـاير الـرذاذ الأبيض بعيداً عنه . تلتصق بجدار الترام الخارجي، الندفعِ، قشـرةٌ طريـة بيضـاء

تتسع مع حركته إلى الأمام . أحس بيد أبيه تمسك به من ظَهره تُثبّته وتسنده وأخرجت أمه منديلاً أبيض ، فيه نفث عطرِها الخفيف ، جافاً ومطرزاً بدنتيللا صغيرة جداً سمينة اللون ودقيقة الخروم ، فمسحت به أركان فمه، وذقنه ، وهو يسقط إلى المقعد ، في راحة ، مفرغًا ، خاوي الجوف ، قلبه يدق .

وانطلق الترام في الشارع الضيق الهادئ ، أبواب المحلات الكبيرة مغلقة ولكن واجهاتها الزجاجية العريضة منيرة على الملابس والأحذية والأقمشة المفرودة ، وله جلجلة بهيجة ذات صدى .

أغفى الولد قليلاً من الحركة المهتزّة المتأرجحة ، وتعب النهار ، والهواءِ الطلق ، وحسيِّه بالفراغ والاطمئنان في معدته ، ورأى في غبشة النوم والصحو كأنّ النحاس باشا واقف بالليل على رصيف محطة مصر ، تحت سماء معتمة فسيحة ، وكأن صدره عارٍ ونحيل وعلى رأسه ما يشبه الطربوش ولكنه حادّ الحافة مُسنّن بأسنان سلكٍ شائك ، وكأن عسكرياً رومانياً بخوذة ودرع ، يندفع إليه في فراغ المحطة الخاوية ، وعلى حقوية شرائط معدنية تلتفّ حول ساقيه المتينتين ويضربه بالحَرْبة الطويلة في جنبه ، وكأن الحربة تغوص في ذراع رجلٍ أسمر عريض بشارب قويّ في كامل ملابسه الرسمية، وكأنّ صوتاً قال له: سينوت حنّا بك . ولكن الدم ينز ببطء من يدي النحاس باشا المبسوطتين المدقوقتين بآثار ندبة غائرة سوداء ، وكأن جماهير غفيرة من الناس تهجم وهي تزأر بهتاف يدوّي كالهدير ، ويصطفق ، كأنه رعد ، فانتفض ، وأحس أباه يهزّه برفق ويقول : إصحَ يا سيدي . يا بن ستّي . . وصلْنا خلاص ، ورأى الترام يصل إلى نهاية الخط ، أمام الكركون، بالقرب من بيتهم .

وعندما نزلوا من الترام كان يحس ساقيه مفرغتين وليس لهما قوام ، فأمسك بيد أبيه بقوة ، وهو يصعد سلا لم بيتهم المظلمة دائماً ، الغامضة بحياة محتشدة وخفيفة دائماً . وفتحت لهم خالته وديدة ، وكانت بيضاء الوجه ومنتفخة العينين قليلاً وفيهما حَوَل خفيف ، وشعرها الجعد بنيّ داكن وخشن الملمس، ورشيقة الجسم هضيمة ، أطول من كل أخواتها . وقالت له : ياخْتِي. . ! مالك يابْني يا ضنايا دا وشَّك زي اللبن الحليب. . تعالَ معايَا. وأخذته إليها، ناحية غرفتها وأخرجت من صدرها ، خفية ، قطعة "تُوفِيّ" ، أحسّها في فمه دافئة ولدنة .

كانت هذه الغرفة الكبيرة ، في آخر البيت ، فيها سريران متجاوران بينهما ممر ضيق . وكانت جدته أماليا تنام أحياناً مع بنتيها ، وأحياناً في سرير جده، يكتشف ذلك عندما يستيقظ مبكراً جداً ويجري في البيت النائم ويدخل عليهم في هذه الغرفة الخفية بأسرارها ، وكان ذلك كله يحيرّة جداً ولا يستطيع أن يسأل عنه . وتُحيِّره أيضاً قطع الملابس النسائية المتناثرة على سرير خالتيه وديدة وسارة . قمصان النوم وملابس الخروج والملابس الداخلية الملونة الرقيقة . وكانت تسحره السوتيانات الصغيرة الكئوس بقماشها الدقيق الخروم أو الشفاف وشرائحها الطويلة الرفيعة التي لا يعرف كيف تتصل وفيم تنعقد وكيف تنفكّ ، يفكر في ذلك قليلاً ثم ينسى ويَذكره من جديد عندما يراها مغسولةً ومعلقة على الحبل في سطح البيت ، تتقطر بالماء الخفيف والشمس تنفذ من نسيجها الناعم الملون .

وكانت خالته وديدة متحذلقة وذربة اللسان ، والوحيدة بينهم جميعاً التي تستطيع أن تقول "تشيكوسلوفاكيا" أو "طلعت أدبّ نزلت أدّب لقيت الدبّ يقزقز لبّ " بسرعةٍ خاطفة ، دون أن تخطئ . وكانت تحكي لهم حكايات في ليالي الصيف على السطح ، يتحلقون حولها : هو وأختاه عايده

وهناء ، واسكندرة الجميلة بنت خالةِ أمهِ ، ووطواط الفاتح السمرة ابن خالته حنونة وأخته مارية اللامعــة السـواد ، وقـد أتـى كـل واحـد بمخـدة أو شـلتة وجلسوا علـى الحصـيرة في الهـواء المنعـش . وكـانت تسـحره تقلبـات مصـير الشاطر حسن وحِيله لصعود القصر العالي لكي يـرى سـت الحسـن والجمـال ولكي يهرب من أمنّا الغولة ، ومصير الأميرة بنـت الملـوك والسـلاطين عندمـا تسخطها العجوز السحّارة إلى بقرة حلوب خصيبة تُذبَح وتُجمـع عظامُهـا في حفرة حتى يأتي الأمير ابن ملك البلاد التي في آخر الأرض عند جبـل القمـر، فيضمّ العظام الـتي تئـن وتتوجـع في حضنـه ، يُدْفئهـا بحبّـه ويغمرهـا بدمعـه ، فيعيدهـا عروسـاً بـاهرة الحسـن والجمـال . وتمضـي الحكايـات وتتجسـد لـه شخوصها ، في الليل الهـادئ الصـامت ، وجسـده مغمـور بـالقمر ، ويقـترب أكثر من خالته وديدة حتى يحس أمنها ، ودفئهـا ، بجانبـه ، ويسـتيقظ فيجـد نفسـه في سـريره ، في غرفتـه ، في أول الصبـح ، بجنـب أختيـه النـائمتين ، لا يعرف كيف وصل إلى هناك .

ويستيقظ بالليل فجأة على سريره العالي المزدحم باللحاف الثقيل ، أعمدته أعمدة الأربعة السوداء تحاصره ، والكُرات النحاسـية داكنـة الصفـرة ، عيـون جاحظة ومقفولة تنظر إليه مع ذلك ، تعرفه . واللمبة نمرة خمسة مضيئة علـى الحائط ، بنور مُحمَرّ شرير متراوح الظلال .

البيت الغاصّ بالناس كأنه مهجور ، وقد ناموا جميعاً وتركوه وحده .

أحس في دفء الغرفة ، وصمتهـا الليلـيّ ، أنفاسـاً غريبـة ، هواؤهـا ثقيـل ورأى على الحائط ظلَّ شيءٍ ما ، يتحرك ويتموج فوق الدولاب ، ويهتزّ على خشب النافذة المغلقة .

لكنه لم ير ما هو ، أحس فقـط حضـوره المهـدِّد ، يـراوده ، يـتربصّ بـه ، ويقصده .

أحسّ به يقترب ، ما زال لا يراه ليس له جسم ، ولكنه هناك . لفْحُ أنفاسه بارد ، وظلُّه يتكاثف ، ويتجسم من غير أن يُرى ، ويقترب ويقترب.

كل الرعب الذي في قلبه لم يعد يُطاق .

صرخ صرخة تمزق لها الليل ، والصمت .

صرخة لم يعد في العالم إلا طَلَب النجدة النهائية فيها ، طلباً ثاقباً ، يجأر، ينادي ملأ كل فراغ ، وخرج من كل حصار .

والأقدام تجري إليه ، وأخته الصغيرة تبكي في غرفة نومها مفزعة ، وهو يضع رأسه في حضن أمه ، ويغمض عينيه في صدرها ، ولم يكن يبكي بل جسمه كله ينتفض . وفي اللحظة التي غاص فيها في حضن أمه رأى أباه واقفاً على الباب في عكس نور مصباح الفَسَحة الخارجية ، لم يرَ وجهه بل قامة طويلة مظلمة ولكن شامخة وحنون في الوقت نفسه .

سمع أمه : أنا عارفة السَرْعَة دي بتجيلك ليه يا ضنايا. .

صرختهُ نفسها التي مازال يجأر بها على حافةِ نومِ شيخوخته ، مهما حاذر منها ودار حول تهديدها .

وحْشةُ النور الخافت بعد جلجلة الصرخة ، خاوية وصامتة . وهو يدخّن سيجارته ، مستنداً إلى ظَهر سريره ، مستَنْفَداً ، وحوله من يحبهم ، قد آبوا إلى نومهم . حُنوُّه لهم ، وعرفانه ، شريانٌ يتموّج في جسم الليل .

القلوبُ ومَثواها ، والذي هدهدها وأشجاها ، منفيّةً أبداً في أحلامها ومُناها.

نزل من "الترام" في تقاطع شارع النبي دانيال وشارع فؤاد ، ومشى بقية المشوار إلى "البطرخانة". كانت بدلته الصوف الجديدة خشنة الوبر قليلاً ، وحذاؤه الأسود ثقيلاً ولامعاً تحت الشراب الأبيض الممسوك "بأستيك" عريض على منتصف ساقه . واشترى من بائع الجرائد ، على رصيف الشارع،

مجلة اللطائف المصورة ، ورأى على غلافها صورةً مرسومة تخيلها الرسام ولكنها شديدة الواقعية لقطار تطايرت عرباتُه وتناثرت ، والعساكر الانجليز ممدودي الأذرع والسيقان في الهواء ، طوّح الانفجار بخوذاتهم وبنادقهم ، وتحتها أنّ الثوار الفلسطينيين الشجعان قد نسفوا قطاراً حربياً محملاً بالمؤن والذخيرة والعتاد العسكري . وكانت جماعات الناس الفرحة تدخل إلى ساحة البطريركية من الباب الحديديّ الضّيق العالي .

كان القُداس طويلاً ، يعلو ويهبط ، والكنيسة مزدحمة بالناس الذين يحملون الأطفال الصغار في لففهم البيضاء . هل كان هذا أحد التناصير ؟ جوّ العيد، وتراتيل الشمامسة ، وصراخ الأطفال ، وصلصلة المثلّث النحاسيّ ، والقسيس يهزّ المجمرة يتصاعد منها البخور ، والسيدات والبنات في الجانب الأيمن وفي الشرفة الحجرية التي تدور بصحن الكنيسة ، ورؤوسهن مغطاة ، وملابسهن ملونة ، وهو يقف ثم يجلس ثم يقف مع المصلّين ، وقد شبع من النظر إلى الأيقونات الأربع والعشرين العالية المتلاصقة : التلاميذ الاثنا عشر مكرَّرون مرتْين ، ألوان الأيقونات في إطاراتها الذهبية زيتية داكنة الخضرة والحروف القبطية صغيرة رأسية على جانب كل أيقونة . ورفع أبونا يديه فوق الرؤوس ورشَّ بأصابعه الماء المُصلّى عليه فتناثرت قطراته على المصلين مع ارتفاع التراتيل ، وأحس طلّ الماء المبارك على وجهه ثم تسلّل من أمام المقاعد الخشبية المزدحمة وخرج إلى الردهة الرخامية النظيفة بين الأعمدة المدورة ، ونزل الدرجات العريضة ، وكانت ساحة الكنيسة مليئة بالناس ، وباعة الصور المقدسة الصغيرة ، والأولاد يجري بعضهم وراء بعض ويصيحون ويتنادون والناس يخرجون ويتحركون مسرعين ، متلهّفين . وفجأة تزاحم الناس كتلةً واحدةً تحت البيت البطريركي في الممر الرملي الذي يفصله عن جدار الكنيسة العالي المصَمت ، واشتد الزحام حوله ، والرؤوس كلّها مرفوعة

إلى أعلى ، والأجسام تتكاثف حوله ، والناس يقول بعضهم لبعض في فرح : سيِّدنا . . . سيِّدنا . . . وفجأة ارتفعت صيحة تهليل واحدة من الناس جميعاً، الرجال والنساء والأولاد ، يهتفون : باركنا يا سيِّدنا. . باركْنا. . باركنا . حتى ظَهَر الوجه الضاوى النحيل ، شفافاً في سمرته الرائقة وكأنه مضيء ، بلحيته البيضاء السابغة ، وعمامته السوداء المدوَّرة في النافِذة الضيقة اشتد الصياح والهتاف بلوعة وفرح ، وامتدت اليد الرقيقة على الرؤوس فنثرت أشياء معدنية صغيرة براقة سقطت على الناس ، قِطَعاً من العملات الفضية الصغيرة والبرونزية اللامعة تنهمر من بين الأصابع الرفيعة الطويلة التي تهتز . كان الوجه مريضاً ومقدداً ولكنه منير ، وجه رجل عجوز ، وجهه الأخير.ظهر لمحة خاطفة ، وهو يتُمتم ، يبارك الناس بشيءٍ لم يعد بعد مسموعاً ، في نشوة الصراخ والنداء والتوسل من الساحة التي تلاصق فيها الناس . ثم انحنى الجميع على الأرض ، يلتقطون من الرمل النظيف ومن على الأذرع والأكتاف قِطَع نصف الفرنك والملاليم ، كلّها جديدة ومُشعّة ، أو يحاولون الإمساك بها في الهواء وهي تهبط كالمطر المتفرّق على الرؤوس .

من بين الأرجل المتدافعة والأجسام المتحركة التقْطتُ نصف فرنك فضياً ، مدوراً وصغيراً يومض وعليه حبّات رمل خفيفة .

احتفظت به ، بَرَكة ، سنواتٍ عديدة ، لكنني لم أعد أجده . أين ذهب ؟

كانت عنده قاعدة محبرة خشبية جاءته هدية من ابن عمته بقطر ، عندما عاد من القدس ومن يومها كانوا يقولون له المقدس بقطر .

كانت منحوتة على شكل جَمَل صغير ، رقيق التفاصيل ، من خشب ناعم صُفرته داكنة ولامعة .

والجمل عنقه أتلع ممدود للأمام ، ورأسه غريب ، حيّ ، كامل التدوير ، وعيناه مفتوحتان حالمتان ، وله سنام محدّب تنفتح فيه فجوةٌ مستديرة ،

وسيقانه الطويلة كأنها تسير وحدها ، على أخفاقها اللينة المضغوطة ، بخَببٍ هادئ لا يتوقف . كان الجمل قادراً . لم يضع فيه محبرة أبداً ، وظلت النُقرة المدورة الخام فاغرة ، محبّبة النسيج . وكانت قاعدته خشنة الخشب أيضاً ، ومكتوباً على جانبها الأيسر بالحروف القبطية وعلى جانبها الأيمن بالعربية " أورشليم ١٩٣٢ " .

كان يضع الجمل ، بعناية في درج خاص من " البوريه " ، آخر درج من تحت . فيه الأشياء التي تحرص أمه عليها ، أمشاط الشعر التي على شكل أقواس مطعَّمه بالعاج وحبوبِ الصدف المتقلبة الضوء ، وثلاث زجاجات عطرٍ مركّز ، مغلقة بسدادات زجاجية محكمة ولكن عبقها نفاذ ، من الصندل السودانى ، والياسمين البلدى ، والعنبر اليَمَنى ، وحارق ، ومكحلتها الفضية الصغيرة التي على شكل طاووس ناشر جناحيه وبجانبها المِرْود اللامع في حافته المستدقة الرأس أثرٌ باهت من الكحل ، وشرائط رفيعة من القماش الحرير اللدن الملتف بعضه على بعض مُنساباً كأنه حيّ يتلوى ، والدانتلا الملوّنة الدقيقة الخروم ، وعلبة معدنية رقيقة الجدران فيها دبابيس وإبر الخياطة وبجانبها المقص الضخم بشفرتيه المضموتين شريراً ومنذراً في رقدته ، يتحدّى أن يمسكه ، والجمَل بين هذه الأشياء ، كأنه مَلِك . يعتز به ، يمسكه يحيط بيديه ، ويُخرجه من بين هذه الغابة من الأشياء المحملة بشحنات غامضة فيهدأ جَيَشان قلبه عندما يراه في النور والهواء شامخاً ومتكبراً ووديع النظرة معاً.

ضاع مني بعد ذلك بسنين و لم أجده مهما حاولت ومهما بحثت .

وأحسست حرجاً مكتوماً غائراً لا يندمل ، ولعله لم يندمل حتى الآن .

كانت أمي ، وخالتي وديدة وستى أماليا يقلن عن عم مقار – زوج خالتى حنونة – بصوتٍ فيه سخرية خفيفة أحياناً . وغيظ : العبد التَنتّون .

كان هائل الجسم ، وجهه أسمر لامع وطيب ، ويعمل في السكة الحديد .

تزوجته خالتى حنونة - وهي صغيرة جداً - عن طريق الكنيسة ، فلم يكن له أهل يعرفهم ، الكنيسة ربّته ، وعلّمته ، وشغّلته . ووافق جدّى ساويرس، أما ستى أماليا فكانت خائفة على عَدَل البنتينْ وديدة وسارة ، ولم يرضَ قلبها على عم مقار إلا بعد ذلك بسنين طويلة ، عندما شاخت جداً ، وكانت عندهم في البيت ، وكان هو الذي يؤكّلها بيده ، وكان جسمها قد ضمر ، وصغر ، ولم تعد تستطيع أن تمشى فكانت تزحف على الأرض ، وكان عم مقار هو الذي ينظّفها كل يوم عندما توسّخ نفسها ، ويحُميهًا بالماء الساخن في الشتاء ، والماء البارد في الصيف ، بيده ، وكانت تدعو له و لأولاده بالصحة وطول العمر وأن يحفظهم المسيحُ ويطرح فيهم البركة .

وكان عندهم بيت مِلْك على قمة شارع كريم وشارع العيون في آخر غيط العنب ، بالقرب من جامع سيدى كريم ، وكان عندهم مجلات مصر والمقتطف ومجلة السكة الحديد اللامعة الورق نصفها بالعربية ونصفها بالإنجليزية وفيها صور قاطرة تاريخية ورسوم هندسية للصمامات والغلايات والمكنات وشوابك العجلات ، أتملاّها بشغف . وكنت ألعب مع ابن خالتي وطواط وكان وجهه مدورا وباسماً وفي لون الكاكاو باللبن وكله شقاوة وعَفْرته ، وأُحبه جداً . كنا معاً في ثاني سنة من مدرسة الكرمة الأولية القبطية الأرثوذكسية ، وكنا نهرب ، أحياناً ، من المدرسة ، في الفُسْحة الكبيرة ، ونجرى إلى بيتهم ونتسلق عمود النور ونقفز منه إلى سطح البيت ونقع بين الفراخ التي تنقّ والديك المُتْلع العنق الذي يُهاجمنا بُعرفه الأحمر ومنقاره المشرَع ، بشراسة ، بينما تثغو الماعز المربوطة بحبل إلى مسمار في الحائط ، ثُغاءً شاكياً ، وننزل معاً وثباً على السلالم المفتوحة المبنية بالطوب

الأحمر فتفزع خالتي حنونة وهي تخبز أمـام الفـرن في الحـوش الصغـير جالسـة على الأرض وتشتمنا ثم تضحك معنا .

كنا نسكن أيامها في شارع البان ، أمام وابور الطحين ومدرسـة البنـات ، وللبيت شرفة كبيرة أرضها مـن الأسمنـت الرمـاديّ المعجـون بـالحصى اللامـع المَنَعَّم المصقول ، ولها حاجز حديدى مشغول ، وتطلّ على دوران الترام ، بعد مسافة ، أمام الكركون.

وكان وطواط ابن خالتي يـأتى ونلعـب الاستغماية علـى السـطح وندخـل أقفاص الفراخ ونغلق أبوابها المصنوعة من السِلْك علينا ونختبىء جنب حـائط غرفة الغسيل ووراء الملايات والملابس المنشورة ونجـرى علـى البـلاط الأبيـض النظيف بين صغار البـط بمناقيرهـا الصفـراء المبططـة و الكتـاكيت الـتي تجـري مفزَّعة ورقيقة جداً بين أرجلنـا ، ونصنـع بيوتـاً مـن علـب السـجاير البيضـاء وعليها رسم مُذهَّب بخطوط رمادية لرمسـيس الثـاني وعجلـة عربتـه الدائريـة وحصانه المنطلق أبداً إلى الأمام ، ثابت الجـرى ، أبـداً ، لا يصـل إلى غايتـه ، وقبـل الأعيـاد نعـاكس الخـروف المربـوط فيهجـم علينـا بقرنيـه المتشـابكين الغليظين ، ويقف عندما يشتد الحبل حول رقبته الغليظة ويتوتر ويكاد ينقطـع وهو يزفر ، محْنياً رأسه ، ونحن نثب أمامه ونصرخ من الرعب والفرح.

وفي عصر يوم غائم وثقيل السماء كنت أقـف بالشـرفة مـع خـالتي وديـدة وخالتي سارة ، ورأينا الترام يأخذ الدوران الواسع قبل محطته الأخـيرة ، بعيـداً أمام الكركون ، وعجلاته تصرخ في احتكاك حـاد ، ثـم يبطـئ في اندفاعـه ، ويقف قبل المحطـة . وسمعنـا نـداء النـاس وصيحـاتهم ، ورأيـت جسـم الولـد الصغيرة يتدحرج تحت العجلات ، غير واضح ، وأشياءُ مقطوعة تبدو لا صلة لها بهذا الجسم الذي غاب تحت أرضية الترام العالية . وأخرج النـاس مـا بقـى من الولد وحملوه على الرصيـف والـدم يسـقط منـه في خيـط متّصـل مهتزّ ،

ووضعوه على الرصيف أمام سور الحديقة الكبيرة ، القاتم اللون ، تحت أغصان الشجر الكثيفة الملتفّة الساقطة على السور . وسمعت جلجلة جرس عربة الاسعاف ورأيت الجسم الصغيرة المكوَّم يحمل على النقالة ويغيب في بطن العربة الحمراء البيضاء . وكانت صدمة الحادث قد هزّت قلوبنا ، وكنا نسأل يا ترى من الذي سقط وقالت خالتي وديدة : ياضنايا ياحبيبي ..! ربنا يصبر قلب أمه عليه .. !

لم نعرف إلا في آخر الليل أن ابن خالتى وطواط هو الذي سقط تحت عجلات الترام ، ومات قبل أن تصل به عربة الاسعاف إلى المستشفى الأميرى.

هل كان هذا أول فقدان ؟ وهل كانت الضربة من القوة حتى كدت أنساها ، وأنسى أول وأقرب صديق لي في الطفولة ، وآخرهم أيضاً ، الذي أحببته ولعبت معه بحريةٍ صافيةٍ في لُعَب لم أعرفها مع أحد بعد ذلك ، إلا في صُنع الحب مع مَنْ عشقت في آخر العمر ؟ كنت أطوف معه ، ومع العيال ، القَبَط والمسلمين سواء على البيوت في ليالى رمضان ، ومعنا ، كلنا ، فوانيس رمضان ، ونأخذ النُقل والمكسّرات من على أبواب البيوت ونحن نهز الفوانيس الملونة المشتعلة بنار شمعها البيضاء ، ونغني حاللّو حاللّو رمضان كريم يا حاللّو ، ونُفرّق ما حصلنا عليه ، وبالتساوى بين الكل . وكنا نلعب الكرة الشراب وحاوريني ياكيكة وكلوا بامية ، تحت عمود النور بزجاجهِ المربّع الذي يئز بطعنةِ الغاز الأبيض الثابت ، ثم نجلس تحت العمود على الأرض ، ونسمع بشغف ، وقلوب واجفة ، لحكايات العفريت الذي طلع لأكبر الأولاد في الحلقة وسد عليه السكة ، ولم ينقذه منه إلا فارس رومانىّ في يده حَرْبة طويلة ، وحول رأسه نور باهر يعشى العينين ، وعلى درعه علامة الصليب ، كبيرة ، وهّاجة .

وأنا استيقظ من نومٍ قِلق على السرير غير المألوف ، الغرفة جافة الهواء من التدفئة المركزية ، وأفتح شقاً صغيراً في النافذة فيهاجمني هواءُ قارس قاطع ، انظر من وراء لوحَي الزجاج المزدوج إلى الساحة التي يغطيها ثلجُ بلون أردوازيّ باهت كأنه أكوام صغيرة من طباشير رمادي هشّ ، تشقّها قضبان الترام وأنهار الشوارع المُسفلتة المتقاطعة ، غرفة الفندق القديم مازالت معتمة في الصبح الباكر ، فيها " فوتيي " عريض فَرْشُه الأحمر المضلَّع حائل كأن التراب قد تغلغل في قماشه ورسخ في فتائل النسيج ، والستائر الثقيلة لها شراشيب مشعّثة ، مصنوعة من القماش نفسه . وعندما فتحت الدولاب الخشبي وجدت أبوابه صعبة الحركة وفيه رائحة ملتبسة .

كانت صفوف متعاقبة من الناس تأتى إلى محطة الترام في وسط الساحة ، ملفّفة بالمعاطف ، والجلد والفْرو والقماش السميك ، ورؤوسها مغطاة بالقلابق والشَابْكات ، ألوانها كلها قاتمة ، ويتدفق الناس ، ويركبون صامتين كلُ مهموم بنفسه ، أيديهم مدفونة بعمق في جيوبهم أو مكفّنة بالقفافيز الغليظة ، والترام يمضي بهم ، كبيراً أصفر اللون يتأرجح ، وأسمع من وراء الزجاج الثقيل قلقلةَ عجلاته وصراخها الحادّ في الدوران . والثلج قد تجمّد بكتلته الصلبة اللينة الشكل مع ذلك ، لونه شاحب تحت نور مصابيح المغنسيوم في الشارع ، بصفرته الحادة ، دوائر النور الأصفر على أفاريز المبانى القائمة العريقة وأعمدتها المنحوتة في الحيطان المتينة الحجر ، وعلى أغصان الأشجار الرفيعة المسنّنة ، بجذوعها السوداء كأنها محروقة في الشتاء.

الطفل الذي كان ترام راغب باشا يمخض قلبه ، تحت السيف البرونزى الأخضر ، كان يركب معى هذا الترام المضيء الدافىء في برد أول الصبح ، يقطع هذه المدينة الجميلة الشهيدة ، عرفتُ متعةَ خضرتها ونشوةَ مبانيها الناعمة في ربيعها الذي سرعان ما أنطفأ ، وعرفتُ قسوةَ الصمت فيها ،

والحصار ، وهبَّتْ عليَّ من قتيلِها بكاف المسيخ أنفاسـهُ الـدؤوب المكتومـة في عالم كابوسه الدقيق الحادّ .

كان يرقب أباه وهو يحلق ذقنه كل صباح ، وقبل حمّامه ، في المساء ثـلاثَ مراتٍ في لأسبوع أيام الاثنين والخميس والسبت ، بانتظام ، أو كلما عـنَّ لـه أيضاً في غير هذه الأيام .

يحلق بموسى طويلة قديمة الطـراز ، مثـل الـتي عنـد الحلاّقـين ،مـن الصلـب الأبيض الرقيق القوى ، مُقعَّـرة قليـلاً علىطـول منتصفهـا ، شـفرتها القاطعـة لونهُا أقل لمعاناً من جسم الموسى نفسه ، ولها جـراب قـاتم الملمـس مـن مـادةٍ عظْميّة مُفصّل على آخر الموسى بحيث إذا انطوت انثنت علـى المفصلـة داخلـةً في الجِراب بصوتِ ارتطامٍ مفاجئ . ومعـه جلْـدة عريضـة ، سميكـة ، يلّعقهـا بمسمارٍ في حائط الحمام ، يسنّ عليها شفرة المَوسى إذ يحكّها بالجلْد بضربـاتٍ عريضة منتظمة حاذقة وثيقة الملمس لها صوت طـرىّ ، حتـى تصبـح الشـفرة رفيعة جداً ومرهفة وناعمة الحدّ ليست فيها ذرةُ مـن الخشـونة . وكـان أبـوه يُرغي بالفرشاة العريضة من شعر الخيل ، في قصعـةٍ عميقـة مـن المعـدن الـذي يلمع ، حتى يرتفع زَبَد الصابون ويتكاثف بياضُه بوشيش بارد يخفت تدريجيـاً ويهبط بعد انتفاخ ، ثم يمرّ بالموسى على ذقنه بحركةٍ عريضة محكمة ، وينفُض الرغوة القليلة المكحوتة ، بلونها المغْبَر ، نفضاتٍ سـريعة في حـوض الحمـام ، ويترك الماء المنصبّ على الحنفية يغسلها ، فتعـود الموسـى حـادةً مـن جديـد و لامعة .

في الليالى التي يستحم فيها أبوه ، تُسخّن له أمه صفيحة الماء على " وابور الجاز " وتُدخلها لـه في الحمّـام ، يتصـاعد منهـا البخـار في حلقـات متطـايرة بيضاء . طقوس الخلاص الْمُنَهـلِّ الصغـير مـن يَـوْمِ العـالم ، طقـوس الخُلـوص الحميم الرثّ إلى جِسْم الحب .

وبعد أن يَخلصُ أبوه من الحمام ويدخل غرفة نومه ، جديداً وفواحاً برائحة الرجولة والنظافة ، وكأس "الكونياك" مليئة ، ونسيرة الفرخة أو الديك ، وشرائح البيض المسلوق المقطّع الجاهز تحيط به حبات الزيتون الأسود الغضّة الجلد ، كان الولد يرى أحياناً في الحّمام كومةً صغيرة مبلولة من الشعر المحلوق الرقيق ، أسود وأبيض ، لم تنـزلق بها المياه إلى الفتحة المدورة المظلمة. ويخطف قلبَه الروعُ وقدماه تكادان تنحدران به إلى الفوّهة الغامضة الفاغرة التي تُفضى إلى عالمٍ ما تحت الأرض بما يقطنه من أولئك الذين يأتون إليه في رعبِ الليلِ بعد النوم ، بأنفاسهم اللافحة وأجسامهم المتموجة ، وحضورهم محسوس حى وغير مرئى سيقانهم تدقّ بلاط البيت بحوافر مشقوقة ، خطوها مُستَرق ومتربّص . ويسمعها تئنّ أنين الحزن الذي لا شفاء له وبنات الظلام يخرجن إليه على هيئة أمه ، أو خالته ، أو جارتهم اليونانية أمّ توتو ، أذرعهن الناعمة تدور حول عنقه في الليل بحنان قاتل معتصرٍ . والبقرة الذبيحة تخرج بعد هبوط النوم ، وتجمع عظامَها الجافة التي تفرقع وتخشخش ، ومازالت عظْمة الكَعْب ناقصة ، ضائعة ، والبقرة تنوح ، من غير العظْمة المفقودة لن ينفكّ الرَصَد ولن تعود البقرة إلى جسمها الاصلى قبل أن تسخطها ضرتها الساحرة الشريرة ، امرأة باهرة الحسن والجمال عارية تسرع إلي تغطية ما بين فخذيها بأوراق شجرة الجميز الخضراء التي لابدّ أن تضفرها معاً وتجدلها بخيطٍ مفتول من سرّتها المفتوحة تدور في الشقة المظلمة الآن ، تبحث عن سر الرَصَد ، وتهمهم بلهفة والتياع

يتقلّب في مفازع الكابوس الموحش ، وحده ، حتى الآن .

كان بين النوم واليقظة ، في غرفة النوم التي تبدو فسيحة وخالية ولكن ثقيلة وغريبة . وكانت الحُمىّ ، ورعشة البرد المتكررة تنفضه ، لا يدرك تماماً أين هو ، بينما يسعل سعالاً جافاً ممزقاً ، يريد أن يطرد من غورٍ عميق في

صدره شيئاً رازحاً ومتشبثاً . ألذلك كان ينام ، وحده ، على السرير العالي المنصوب ، وحده ، في الليل ، أوراق الصحف القديمة ملفوفة حول صدره ، جفّ السبرتو والخلّ عنها ، تخُشخش قليلاً ويحسّ خشونتها على عظمه ، تحت الفانلة والبيجاما ؟ وهل كانوا قد انتقلوا إلى بيت عبده في محرم بك ، والأثاث مازال مفكوكاً في الغرف الثلاثة والفَسَحة . جاء الليل عليهم و لم يفرغوا بعد من تركيب العفْش ونقله إلى أماكنه ، رصُتْ القفف والسلال والربط ، الكَنَبات معووجة لم تفرش بعد ، الكراسى بعضها فوق بعض ، أخشاب السراير والدولاب قائمة على الحيطان وممدودة على الأرض . اخرجوا الأطباق والحلل والملاعق وتعشّوا على الطبلية ، كيفما اتفق ! ألذلك كانت أخواته ينمن على مرتبة الكنبة الاسطنبولى المفرودة على حصيرةٍ على الأرض مغطاة بالملاءات البيضاء النظيفة ، وهو وحده ، لأن عنده حرارة ورعشة ، ينام على السرير ؟ أكانت أمه قد غلَت صفيحة الماء ، بعد هَدّة النهار وكدّ العِزال ، وفرغ أبوه من الحمام ، واستحمّت بعده ، وناما الآن على مرتبة السرير الكبيرة على الأرض ، تحته ، بعيدا في ظلمة الليل ؟

سمع ، في صمت النوم الثقيل ، الصوت الخشن ، هامساً ، ملحاً . وحفيف الأغطية والملاءات ، تتحرك ، و لم يكن يرى شيئاً . وجاء الصوت الخافت ، فيه تمرد ، حار النبرة : لأ .. لأ .. مش عايزة .. لأ . وعاد الصوت المحبوس القويّ ، مطموساً في لهفته لا يُقاوَم ، ليس فيه إلا عنف التطلب والاقتحام . أما هو فقد تجمّد في رقدته ، انعقد السعال في صدره وتكوّر ورسخ ، صلباً ، لا ينزاح ، كأنه مرصود ، تحول حجراً وفَقَد كلَّ حواسه إلا السمع الذي يلتقط الآن ، بوضوح الشهقاتِ المتلاحقة ، والفحيحَ العنيد ، والارتطامَ الطري ، والنَفَسَ المتسارع ، ثم الأنينَ الأبحّ المكتوم ، آخرَ دفقات الجهد المبذول ، مسفوحاً ودفيناً ، ينتهى إلى تنهيدة الراحة ، وصمتُ مفاجيء

ميّت .

في غمَرات الحمّى كنت قد انزلقت إلى أرض ساخنة عامرة ، وكأنني أطوف بأعمدة الجرانيت في " منف" ، وباحات الرخام في " كورنثة " ، وتحت عقود بغداد وقبابها المنقوشة بالخط الكوفيّ ، وكأنّ الترام يتأرجح بي في شارع النبي دانيال ، ودخلت إلى عَرَصةٍ حارَّةٍ ببخار الماء المتصاعد من نوافير تمجّها أفواه سباعٍ مكّفتة بالفسيفساء ، وكنت عارياً وحواليّ الجوارى الخّود ، أراهن وأحسّهنّ ناعمات ، مليئات الأجساد ، يَنْسَبن من بين يدي ، ويتثنّين عارياتٍ كاسيات في غلالاتٍ من الخزّ الموصليّ ، سوداء وشفافة وفضّية وهفهافة ومطرزة بالذهب البندقيّ الليّن ومفّوفة بوَشْي مشمشي دقيق الخروم ، وكُنّ كثيرات ومتعددات وواحديّات ، يختفين و يظهرن ، يتخطرّن مُقبلاتٍ عليّ ويَرْغُن ، كالنَعَام ، يهبّ بهن هواءُ حارّ فينحسر النسيج السلسال على أثدائهن مكورة ومخروطة وقائمة ولدنة وكبيرة وتفيض على اليدين وصغيرة وصلبة القوام ، لكن منها نُبقته في لون العنبر ، أو عِنَبُه الطويلة المتَرعة بلون النبيذ ، بطونهن مقببة من عاج لدن جسديّ بحت ، وأطرافهن تتموج وتسبح في لّجةٍ هادئة كثيفةً لا أراها ولكنّ مائيّتها تغمرني، وكنّ ضارعات وشرسات ومطاوعات ونوافر وحائرات وهائمات في غسقٍ مُحْمَرّ يسيل كأنه يترك عليهن زَبَداً داكناً ينسرب رقراقاً برغوة ذائبة على اللحم الأنثوي المبتلّ الحيِّ بحياةٍ غريبة وأجنبية لكنها حميمة وثيقة القُربى ، في داخلي ، وكان الدم يضرب في جسمي ويدور جائشاً ومتقلباً في كل جوارحي ، وكنت أعرف من ذلك أن السيّاف هنا ، مُشرعاً سلاحه القاطع المَخُوف ، ولكني لا أراه ، وكنت أعرف أن التي تتجاوز الجدار منهن إنما تعبره إلى ساحةِ مقتلها ، وأن أجسامهن المشتهاة تسقط صريعة الضربة المُصمية ، وكان لضربات السيف بالأعناق الممدودة على النطع صدمةُ ارتطامٍ

جافة ، ومنتظمةُ الايقاع ، رتيبة ، ومازلن يظهرن لي ، ويختفين مني . الرعب والشهوة والغضب و الرحمة لجج طامية ملتطمة في يقظتي ، متوتراً ، مطعوناً، ساقطاً على سريري منهوك الأوصال .

كانت الشمس المنصبّة على الحيطان العتيقة العالية شفرةَ موسى تومض في تقلُّب عتمة الحلم الساطع ، وكان الحلم مبنياً بحجر عريض وسيطيّ ، شقّق الزمن جلدَه الخشَن ولكنه أبقى على نعومةِ جسده الخفية . والحيطان تدور بوثاقةٍ وإحكام حتى تنتهي ، في كلٍ من طرفيها ، إلى برج قصير مدكوك مربّع حادّ الأركان ، ليس فيه نوافذ . وكان الميدان الصخرّي مهجوراً في الظُهر ، والظلال السوداء حاء محددة وواضحة كأنها مقطوعة ، مرميّة بثقل على الأرض ، وعلى نصف البرج القوى الأكتاف . وكانت النافورة الجافّة على شكل منقار بجعة كبيرة ، منحوتة ، رمادية ، أكلت الأيام والمياة القديمة حوافَّ أجنحتها الحجرية المفرودة ، يحيط بها سورٌ من الصخر الأبيض الخام دائرى قليل الارتفاع .

وكان الترام يقف أمام البوابة المقوسّة إلى الداخل قليلاً ، بابها الخشبيّ القديم له ضلفتان مدجّجتان بالأحزمة الحديدية العريضة ، برؤوس مسامير غليظة مثمنة الأضلاع ، تحت شجرةٍ عجوز وعفّية واسعة الأغصان ثابتة الورق . قضبان الترام المزدوجة تشقّ مسارها اللامع في البازلت الكبير غير المنتظم الذي يغطى أرضية الميدان . المبانى ذات الأعمدة الرخامية تدور على جانبي الحصن العريض الذي يحترق نصفه بالشمس ، ونصفه مقطوع بالظل الأسود .

كان الميدان ، والحصن ، والمباني ذات الأعمدة ، والترام ، كلها مهجورة ، وخالية.

وكان وجه المادونّا الحجريّ صغير الأنف ، مشروخاً ، صوّحته الشمس الحارقة التي لا تغيب ولا تخفّ وقدتها أبداً . شفتاها الدقيقتان المكتنزتان في وقتٍ معاً ، اللتان يعرف هو تَنَزّيهما ، وارتعاشتهما ، والتصاقهما بفمه ، وتدوّرَهما ، وانفتاحهما له ، ومسَّتهَما الرفيقة كزغب ناعم ، وتماسَّهما الوثيق المضغوط الملتحم ، وحلاوة الريق العذب الناضح منهما وطعمَ ملح الدموع المنحدرة عليهما ، و عَبَثّهما حول شفتيه واستسلامهما لرسالة حنانه كأنهما حيوانان صغيران كلهما حيوية وطاقة وبحث وطاعة وطلبُ للحنوّ معاً تفترّان الآن عن ابتسامةٍ جامدة تحت عينين واسعتين ثابتتين ، نظرتهما مدفونة ومطلقة .

كان هذا الولد يحمل كتب المدرسة يضمّها الى صدره بشدّة ، وهو ينهج قليلاً من الجرى طول شارع الكروم الخالى في العصر المُشمس . كانت أرض الشارع الرملية المدكوكة بالحجر الأبيض ، لينّة ، وكانت يحسُ حُبيبات الرمل تجرش بعضها بعضاً وتتدحرج قليلاً تحت حذائه . ودخل من باب البيت إلى ردهة المدخل الواسعة ، الرطبة الهواء بعد حرّ الشارع ، المعتمة قليلاً، أمام السلالم الممسوحة الرخام . ووقف ، وحده ، كأنه يتحدّى كل الأبواب المغلقة وكل الأشلاء الممزَّقة ، وقلبه يدق ، وانتضى سيفه في الهواء كان الباب موصداً صامتاً الآن ، طالما شهده مواربا عن شبَح البنت النحيلة، المحترقةِ بسفر الليالى في قميصها الأبيض الناصل اللدن الوبرة ، تناديه لكي تعطيه في فمه مذاق حلوى الحنان الذائبة . والسيف الجديد الصلب يطعن فراغ العالم ، قويّ في نبضه المتحشد ، يُومض في العتمة بلونٍ متضرّج داكن القتامة . انتضاه ، ثم أغمده ، فقط . وطلع السلالم .

أينما توليتُ ، في الغمْض وفي الصحوة ، وكُلّكِ مشتهاة ، فثّم هذا الوجه أمامي ، وجهك . ماثلاً مستضيئاً في حُرقة الشمس ، ساطعَ الجمال ،

وسمرته أسيلة . عيناكِ لهفة الوجـود ، زمرّدتـان قاطعتـان في القلـب . صفحـة هذا الوجه الرخيم هي النعمة ، مفقودة ، وقائمة أبدا .

فرسٌ جموح ، تشـقّين السـحاب ، وسـاحة روحـي هـي برّيتـك الفسـيحة المتموِّجة السفوح .

دوائر فخذيك ذهب حمريٌّ مسبوك ، ملساء باردة تحـت خـديّ ، لامعـة وقاطعة بين يديّ .

ثدياك ، عناقيد كرم ، ومازال سيفي على فخذى مسلولاً أمام هول الليـل في يَمٍّ عشقي الملتطم .

وفمك حلو ، ومازلت أنهل حَمْرىَ الصهباء الصافية لا تغيـض أبـداً ، مـن عناقيد نهديك ، و من كأس سرّتك المدورة . سـكرتُ مـن سَرَف شُـلافتك التي لا تسعها بحورُ السماوات والأرضينِ ، و مازال لساني جافاً مقطوعاً على سنّ سكّينتك ، أنيني ويقيني : هل من مزيد ؟

وعلى يديك ينطف دمي ، والعسلُ والخلّ ، واللبنُ و النبيذ ، معاً .

في الآخِر ، استيقظ دفعة واحدة ، السماء صحوا وليس فيها شمس ولا قمر وسحابها شفاف وثقيل ، كان جسمها الخمـريّ العـاري ، بكـل بضاضتـه ، ممشوقاً مع ذلك كالسيف وناعماً كأنه موجة عاليـة و ثابتـة ، أمـام النـافذة ، شرائح حصيرة النافذة المسدلة يتسـلل منهـا نـور الغَمْـر ، مشـاعاً ، ليـس فيـه حدة، كأنه سائل لبنيّ اللون ورقـراق ، وصوت المـاء يـأتي مـن وراء الحجَـر السميك، خافتاً ، رغوته خفيفة ، والهواء الملحيّ يملأ صدره ، والعالم منفـيّ وكأنه غير موجود .

أحَس طعنـةً مـن سـنّ حـادة ، مدفونـةٍ في جنبـه باطمئنـان ، دون ألم . لا يعرف ما هي ، سيف ، سكين ، خنجر رفيع ثـاقب كـالإبرة ؟ كـان جالسـاً

على حجر أبيض كبير مستقرّ على الرمل المتماسك ، على سِيف بحرٍ ساكن لونه كلون الصدَف ، يلمع ويخبو .

أدار وجهه إلى جنب ، وقذف من فمه كتلةَ دمٍ صغيرة متخثّرة ، أحسّها دافئة ومكّورة . وأحسّ على جانب شفتيه خيطاً رفيعاً لزجاً من الدم ، متعلقاً بوجهه . لم يمسحه .

قال لنفسه : في الرئة : نافذٌ إلى الرئة . ولكن لماذا لا أجد ألماً ، ولا صعوبة في التنفّس ؟

وعرف أنه مقتول .

٨) الظل تحت عناقيد العنب

كانت اسكندرة بنت خالتي لبيبة ، كعرُوسة المولد .

صافية ، خمرية ، ملساء . عيناها واسعتان خضروان ، وشعرها الوحْف ذهبيّ داكن.

و لم تكن خالتي لبيبة ، أمّها ، خالتي خالتي على الحقيقة ، بل خالة أمي ولكن اسكندرة كانت في مثل سنيّ ، يمكن ، أو أكبر قليلاً وكانت تلبس فستاناً حريرياً ، أبيض ، مخنصراً ، وواسع الحاشية ، واسع التقويرة على صدرها . وكأنها لم يكن عندها غيره . وصدرها لم يكد ينبت ، ولكنه على صغره ، ناهد ، وقويّ .

وكنت ، في كل مرة ، واجف القلب وأنا أزورهم في بيتهم في شارع نزيب قريب من بيتنا . أدخل من بابٍ خشبي كبير ، كأبواب المخازن ، يفتح على حوش طويل كأنه حارة داخلية ، فيه حنفية ماء سوداء غليظة الفوّهة ، قائمة من الأرض ، عمودية ، أمام مرحاض مبنيّ على الحجر الأبيض الخام ، وحده في الحوش ، يخدم البيت كله ، وقد نشع الماء في تموّج قاتم يدور بحيطانه الأربعة ، وتهبّ منه ، دائماً رائحة خاصة نفاذة . تُظللّه شجرة توت ضخمة في الموسم تطرح حَبَّها الأحمر الغض الدسم ، وأحسُّ أن في داخل جذعها العريض المفتول حياة خاصة وباقية .

رُكِنَتْ على حائط الحوش عجلات خشبية عالية ، هائلة الاستدارة ، مخلوعة من عربات الكارّو الضيقة الضخمة ، وصفائح مياه صدئة ، وطسوت سوداء وكرسيّ مكسور الأرجل ، وأنا أخطو بحذر وتوجّس بين الكراكيب وبِرك الطين المبلولة دائماً ، أمام ثلاث غرف متتابعة ، وأبوابها مفتوحة عن

بوابير الجاز التي تتّقد وتفحّ تحت الطبيخ والغسيل والستات اللاتي تربّعن على الأرض بلحمهن المنفرط وهدومهن القليلة المفتوحة عن أفخاذ مدموكة وصدور محصورة منبعجة ، أو متهدلة ساقطة في أفواه الرضَّع حتى أصل إلى غرفة خالتي – خالة أمي – لبيبة ، في آخر الحوش ، جَنْب السلم الحجري الخارجي الذي نصعد منه إلى سطح البيت ، أنا واسكندرة ، ويأتي معنا ، أحياناً ، أخوها زكي ، صغير الجسم ، صموتاً وثاقب العينين ،

نترجّى لخالتي لبيبة لتعطينا مفتاح باب السطح ، فتخرجه لنا من تحت رأس المرتبة على سريرهم الوحيد ، وكان مفتاحاً حديدياً طويلاً له رأس على شكل حلقة مفرغة كبيرة .

كان السطح هو الذي يسحرني .

كان مسوراً من الخارج بالحجر ، و طويلاً ، وله باب رقيق الخشب باهت اللون نفتحه بالمفتاح الصدئ الكبير ، وعندما يصرّ الباب ، وينفتح ، تفاجئني، كلّ مرة ، تكعيبة العنب التي تغطي السطح كله ، مورقة ، ومظللة وبليلة الأنفاس ، والهدوء الساري ، وخفوت كل ضجيج ، والبلاط الأبيض النظيف ليس عليه إلا ورق عنب جاف ساقط وجذاذات رفيعة يابسة من فروعه وتراب خفيف مكنوس .

والنور تحت التعريشة اللّفاء الممتدة خفيف كأنه خَمْر عَطِر الخضرة ، وكانت رقرقة الهواء بين أوراق العنب المتربة قليلاً ، المتدلية من التعريشة ، واهتزاز حلقات الضوء المستديرة تلعب بها الشمس على البلاط ا لأسود بين الظلال الصغيرة المتراوحة كأنها رنين موسيقى خافتة من أصابع كريستال بللورية طويلة متأرجحة ، وفي آخر الصيف أشم سُكّر العنب الذي يستوى مترعاً بعصارته ، على مهل .

كانت اسكندرة تأتي إلى بيتنا ، قبل الأعياد وقبل رفاع الصيام ، لتشتري من وابور الطحين الذي أمام البيت نصف كيلة دقيق ناعم نمرة واحد ، وتصنع منه خالتي لبيبة الفطير الفلاحي المشلتت على مرق الوزّة أو ذكر البط. وكنت أصحبها إلى الوابور أساعدها في شراء وحمل الدقيق ، وأكون معها .

كان هذا المطحن يختلف عن مطحن راغب باشا الذي بعد الكوبرى .

هنا كنا ندخل ، أنا واسكندرة ، من فتحةٍ صغيرة مربعة مقطوعة في جسم الباب الخشبي الضخم ، نعبر فوق عتبة رخامية مرتفعة قليلاً فكأننا ننزل منها إلى عُمق فسيح متموّج الهواء معتم قليلاً بعد الشارع بنوره الحادّ ، نجد أنفسنا في باحة عريضة عالية السقف ، خافتة الضوء ، يسبح فيها رذاذ الدقيق كأنه ضباب جاف وشفاف ورقيق جداً ، وأرضها سوداء صلبة الحجر. ويقف في مواجهتنا ، في آخر الباحة ، حاجز عال من السلك الأخضر دقيق الخروم وفيه ثغرة مربعة مقابلة تماماً للشقّ المفتوح في الشارع.

ووراء السلك في حزمةٍ من نور الشمس تسقط فتحةٍ مدورة مغطاة بالزجاج في السقف ، تقوم الأقماع الحديدية الهائلة ، جَنْبها سلالم معدنية مكشوفة مثبتة إلى الحائط بقضبان أفقية . تنصّب الأقماع في مواسير اسطوانية تهتز باستمرار وتدور حولها السيور الجلدية العريضة التي تدخل فجأة من شقوق ضيقة مفتوحة على مقاسها تماماً في حائط حجرى تقع وراءه منطقة المحرّكات الخفية والمحظورة علينا . في المطحن كله تتجاوب أصوات الدقّ المتواتر الذي يأتي من وراء الحائط رتيباً ومنتظماً ، ينبض بقوةِ قلبٍ معدنيّ هائل ، وخشخشة غربلة مستمرة متراوحة الإيقاع ونشيش احتكاك الحبوب بسلك الشبكات المعدنية كوشيش الماء على شطٍ خشن الرمل .

كان بيتنا الذي أمام هذا المطحن في شارع البان ، مزدحماً ولكنه واسع فسيح ملئ بالحركة والحياة .

كنا نشغل الحجرات الثلاث من الناحية القبلية . ننام أنا وأخواتي البنات في غرفة مُنيرة تطل على حوشٍ خلفيّ بين البيوت ، هادئ ومزورع وفيه تعريشة لبلاب كثّة نراها من شباكنا ملتفّة على الحيطان وعلى قوائم خشبية قديمة وعلى جذوع ثلاث نخلات طوال سامقة تنبع كلها من جذرٍ واحد عريض متشابك ، وتميس بسعفها بين حيطان البيوت التي تنزل عليها من كل ناحية مواسير الماء والمجارى ، رفيعة وسميكة ، مدورة متجاورة ، ومواسير صرف مياة المطر المفتوحة عند آخرها على الأرض ترويها في الشتاء من ماء السماء .

و " الصالون " يقع بين غرفتنا وغرفة نوم أبي وأمي . وفيه الكنبة الاسطمبولي العريضة ، والجرامفون ببوقه المفتوح ، والكراسي المنجّدة والخيرزان ، ومائدة الأكل الطويلة ، وتمثال البربري الصغير الملون بعمامته الحمراء وقفطانه الأزرق ويداه تحملان منفضة سجاير تقشرت أطرافها وبان منها لحم الجبس الهشّ الأبيض . فيه نستقبل ضيوفنا ، فاذا جاءنا أقارب أبي من الصعيد فرشنا لهم وناموا على الكنبة . وله باب عريض من ضلفتين من نسيج الزجاج نفسه .

يفتح هذا الباب على فسحة كبيرة طويلة ، فيها ، من الناحية الشرقية ، الغرفة التي أخذها خالي سوريال وعروسه . بعدها ، على طول ، غرفة المطبخ المشمسة الكبيرة المليئة بالحلل والبرطمانات على الرفوف والمغارف والأطباق الصيني في النملية وموائد الطبيخ المزدحمة ببوابير الجاز .

في مقابل غرفة خالي سوريال حمّامان طويلان ، لكن منهما نافذة عالية مدوّرة ، ودوش ، والمرحاض في واحد منهما بلدى ، وهو الذي أوثرة وأعرفه ، وفي الآخر افرنجى ولا أدخله .

أما في مواجهة المطبخ فالباب من الداخل علـى غرفـة خـالي يونـان وامـرأة خالي إسْتِر التي كانت تحبّني ، وكانت أيامها قد خلّفت يعقـوب ، فقـط منـذ قليـل ، وتُرضعـه . وكـان خـالي يونـان مـازال عنـده تاكسـي مِلْـك يسـوقه ويكسب منه الشهد ، ومازال يشتغل في النقابة مع البِرنس عباس حليم .

أما خالي ناثان فلم يكن يسكن معنا وإن كان يأتي أحيانـاً علـى الفجـر ، يُصحّي البيت ويفطر وينام ، وكنت أعـرف أنـه يشـتغل علـى سيارة لـوري ضخمة يسوقها إلى دمنهور كل ليلة ويبيت هناك معظـم الأيـام ، ولم يـتزوج خالي ناثان إلا بعد ذلك بسنوات عندمـا شبـع مـن الخبـص مـع النسـوان ولم تخلّف له امرأته فكتوريا بنت عـم أرسـانى إلا بنتهمـا الواحـدة . ولم أر بنـت خالي هذه أبداً ، إلا مـرة واحـدة ، بالصدفـة ، في كنيسـة جبّانـة الشـاطبى ، عندما ماتت أمّي . وهى التي عرّفتني بنفسها إنها تزوجت ، وخلّفت .

الباب الزجاجي الذيكان يفضي إلى ناحيتنا في البيت أمامه بالضبط في آخر الفسحة الطويلة ، بابٌ مماثل تماماً يفتح على غرفـة المعيشـة المشـتركة الكبـيرة التي فيها ماكنة الخياطة السِنْجر ، والبوريه الرخامي ، وكنبة اسطمبولي أخـت كنبتنا ، وكراسي الطقم الجديـد الـذي صنعه خـالي سـوريال عنـد زواجـه ، والمـائدة البيضاويـة الرخاميـة الـتي حفظـت عليهـا جـدول الضـرب والإمـلاء الإنجليزى ، وفيها أيضاً يضع جدي ساويرس بوص الصيد الطويل وعدّته .

وتنفتح هذه الغرفة على الشرفة التي لها سور حديدى مشغول وتطـلّ علـى مدرسة البنات ، ووابور الطحين ، ونرى منها ، على جنب ، دوران الترام في آخر محطة له ، والكركـون ، والجنينـة الغامضـة ذات الشـجر الكثيـف الـذي تسقط فروعه الملتفة على الشارع . وكنت أحبّ أن أجلـس فيهـا وأطـلّ مـن بين حديد السور على شارع ١٢ الواسـع المسـفلت النظيـف ، وعلـى حـائط المطحن العالي الأصفر ، وحديقةِ مدرسة البنات .

وغرفة المعيشة لها باب داخلي ، على اليمين وأنت داخل ، يؤدّى إلى غرفة جدي ساويرس وتنام فيها جدتي وخالتي وديدة وخالتي سارة ، وتطل على الحوش المزروع.

وكانت ستي أماليا ، بقدّها النحيل وحيوتها التي لا تنضب وكلمتها التي تمشي على الصغير والكبير ، هي التي تُظلّل هذا العالم المتضافر المتنافر ، وتحكمه وتسوده ، برفق ، ولكن بحزم وتمكُّن .

هذا البيت الذي يموج بالحركة والناس والزياط والنقار والثرثرة والخناقات والطبيخ والغسيل والأقارب والضيوف والضحك والمعاكسات وعواصف الزعيق والبكاء التي سرعان ما تنجاب والمعاكسات والحكايات ، ويأوي أصحابه في الليل إلى خفاياهم ، كان مع ذلك واسعاً عليَّ بل موحشاً عندي لا أجد فيه من هو في سنّي .عندما كان يأتي ابن خالتي وطواط وكنت أهرب معه نلعب على السطح ، ولكنه راح الآن . لذلك كنت أحب أن أذهب إلى بيت خالتي لبيبة لكي أطلع مع اسكندرة إلى السطح الذي تُعرّش عليه تكعيبة العنب الطويلة المورقة ، في الصمت المظلل بخفيف ورق العنب .

كنت أحياناً ، أستيقظ من النوم مبكراً ، وأجرى إلى باب غرفة خالي سوريال ، أطرقه بخفّة حتى لا أوقظ أحداً آخر . ومهما بكرت في اليقظة كنت دائماً أجد خالي سوريال وقد أفطر ولبس ويستعدّ للنزول . ولكنه يقول لي : تعال أدخل .. اقعدْ افطّر مع مراة خالك . وكانت هذه الغرفة ضيقة قليلاً ، محصورة ، نافذتها الوحيدة يسدّها الدولاب الجديد ببابه الواحد الذي تشغل واجهته كلّها مرآةُ عريضة تردّد صورة السرير وعليه المفرش الساتان الأحمر الداكن اللامع ، والسجاد البُنيّ المحروق الكثيف الوبرة الذي يدغدغ باطن رجليّ الحافيتين . وكان فيها مصباح كهربى عالٍ له شُعَب مضيئة دائماً في النجفة المتعدّدة الأوراق ، حمرتها فاتحة وفيها عروق بيضاء

متعرّجة ، وكانت الغرفة تثيرني كلما دخلت إليها ، بأثاثها الجديد الذي تفوح منه رائحة اللوستر النفاذة ، والمراتب القطنية العالية اللحاف الريش المنجد بساتان من لون الفرش ، أحمر داكن فيه غُرَز مدفونة ماكرة الصنعة ، وعَبَق الجنس وسرّة المغلق ينضح به وجه امرأة خالي الصعيدية الصموت ، مدوّراً وغضاً وبه آثار الزواق الخفيف على شفتيها المكتنزتين والكحل كأنه طبيعي في عينيها السوداوين العميقتين . وكانت تلبس " روب دى شامبر " بالدانتيللا ضافياً وسابغاً على قميص نوم من الساتان الأحمر الداكن نفسه ، فتحته واسعه على صدرها الأسمر الوفير ، ولم أكن رأيت شيئاً مثل هذا من قبل ، كأنما كانت خجولاً من هذا السرّ نفسه وكأنما كانت تخفي هذا الخجل عندما تناديني إليها ، فيرفعني خالي سوريال إلى السرير جنبها ، وتضمّني إليها فأنشق منها رائحة الحّمام والصابون المعطّر ونفح الجسد الأنثوي الجديد اليقظة ، وتعطيني بيضة مسلوقة مقشرّة من الطبق الذي على الكومودينو جنب السرير ، أو بسكوتة بالمربّى ، وتعزم عليّ بشفطة شاى باللبن من الكوب الذي تشرب منه ، ويخرج خالي سوريال وهو يقول لي : خلّ بالك على مراة خالك ، مِن الغَجَر دول.. أنا سايب معاها راجل أهوه . ويضحك ضحكة صافية ليس فيها سخرية بل إعزاز وحنان أبوىّ . وكنت أفهم أنه يشير إلى معاكسات خالتي سارة والنظرات الفاهمة المعابثة التي تحدجها بها خالتي وديدة ، وأحسّ بالفخر والقوة .

وكان خالي سوريال نحيلاً وقصير القامة نوعاً ما ، ولكنه قويّ والعَضَل في ذراعيه مفتول جافّ ومضلّع كأن فيه طاقة خفية ، وضحكته عريضة كالماء البلّلوري الرقراق ويعشق عروسه الجديدة بنت عم عبد المسيح ، الصعيدية الحنون المليئة الجسم . كان نجاراً وعنده محلّ في شارع الرند ، مزدحم بالخشب وأجزاء الكراسي والدواليب والترابيزات والعدد ، وكان يُخرج البنك

الكبير إلى الشارع الهادئ يشتغل عليه بالفارة أو المنشار ، والمسامير في فمه ، والقلم الرصاص خلف أذنه . وعندما كبرت جداً صنع لي مكتباً كبيراً كنت أذاكر وأرسم عليه وأنا في كلية الهندسة . وكانت امراة خالي مارية هي التي أخفيت عندها مكتبةً كاملة من الكتب الثورية والمجلات الممنوعة والمخطوطات والمنشورات قبل قيام حرب فلسطين ١٩٤٨ .

وعندما اعتِقلتُ أحرَقتَهْا كلّها في الفرن الذي يخبزون فيه على سطح بيتهم وراء الكركون تماماً ، حرصاً عليّ ، وعندما خرجت من المعتقلات لم أرها إلا لماماً حتى ماتت بعد خالي سوريال ، وبعد أن زوّجت كلّ أولادها ، ومازلتُ أذكرها ، صموتاً وجميلةً وعميقة العينين ، بمحبة ، وأبتسم عندما أذكر كيف كان جدى ساويرس يقول عنها : الصعيدّية بنت الصعيدي ، ولكنه لا يقول ذلك أبداً على مسمع من أبي .

كان جدى ساويرس قائم العود ، وجهه طويل ووسيم وواضح التجاعيد لوّحته الشمس بسمرةٍ خاصة صحيّة ، وكان يدهشني عندما يشمر كمّيه ليغسل ذراعيه تحت حنفية الحوض ، أن أحدهما ، فوق الرسغين ، بيضاوين جداً . عرفت عندما كبرت أنه كان " باشكاتب " حسابات قدّ الدنيا في البنك الزراعي في شبراخيت ، وأنه استقال في عزّ كهولته ليعود إلى أرضه في الطرانة ، وأنه أنفق عن بذخ على الشرب والأكل والمَضْيَفة ورَهَنَ الأرض ولعبَ على القطن في البورصة حتى لم يعد إلا قراريط ، ثم حَمَلته ستي أماليا على أن يؤجرّها ويعود ليعيش مع أولاده وبناته في غيط العنب . وعندما خلّف أخوالي عيالهم الكِثار وانتقلنا نحن إلى بيت شارع الكروم أمام اصطبل العربات ، عاد جدّي إلى الطرانة ، وبعدها بقليل نشبت الحرب وكنا نذهب أنا وأخواتي إلى الفلاحين عندهم في إجازات الصيف .

أيامّها كان مزاجه صيد السمك . كـان يخرج كـل يـوم إلى المحموديـة أو الملاّحة ، ويقضي سـاعات في غرفـة المعيشـة الكبـيرة ، بعـد الظهـر ، في نـور "البلكونة " يصلح سنانير الصيد ويضبـط بَكَراتـه ويُشـذّب الفلّينـات المـدوّرة السوداء ويقطعها بمطواته الكبيرة ويركّبهـا في الخيـوط الرفيعـة المثنيـة الملفوفـة بعناية ويقطع بنفسه أطوال البوص وأنا أراقبه مسحوراً .وعلى وجه الصبـح ، كلّ يوم على الله ، يخـرج وعلـى كتفـه البوصـة الخيزران الطويلـة الناعمـة ، بعُقَدها المتتالية العريضة ، لونها أدكن مصفـرةً وأخشـن مـن سـاق البوصـة ، والمخلاة القماش التي اسودّ لونها فيها الصفائح المدوّرة الصغيرة ذات الأغطيـة يتقلب فيها ويتلوى على بعضه البعض دود الطُعْم والجمبري الصغير الشـاحب البياض ، ويعود على العصاري وفي المخلاة رزق اليوم : قرموط كبير مفلطـح الرأس شواربه الطويلة تلعـب وجلـده الـلزج اسـود علـى أبيـض ، أو البلطـي الفضيّ القِشْر بلون الصَدَف المزرقّ المبلول أو حتـى البسـاريا الـتي أفـرح بهـا جداً لأن ستي أماليـا تقليهـا وتعطيـني منهـا ، مـن وراء أمـي ، جافـةً محمْصـة سـاخنة في الزيـت الفرنسـاوي تُقرقـع رؤوسُـها الهشّـة تحـت أسـناني ، بلـذّة وعندما كنت في مدرسة الكرمة الأولية القبطية الأرثوذكسـية سـألني منصـور أفندي الناظر عما يشتغل أبي ، فقلتُ بصوت خجولٍ وبـلا اهتمـام : تـاجر بيض وبصل في شارع أنسطاسي . فلما سألني مـاذا يشـتغل جـدّي سـاويرس قلت بفخر وكبرياء ، وبصوت عالٍ سريع : صيّاد سمك . وغضبتُ منه جـداً في سرّي عندما ضحك بصوت أجشّ وحانٍ ، ولكني لم أغضــب طويـلاً فلـم أكن أسمعه يضحك أبداً . ولم يأخذني جدّي ساويرس معه للصيد، أبداً ، مـع أنني كنت أطلب منه باستمرار ، بخجل وتردد في الأول ، وبإلحاحٍ وبكاءٍ بعد ذلك ، ثم من غير أملٍ أخيراً ، ولكن من غير جدوى في كل الأحوال .

كان جدي ساويرس يطلب مني أن أنزل في الليل فاشتري له حُقّ الدخان أبو غزالة ، من البقال الذي على أول حارة من اليمين ، بعد وابور الطحين وكنت أحس الدخان طرياً ولدن القوام من وراء الورق الخشن الداكن الخضرة ، وعليه رسم الغزالة بالخط الأسود تطير في الهواء بحُرّيّة ، رافعة الرأس، ساحاتها فسيحة ، وأسعد بها وبالشارع المنير وهوائه الرحيب والبيوت النائمة ، أنوارها صغيرة تبرق وتتخايل من وراء الشبابيك ، وأنسى عندئذ ، محنة العودة ، وعبور العتبة ، وطلوع السلم . لأن الدور السفلي من البيت كان مقفلاً ، ومهجوراً طول إقامتنا فيه . مِمّن سمعت أن امرأةً قُتلت فيه ، من زمان ، بسبب العرض ؟ ذبحها زوجها بالسكين ، كما تذبح أمي الفراخ أو البطّ من غير أن يذكر عليها اسم الله . وحبسوه ، ولم يُفتح البيت من يومها ولم أكن أفهم تماماً ما العرض ولكني أعرف بالتأكيد أنه من أسرار النساء . وكنت أحياناً ، وأنا نائم في عز الليل أسمع الأنين الأنثوي الملتاع الطويل ، يصعد إليّ من تحت ، وأسدّ أذنيّ وأدخل تحت اللحاف ، وأسقط في النوم بسرعة .

كان السلّم في الليل مظلماً ومخيفاً ، وفَسْحة الباب معتمة ويهبّ فيها هواء رطب كأنه أنفاس حيّة ، ترعبني ، وأحسّ صاحبتها تترصّدني من وراء باب شقّتها ، وتهم بالإطباق عليّ . وعندما أدخل من الشارع يواجهني باب الشارع الخشبي الثقيل المشغول ، تحت شرفتنا ، دائماً غامضاً ، وكأنني أدخله لأول مرة . أستمدّ الشجاعة من عمود مصباح الغاز في الشارع الذي يدخل نوره قليلاً من العتبة إلى الداخل ثم ينقطع في ظلامٍ دامس وسكون . أضع رِجلاً على العتبة ورِجْلاً في الخارج ، وأُنادى كلّ مرة ، كلّ مرة ، بصوتٍ مرتفع فيه كلّ شحنة شجاعتي ، أنادي باسمي أنا ، بإلحاح ، دون توقّف ، حتى يظهر النور المهتزّ من باب بيتنا فوق ، وتحمله أمي أو خالتي سارة أو

امرأة خالي إستر التي أحبها ، وتتراقص شعلة اللمبة نمرة خمسة على السلالم والدرابزين ، فترتدّ الأشباح وتنحلّ المفازع ، وأسمع الصوت : اطلعْ.. تعالى.. يالله .. فاصعد السلام وثبا ، أربعة أربعة ، وقلبي يخفق ، كل مرة بالفرح كنا في ليلةٍ في أول الصيف ، والعالم قد خلا فجأة ، أصبح مُخوفاً صفارات الإنذار تُعول عويلاً موحشاً ، سمعت الكلاب تنبح بصوت مرتفع ، في السكون ، والظلام الذي سقط .

نزلنا السلالم مسرعين ، من بيتنا ، في حارة الجلّنار ، إلى راغب باشا . كنت أمسك بيد أختي هناء من ناحية ، وأختي لويزة من ناحية أخرى ، وكانت أمي تحمل أخي ألبير الصغير ، وأبي قد لبس البالطو على جلابيته البيتي البيضاء ، ومعه أختي عايدة ، صامتة وخجلة قليلاً من أنها كبرت الآن ولم تعد طفلة . وعبرنا شارع راغب باشا ، وكان معنا جماعات صغيرة من الناس يتحدثون بهمس ، ودخلنا من ميدان صغير في تقاطع شارع إيزيس وشارع صغير لا أعرف اسمه ، ودخلنا من الفناء الصغير إلى باب الكنيسة الإنجيلية المبنّية بالحجر الأحمر ، ووقفتُ بالباب بينما نزل أبي وأمي وأخواتي إلى البدروم المتين الصلب الشكل .

كنا نعرف أن باب سِدْرة قد ضُرب ، أمس بطوربيد ، ونشرت الأهرام والمصري والبلاغ خبراً واحداً وبنص واحدٍ معاً ، أنه انهار بيتان كانا آيلين للسقوط وأنه لم تحدث خسائر في الأرواح وأصيب ثلاثة أشخاص إصابات طفيفة . وكنا نعرف أن العمود ، صباح ذلك اليوم ، وقد غصّ بالجنازات المتتالية وأن الكنيسة في جبّانة الشاطبي أيضاً قد ظلت أجراسُها تدق طول الصباح وأن العديد واللطْم والشَلْشة قد فاض من بين البيوت والأنقاض وأن صلاة الموتى والغائبين قد أقيمت في جامع سيدي المرسي أبي العباس وفي الكنيسة المرقسية في وقتٍ واحد معاً . وقال أبي أنه في طريقه لشغله رأى

فتحة واسعة غائرة ظَهَر الماء في قاعها ، على دَوَران البياضة ، ورأى ، من خلال كوردون عساكر الجيش المُرابط ، الحيطان المتهدمة والأنقاض والأحجار المتراكبة ، وإنه رأى بينها سراير حديدية متلوية ومحروقة معلقاً بها جلاليب وفساتين كأن أصحابها قد خلعوها الآن فقط .

كانت السماء فوقي قد أصبحت شاسعة مخيفة ، تحمل الموتَ في بطنها ، الموتَ محدداً وضارباً وثقيلاً ونهائياً . وكان نور القمر قاسياً في سطوعه الفسيح . وانطلقت أسنّة الأشعة الكاشفة سيوفاً طويلة متحركة من النور القاطع ، آتية من أطراف المدينة ومن وسطها معاً ، تدور في الزرقة الصافية الحريرية ، تتقاطع وتتجاذب وتتفارق وتتلاقى أطرافها لحظة وتتركز في نقطة واحدة وهّاجة ثم تتَشعِب ، تجوس في بطن السماء المغلقة عليها ، تبحث عن بؤرةٍ مُراوغة بينما طلقات الآك الآك الرفيعة الثاقبة المتعاقبة تطقطق دون توقف ثم تنفجر في ورود حمراء معدنية تتناثر شظاياها على الفور وتنطفيء ، وهدير محرك الطائرة بعيد وعالٍ ولكنه مسموع بين انبثاقات الطلقات من المدافع المضادة للطائرات ، في الصمت الذي يجعل المدينة أكثر شفافية واتساعاً، من الأنفوشي إلى المندرة والمنتزه ، من الرَند والبَان والنخيل في غيط العنب إلى اللبّان ورأس التين وانسطاسي ، من حليمو نوبولو وزيزينيا إلى ستانلي والنزهة والورديان ، من حجَر النواتيّة إلى كوم الناضورة ، من سِيدي جابر وسِيدي بشر وباكوس إلى سموحة والمكس ، ومن محطة مصر والرصافة إلى مصطفى باشا عَوْداً إلى عزبة الصيادين ، كانت حبَّات اسكندرية عارية مطروحة ، تغطيها فقط أسِّنةُ من شبكةِ الأشعة التي تطعن السماء .

في تلك الليلة ، عندما نزل الطوربيد من الطيارة الطليانية ، على مقام سِيدي أبي الدردار لم يصل إلى الأرض أبداً .

قال شهود العيان إنه بينما كان الجسم الضخم يهبط ويتقلّب ، حافتة المدببة مصوبة إلى الأرض و يومض تحت القمر بلمعةٍ شريرة ، انشقّت قبّة المقام الخضراء وسط تعريشة العنب المورقة المسوّرة بسورٍ رقيق من الحديد ، ثم التأمت على الفور ، وصعد منها الحضور الأكرم لوليّ الله . وكان من الصالحين ، يفدي عُزوته كل أبناء مدينته البيضاء المحروسة ، والبُرْنُس المغربيّ السميّ الهفهاف ينفتح كالجناحين في الهواء ، ووجهه كالبدر الطالع يكسف بدر السماء ، سناه يُعشي الأبصار ، وفاحت رائحة المسك والعنبر المدفون في المقام المصون ، وإنه بسط ذراعيه فإذا هما عريضتان ، نوارنيتّان ، وتلقّي في حضنه الطوربيد الهائل المندفع كالصاعقة فإذا هو برد وسلام ، وطار به كلمح البصر أو أسرع فوصل به في الحال إلى أكمة الشلاّلات العالية الخضراء الخالية من الناس ، ووسده الأرض على جَنْبه ، وقد نزع شِرّته وأذاه ، فرَقَد بين الشجر الملتف الأغصان حديداً بارداً ميتاً بلا حول ولا قوة وَجَده الناس في أول الصباح فتوافدوا عليه ألوفاً مؤلفة ، وفككوه دون ضرر ودون عناء ، وكل واحدٍ أخذ منه قطعة حديد خُردة للبَرَكة والعِبرة وعندما وصل رجال الجيش المرابط وضربوا نطاقاً حول المكان لم يكن قد بقى من الطوربيد المهول إلا قطع صغيرة هشة من الصفيح ، وكومة باردة مفتتة من البارود تشبه الفلفل الأحمر المطحون .

ثاني يوم قال أبي إن اسكندرية أصبحت خطرة على الأولاد وإن لقمة العيش وحدها هي التي تبقيه هنا ، فقالت أمي إنها لن تتركه وحده أبداً ، وسافرت أنا وأخوتي جميعاً إلى بيت جدى ساويرس في الطرانة ، فيما عدا ألبير الصغير الذي بقى مع أمي ، ومات بعد ذلك بسنتين بالتيفود .

وكنت قد عرفت الطرانة وحبُبتها في الصيفين السابقين ، وعرفت لندة وأختها رحمة والولد برسوم وبقية العيال ومنهم الولد مخلوف ابن الشيخ

عيسى جارنا في نصف القرية الذي لا يسكنه إلا النصارى ، وحدهم تقريباً ، مع أن الكنيسة تقع في النصف الآخر ، بالقرب من السراية الكبيرة التي ضرب فيها أنيس أفندي نفسه بالنار . وعرفت التجوال الطويل على المدقات الترابية بين الغيطان العالية بالذرة ، لغاية الطاحونة وما بعدها ، وعلى جسر النيل ، واللسان الحجري الداخل منه إلى عرض النهر الواسع ، أقف على طرفه ، بين الأمواج والدوّامات أنادى منه جنيّة البحر التي لم تطلع أبداً هناك ، وإنما جائتني في الآخِرِ بنشواتِ الجسد المسحور ومُتعاته الجنونية التي يعرف غيرهن أن يُذِقْنها لعشاقهن ، جنيّات النهر العميق .

وكنا نلعب الإستغماية أنا وأخواتي والعيال والبنات ، أمام بيت جدى ، تحت شجرة الجميز .

وفي حموة اللعب ، مرة ، هربت لندة فجأة من أمامى إلى ما وراء بيت عم أرساني ودخلتْ إلى ممر ضيق مسدود بينه وبين بيت جدّي ، يظلّلة آخر فروع شجرة الجميز الفارهة ، وكنت أرى كعبي رجليها، وهي تجري حافية تثير التراب من على الأرض ، فيهما بياض متورّد وعليهما حبيبات التراب الناعمة الهشّة وكنت ألاحقها ، خلعت شبشبي أنا أيضاً ، أحس التراب في الزنقة بارداً وجافاً تحت باطن قدميّ ، وعندما أمسكتُ بها ، في آخر الزنقة، وهي تستدير تحاول أن تفلت من جانبي ، مرِنة ، مسرعة ، وتمرق من تحت ذراعيّ الممدوتين ، ضممتها إليّ ، ووحدتها بين ذراعيّ ، وقد أحيط بها - كما كانت تريد من غير شك ، قلت لنفسي - وأحسست صدرها الحر النافر ، وهي تنهج على صدري ، مضرجة الخدّين وعيناها السوداوان الحالكتان متوقّدتان ، وبطنها ، في فستانها المشجّر بالورد الأحمر والأصفر الصغير على أرضية برتقالية يصطدم بي ، ويتلبث لحظة واحدة ، خاطفة ، لا نهاية لها ، وهي تحسّ بانتصابي وتعرفه ، لحظة واحدة ، خاطفة ، تريده ، ثم

تتنحّى عنه بينما وضعتُ شفتيّ الجافتيْن ، وأنفاسي متدافعة ، على جانب وجهها الذي وجدته أمامي في هذه الخطفة من الزمن ، وأحسست نعومته وحراراته ونداوته الخفيفة من العرق ، قريباً جداً من فمها المفتوح المبتسم ، ونشقت رائحتها الزكية ، أوليّة وبريئة ونقية ، رائحةَ الجسم النسويّ العذريّ اليقِظ ، ثم أفلتتْ من ذراعيّ وجريبُ وراءها خارجين من الزنقة التي كانت، منذ لحظة ، ساحةً فسيحة ساطعة ، فإذا بنا نكاد نصطدم ، كلانا ، بجدّي ساويرس ، وكان راجعاً للبيت ، يمشي ببطء مستنداً إلى عصاه الصفراء الغليظة العُقد ، وانطلقنا نجري من وراء الشجرة حتى الجرن .

عندما عدت على أواخر العصاري ، بعد أن لبست شبشبي ، وطسست وجهي بماء جارٍ حفنته من عند اللسان الحجري في النيل ، ونفضت التراب من على جلابيتي البيضاء التي كان طرفها السفلي قد ارمدّ وابتلّ بالتراب المنعقد و لم تنفع فيه حيلة ، ودخلت البيت ، ناداني جدي ساويرس بصوتٍ كنت أتوقعّه . عندما اقتربت منه ، متوجساً ومتماسكاً ، سألني ماذا كنت أعمل في الزنقة مع البنت لندة ؟ فقلت كنا نلعب كلنا وليس فقط لندة ، نظر إليّ بعينين نافذتين وعارفتين وصلبتين ، وبدون كلمة ارتفعت يده وأحسست صدمة الصفعة الأولى والأخيرة في كلّ صباي ، الوحيدة من أى أحد ، بقوتها المفاجئة ووقع الإهانة وسخونتها أكبر بكثير من ألم الضربة ولذعها ، وكنت أسمعه ، من وراء غيامة الغضب وحرارته ، يقول إننا كبرنا جداً عن لعب العيال ، ويتكلّم عن الأصول وألسنة الفلاحين التي لا ترحم البنات . تركته واستدرت . وصعدت إلى الجميزة ، عالياً ، إلى البقعة العريضة التي كنت اختبئ فيها ، منذ سنتين ، وأترك نفسي لحلم الشجرة الوارفة وسماء النهار التي تغلّفها وكأنها تنزل إليها وتُحيط بي ، وأنا أرتقي إلى الجذع العريض الممتدّ بين الفروع ، يَسَعني ويحملني بثقة ، وكنت أسمع أصوات البيت من تحتي

والشوارع المتلوية الضيقة في القرية والناس والبهائم والكلاب كلها بعيدة ولكنها موجودة . وكان غضبي تخامره كبرياء وعزة من معرفتي بأن تلك اللحظة لم تكن مسروقة تماماً ، ولا جاءت بالصدفة تماماً بل كانت بمعنى ما مُدبَّرة ومطلوبة .

وكانت ظلال الورق والهواء المنعش في أعلى شجرة الجميزة المعزولة عن العالم ، تهدهدني . ولعّلني ، بالرغم من الجرح ، كنت قد نمت .

في ١٢ بؤونة من سَنَةٍ قديمة ، كنت في قاعة مدرسة الأحد فى مبنى الكرمة الأولية القبطية الأرثوذكسية . كنت أحب صوت مس كاترين النحيفة الطويلة البيضاء الوجه ، جسمها كأنه نورانيّ في فستانها السابغ الأبيض المرسوم بزهور دقيقة حمراء فاتحة ، وهي تُعلّمنا الترانيم في الغرفة الواسعة المعتمة قليلاً ، فيها دكك خشبية طويلة صفراء لامعة ، وصلبة ، وكانت القاعة رطبة الهواء قليلاً ، فيها شموع موقدة تحت أيقونة العذراء ، بثوبها الأزرق الملفوف على كتفيها ، تنظر إلينا نظرة غائبة ، واسعة العينين جداً ، وهي تحمل على حِجْرها الطفل البضّ المدملج الجسم ، السعيد النظرة وعورته الصغيرة عارية وبرئية وطبيعيه وتدعو قلبي للحنان . ولأنني أجدت الترنيم أخذت من مس كاترين صورةٍ ملونة ، في أعلاها كلمات بالقبطية و مقابلها بالعربية اللجنة العامة لمدارس القبطية الأرثوذكسية ، وفي الصورة عملاقان يرفعان أذرعهما بالبشارة على خلفية السماء الزرقاء ، وعلى حقويهما إزار من الجلد داكن ، يقفان على أرض صخرية عالية فيها نباتات غضيرة ووحشية الشكل ، ويحملان بينهما عصاً متينة يتدلى منها عنقودٌ هائل من العنب ، وموسى شيخ أبيض اللحية يصعد إليهما من تحت الأكمة مستنداً إلى عصا معقوفة اليد ، وتحت الصورة بالقبطية والعربية " عنب أرض كنعان " ،

والآية المختارة : " وأخبروه (موسى) وقالوا قد ذهبنا إلى الأرض التي أرسلتنا إليها ، وحقاً أنها تفيض لبناً وعسلاً وهذا ثمرها "

كنت أُرنمّ وراء مس كاترين ، بإيقاع يتردَّد في الغرفة الواسعة ، له صدى كَنْزُ مَجْدٍ في السما .. كَنْزُ مَجْدٍ في السما ..

ترنيمي إليكِ ، الفَرْدانية المُثَمَّنة المتملّكة ملكوتَ اليومِ التاسع غير المنقوص وعندها الأيام الثمانية معاً .

الوحدانيّة المنسوبة إلى بيرسيفون ، منهكة ، مهانتها تنوش نِياطي ، كامنة في نباتات سنوحي ، ما تَنِيي تنعب عبر السنين فوق دندنة الأحزان ، حسنيّة.

منشدتي الأوَّلانيّة المُثنّاة ، غُنّتها هيلينّية النبرات ، سِيرينتى في سَنَي الوَسَن، كاترينا .

اسكندرة ، سيرافينا الفينانة المُغدَوْدِنة على غصون الرَنْد والعنب ، نداوةُ جناحيها المنضمين عليَّ لا نضوب لها .

هنيّة ، ماندالا الحصين ، دورانُ اختناقِها في أنفاس الإحَن والمحنة مازال يرين على العرين الجنوبّي المكين في الجنينة القبلية .

وفي نْهج الجُلّنار ، مُنَى ، النَفُور ، نازعةً عني ، رِنوتها إليّ سنٌ مسنونةٌ تنخس نزواتي في الجبّانة المنحوتة بالصوّان .

وفي الطرّانة جميانة ، أيقونةُ يانعة مُونِقة ، نقطة النجيع أرجوانيةُ من طعنة سكين نجلاء حول لُجَين العنق .

البأنةُ المتثنيّةُ نوّاسة تحتَ السنْط النضير ، لندة ، بتّضّ لها بواطني المتنزيّة ، ونفحةُ بدنها نفثُ البشنين النابع من غرين النيل .

أما نعمة ، فوطني ومسكني ، كنزي ونواتي ، منيعة ، مانحي حنانها وهناءتى وهي نقائي من أدراني و إليها أُنيب وفي حِضنها أمنْى ورُكنى ومنامي عند المنون .

وأما رانة فهي منفاي . الجنّية النْهمة مَنَاسِكي إليها ، كاهنةُ التنّين سوسنةُ منف ، مَنَاتي الوثنية وفينوس مُدنِفَتي ، سنديانةُ كنيستي ، نخلةُ نَجراني ، زنبقةٌ في زعفراني ، جُمانةُ النهار . النون .

النورس المتنّمر ينقر عناقيد العنب بِمنْسره المحجون . وهو في آن يونان المكنون في بطن الدجنّة ليس له منجاة ، والنوتيُّ الرهينُ ينقش المنمنماتِ سجيناً في سفينته إلى نينوى التي لا منال لها .

وأنا في كِنّ نونِك ، نِصفُك إلى يميني يُمْنٌ ونعيمُ الفتون ونشواتُ الَجنّات والجُنون ، ونِصفُك الداكن نير النِكال ونهش النيران حتى فناء الزمن ، وعلى النصفين معاً نقلتي إلى تنتالوس . جَنَى الأماني مَنِيّةُ تدنو وتنأى . نَبْنَبَتي إليكِ وهنيني وجنوحُ أحنائي . نِضْوُ الضَنى ، كَفَني بين النَوْمِ والنَايِ . أنكِل عن إيماني وأنكث بنفسي . تونعين فأنكَص ، وتُوقنين فأحنث . أنت دينونتي . نجواي إليكِ تَنِزّ نازفة ، في طين الدِمْنة الدفين . وحنيني إليكِ نداءٌ إلى حنان جسدانيّ ونُورانيّ معاً بلا نظير . وإذ أنزعُ إليكِ فإنما هو نشدانٌ إلى أنْ أطامن من شَجَنِك المستكين . انقضّتْ ناعِقةُ النَوَى على منكبيّ ونشبت أسنانهَا ، ناءت بي ، أختنق في مكامنها . وهأنتِ قد نضوتِ عنكِ نصالك . تنحني نوّارتك على مُنتهاك غيرَ مُنْبَتّة ، لن يكون لكِ منتهى . لا تندّ عنيّ نأمة . أنبض في سَكِينةِ حناياك .

لكني ما أني أنزو إلى أقحوان عينيها ، أعتنقُها وأحتجنُ إليّ رُمّانيْ نهديها لا أُنحّي نظرتي عن ريعان حُسنها المُنِيف . ولا نهاية لعنفوانها . أنشق نكهةَ سنبلتها . بين ردنيها نَشْرُ النّد والنارنج والنسرين . نُفاضة النجوم تُنير على أناملي . وفي تِرنان النواقيس والصنوج أنهل مَنّ يُنبوعها ، خدينتي يناغيني غُنْجُ مغانِيها . لَهَبَان التنّور يُنضجني فأنطفُ بالَمنّي في عجينتها الساخنة الرّيانة . هنالك تنبو أسنانُ التنانين ، وتنتسفُ حنادلُ نكراني كالعِهن

المنفوش، تُذعِن الطواعينُ وتنصاعُ الشياطينُ أخيراً ، والنيازك نثارةٌ في عِنان الأنواء .

أنتِ مِعْمدانيّتي الهَتون على نهر الأردنّ . وأنتِ قنّينة النِكْتار وأنتِ النجدة وأنتِ النذير .

ومع حنثي وخياناتي فإنني لم أُنفِذ قانونك أنتِ فعند الميزان أنزليني منزلة النعماء المكنونة للعاشقين . آمين .

أغنيّتي إليكِ ليست أنيناً ولا نحيب النهنهة . بل هزيمُ النَسر المطعون المنتصر. ترنيمُ المِيم إلى أبد الآبدين .

قال : وكتبتُ النونَ بالنثرة على قرطاسٍ من رصاص آن ووضعتُها في جام وغسلتها بالمطر ، وغمست منها قلمي والقمر في منزلته مضيئاً فيّاض الوهَج فأتتني الحيتانُ من مواجها الظُلْمانية منصاعةً في الحال ، وحَسُنَتْ عبارتي وازدانت إشارتي وذكَرْتها في حنادس الدجنّة بعدد قُوَى أسماء حروفها ، فانبلجت لي أنوارٌ عظيمة وانفتحت لي المخارجُ الرّبانية إلى النعيم امتلأ باطني معرفةً ونطقتُ بالنبوءات الغريبة الشريفة ، وزال ألمي . وما وقع بصري بعد ذلك على أحدٍ إلا ارتاع مِنيّ وغرس الله في قلبه محبتي .

كنت قد خرجت من عتمة القاعة المهتزّة بالشموع في مدرسة الأحد ، إلى نور الشارع الدافئ المظلّل بالشجر ، وفي عينّي حلمٌ بكنز مَجْدٍ في السماء. والهواء شفاف وله رائحة خفّية مخضرّة من أغصان العنب ، وجريت إلى بيت خالتي لبيبة . كنت أعرف أنها عندنا في البيت . وكانت اسكندرة تنتظرني لامعة العينين . خدّاها مضرّجان .

مددت ذِراعِي إلى آخرها تحت سريرهم وتكّورت يدي حول جسم البوصة الطويلة الرفيعة و الدوبارة الملفوفة حولها ، وفي آخرها فلينة وسنارة صغيرة .

كنت قد انتقيت أصغر بوصة عند جدّي ساويرس ، وتسلّلت بها مبكراً جداً يوم الأحد ، قبل الكنيسة ، وأخفيتها عند اسكندرة . وخافت هي أولاً ثم ضحكت ووضعتها على الأرض تحت سريرهم .

ولما سأل جدّي ساويرس عنها ونادي ، بغضب : فين البوصة الصغيرة يا ولاد ؟ هربت إلى غرفتنا في آخر البيت ، وسكتّ . ومع ذلك كنت أصلّي للمسيح بحُرقة أن يغفر لي وكنت واثقاً أنه غير غاضب مني . ويئس جدّي من البحث عنها ، وسلّم أمره لله ، وكان متحيراً ولكنه لم يسألني قط ، مباشرة.

وكانت اسكندرة قد نبشت في درغة الأرض المبلولة تحت حنفية الماء ، وتحت شجرة التوت الكبيرة في حوش بيتهم ، واستخرجت الدود اللزج الدسم الشكل ، ووضعَتْه في حُقّ مستطيل وأخفته تحت السرير ، جنب البوصة ، فأخذتُه ، بسرعة ، وأخذت اسكندرة من يدها ، وخرجنا .

جرينا في الشوارع الخالية تقريباً ، ومررنا أمام زرائب الجاموس برائحتها النفاذة وأقراص الجِلّة الطرية تجفّ في الشمس أمامها ، بعد صفّ من صفائح اللبن الضخمة المرصوصة ، فارغة ، ونفذنا من ثقب ضيقٍ كنا نعرفه في سور السكة الحديد ، و عبرنا القضبان وسرنا بين الهِيش والحلفاء والبوص والزلط حتى وصلنا إلى شط الملاحة المترقرق الضحل ، والماء عليه ساكن وفضيّ وثقيل الشكل .

ومشينا قليلاً بحذاء الشاطئ حتى وصلنا إلى مرتفعٍ صغير في رمله حصى مضلّع ومتراوح الأشكال ، مدبّب ومنبعج ومدوّر ومسطّح ، يعطي للرمل استمساكاً وقواماً ، وتحت المرتفع جونة ماء عميقة تبدأ صغيرة عند الشطّ ثم تتسع وهي داخلة في الملاحة ، لونها أكثر زرقة وماؤها يترجرج بسيولةٍ أكثر وكانت الشمس قد بدأت تحمى ، وجلست اسكندرة بجانبي على ركبتيها ، فوق أكمة الرمل ، فاحّمر جلد ساقيها ، الحصى الصلب الأملس ، بينما

وقفتُ وذهبت حتى حافة التلة الصغيرة وخلعت حذائي وأدليت رجليّ حتى أوشكت قدماي – اللتان أحسست فجأة برطوبة الهواء عليهما – أن تلامسا الماء .

رشقتُ جسم الدودة المتنزّية الزلقة بين أصابعي ، في سنّ السنارة الحادة التي نفذت من الناحية الأخرى ، ورفعت البوصة ، وسقطت السنارة في الماء وطفت الفلينة بعد لحظة ، باهتة اللون ، في فضة الماء السائلة . وانتظرت .

ماذا حدث ؟ كيف سقطت ؟

أحسست نفسي في الماء ، وكأنني أطفو ، ثم أغوص بهدوء في عُمق يبدو أنه من غير قرار . وكان الماء حولي دافئاً ومحيطاً وحنوناً وشاملاً ومن غير نهاية ، ولم أكن أشهق ولا أطلب النَفَس و لا أتخبط ، ولم أكن قلقاً ولا مرتاعاً ولا مختنقاً ، وكان هذا العنصر الرفيق الثقيل يحملني ويسندني في نزولي الذي لا زمن فيه . والضوء حولي داكن وشفّاف معاً ، رازحُ ومُشعُ معاً ، كأنني في غرفةٍ مائيةُ شاسعة المدى ، وخصاص نوافذها تنساب منه صفحاتُ رقيقة النسيج متتالية من النور والماء ممتزجينْ معاً . وكان سطح الماء فوقي يومض بإبَر فضّية دقيقة ومتموّجة لا عِداد لها ، تظهر وتختفي .

الماء يتخلّل تكعيبة العنب ، ويغمرها ، و العناقيد الثرّة الداكنة الحمرة حبّاتها الغضة المدورة ملتئمة متضامّة بعضها حول بعض ، وتتدلّى كأنها نهود متضرجة كثيرة ترفعها الموجات الصغيرة برفق بين يديها ، و الورق حولها وفوقها شفّاف الخضرة تتلوّى عروقه خيوطاً لدنة متشرِّجة الالتفافات ، يمرّ بها الماء فتهتزّ ، مُطاوِعة ومستسلمة ، من الأغصان المبتلّة العُقَد . وعلى الموجِ المضيء وجهُها ، بين ظلال تعريشة العناقيد والأوراق والأغصان المتعرجة ، حمريّ اللون ورخيماً ، يصعد إليه ويُنيره في السيولة ، من تحتْ ، إشعاعُ نورٍ متّقد في قلب الماء ، من شمعةٍ كبيرة ذُبالتها المشتعلة يهتّز بها الموج كأنها

أيقونة مخضلّة البشرة ، و فيها حياة أخرى ، وشعرها الذهبيّ مفكوك مسترسل منثور وملئ الخُصَل يحمله الماء فيصطدم بوجنتيها دون صوت ، وقد أخذ لونه ويدكن قليلاً من البلل ، ويميل إلى لون الكهرمان المحروق المشعّع بالنداوة ، والماء يذهب ويجيء ، في مُوَيْجاته الصغيرة ، بصفحةِ الوجه الساجي ، عيناها نجلاوان ، من غير تعبير ، ولكنهما تعرفانني ، وتنظران إليّ فقط . وكأنها تطل عليّ ، وجسمها فوق ، بعيد عني ، من عالم آخر ، فيه رقّة السماء المفقودة وحنانُ الهواء الملحيّ البعيد ، والماء الذي يحتضنى ويتفتح لهبوطي بلا انتهاء ، يذهب بها ، ويجيء . لم يكن الغوص إلى تحت قاسياً ولا خانقاً ، وكأنني لا أقاومه ، بل كأنني أقبلة وأُسلم إليه نفسي .

لم أمدّ إليها يدي ، ولم أنادها ، كنت أعرف فقط أنها هناك .

قال : أنتِ الشجرةِ التاسعة . أنتِ الريح على المياه العميقة . أنت أكَمةُ مورقة بالأشعار ومزهرة بورد البريار .

الكرمة السماوية لا يأكل من عناقيدها إلا المغبوطون .

أوّلُ من دُسْتِ على العنب بقدميكِ العاريتين لكي تعتصري نبيذه المُفْرِح للناس والآلهةِ معاً ، يشربون من عذوبته المزّة فيتكلمون سواءً بسواء .

أُوزير واقفٌ في هيكله ، مطويّ الذراعين ، مكفّن بالبياض ، والعناقيد تتدلّى في اتجاه وجهه المنحوت من الديوريت الأخضر ، قريبة جداً من فمه الظامئ.

قال : وعرفت أنه سيكون ما لابد أن يكون ، وأنني في الزمان الثاني سوف أُمنح أن أنهل من جنىَ العناقيد ، لأن العنب قد نضج .

سقطت حبات العنب من عيون الصقر حور ، ونَظَف الدمُ من العناقيد .

٩) رفرفة الحمام المشتعل

كان الطفل يجري إلى بيت أم توتو " الجريجية " في تقاطع شارعي البان والنرجس ، كأنه يلوذ بمكان مسحور .

لم يكن في حسّه ، تماماً ، معنى أنها " جريجية " .

كان الاختلاف حينئذ ، عنده ، من طبيعة الأشياء .

كان يشتري الفول من " التركي " بشاربه الأبيض الكبير المصفرّ قليلاً عند أطرافه من الدخان ، وكان عندما يدخل بيوت جيرانهم المسلمين يحسّ شيئاً من الرهبة ، وكان الكونستابل المالطي الذي ينطلق بالموتوسيكل في شارع الترامواي يوقف عربات الحنطور والكارو ويرسل الخيل والحمير المقرَّحة الجُنوب إلى الشفخانة ويشتم العربجية شتيمة بذيئة ويشخر لهم بالاسكندرانية الفصحى . وكان عمّ حسن التونسي بيّاع اللبن يسكن في حارة وراءهم ، وعنده في البيت ثلاث جواميس وحمار أبيض فاره ويلبس البُرنس المغربي السمني الناصع يلقي طرطوره وراء عنقه ، شعره الناعم أبيض ولحيته بيضاء كاللبن ، وكان زوج خالته عم مقار أسود لامع السواد وكان الصعايدة في الزرائب ، وفي وابور الطحين ، والفلاحون الذين يبيعون الخس والجرجير والليمون والكُرات على حميرهم ، لا يلبسون إلاّ قميصاً داكن الزرقة قصيراً مربوطاً بحبل على الوسط ، والصيّادون بلباسهم الاسكندراني الأسود المنفوخ والصدرية ذات الأزرار الكثيرة على الفانلة الطويلة الكمّين، يبيعون السمك في مقاطف من الخوص المجدول يحملونها على رؤوسهم المعمَّمة بطاقية صغيرة ملفوفة بالشاش الأبيض عدّة مرّات ، والأفندية

بالجاكتات الطويلة والبنطلونات الضيِّقة في آخر الرجلين ، وكانوا جميعاً يجعلون العالم مكاناً غنياً ومتقلّب الألوان ، مخيفاً إلى حدٍّ ما ، وجذّاباً أيضاً .

كان بيت أم توتو من دورين ، ولكنه عالٍ ، يحسّه دائماً مغلقاً على سرّه ، منيعاً ، متين الحجر ، نوافذه كبيرة خضراء ، وله سور صغير من الحديد المشغول يحيط بجنينة صغيرة مزروعة بعناية ، فيها شجر نبق ملتفّ الفروع وارف ، غليظ الخشب ، وشجرة موز واحدة ، قصيرة ، أوراقها عريضة ، غضرة ، سميكة ، ومشقّقة مشعّثة عند حوافها المصفرّة .

وكان أمام البيت دكان جزارة كله مبلّط بالقيشاني ، الجدران والأرض تلمع ، وأنصاف العجول والذبائح الأخرى مشقوقة ، مفتوحة البطون ، بأقفاصها العظميّة الداخلية الفاتحة الاحمرار ، معلّقة بخطاطيف أمام الباب تحت اليافطة الزجاجيّة السوداء المكتوب عليها بخط ثلث ذهبي فخم طويل الحروف ، وكان قد تعلّم القراءة وربط الحروف ، وقرأ : جزارة محمد محمود البهنساوي .

وكانت أمه هي الوحيدة من بين خالاته التي تزور أم توتو وتحبّها ، ويحسّ كأن بينهما نوعاً من الفهم ، ويتحدّثان معاً طويلاً ، بهمس ، بينما يذهب إلى غرفة توتو الصغيرة التي تكبره قليلاً في السنّ وفي الجسم ، ويناديها باسمها الأصلي كاترينا لأنه كان يحبّ مدرّسته مس كاترين ، فتضحك البنت ، وتعطيه ليأكل البرقوق المسكر المجفّف الذي يستطعمه بلذّة ، يستمرىء جسمه اللّين المتغضّن ، المحمّر الملتفّ على نواته الصلبة ، الغارق في عسله الداخلي الناشف .

كانت أمه تتركه أحياناً ، بعد ظهريات بأكملها ، عند أم توتو وتذهب لزيارة حبايبها أم فلة ، أو أم أليس ، ولا تعود إلاّ عندما يهبط الليل .

لماذا ذهبت أنا يومها إلى بيت أم توتو ؟

قالت لي ستيّ أماليا بصوت غضوب ومكبوح : رح انده خالك يونان من عند اللي تتقرّص في بطنها أم توتو الجريجية . قل له يجي لي عايزاه .

فتحت لي أم توتو الباب ، وأزاحت الستارة الكروشية المخرّمة التي تنسدل عليه مباشرة من جُوَّه ، أحسست خفّة جسم الستارة عليّ واهتزازها ، ونسيت غضبي من ستيّ عندما انحنت عليّ أم توتو ، بوجهها الأبيض الرفيع الدقيق الملامح وقبلّتني في فمي قبلة خفيفة ، بحركة ألفةٍ وحنان بسيط خالص كما تفعل دائماً ، كما لا تقبّلني أمّي أبداً ، وملأت صدري بعبق عطرها النافذ ورائحة جسمها النظيف والبودرة التي لم أكن أشمّ فوحها الخاصّ إلاّ عندها .

قلت لأم توتو : عايز خالي يونان في كلمة .

قالت لي ، حانية : عاوز تقول له إيه ياحبيبي ؟

وكان في نبرتها أهون إيحاءات لهجة الجريج . كانت بنت بلد تقريباً في كلامها ، ولكن برقّة خاصّة ، وأقلّ تخفيف للأصوات الحادّة .

قلت لها ، خجلاً : عايزه في كلمة سر .

فابتسمت بعذوبة ، وتسليم .

خرج خالي يونان من غرفةٍ داخلية أقفل بابها وراءه ، وجاء إلى الفسحة وهو بالقميص الحرير المخطّط بأقلام زرقاء رفيعة ، من غير ياقة ، والبنطلون الذي له حمّالات أستيك طويلة ، وفي يده جاكتته ، وكان فارع القامة ، خطواته هادئة بطيئة الوقع ، وسيم السمرة ، شامخ الوجه ، ومال برأسه قليلاً إلىّ يسمع ما عليَّ أن أقول ، وأجاب في غير تعجّل ولا سخرية ولا غضب : أوامرك يا سيدي . حاضر . عينيّ ، بس كده .. طب أقعد أنت هنا عند خالتك أم توتو .

وقال لها بصوت كأن فيـه شبهة ابتسـام : هـاتي لي الياقـة والكرافتـة مـن جوّه. أخطف رجلي أشوف عايزين إيه وأرجع حالاً .

ووضع الياقة المدوَّرة الصلبة البيضاء حول عنقـه ، وزرَّرهـا بدبّـوس صغـير لامع ، ولفّ الكرافتة .

وكنت أعرف أن ما بينهما شيء خفيّ أحبّه ويشوقني ويسحرني .

كـان واضحـا أنهـا أيضـاً تستعدّ للخـروج ، فأومـأت لـه ، وقـالت إنهـا ستنتظره على كل حال .

كانت في عزّ ازدهارها ، نحيلـة الوجـه ، رقيقـة الجسـم ، في عينيهـا دائمـاً نظرة مطارَدة ، متوسّلة وتوشك أن تكون مقهورة ، ولكنها جذّابـة ، نسـويّة جداً ، مطالِبة ، والحناءة حاجبيها عليهما غير واسعة ، وخطّهمـا ملـئ ونـاعم التقويـس وكـان شعرها الصغـير " ألا جارسـون " مفروقـاً علـى اليمـين ، عقصت خصلة منه على هيئة كعكة صغيرة على أذنها اليمنى ، كان لونه بنيـاً ذهبياً داكناً بحيويّة غضّة . شفتاها مرهفتان سريعتان إلى الارتعـاش ، وأنفهـا مستقيم طويل كـان بيـاض وجههـا مشـوباً بخمريـة صافيـة شـفّافة ، وكـان نهداها صغيرين مخروطين ، تحت فستانها الأحمر الغريـب الـذي لم أستطع أن أرفع عنه عيني .

كان النصف العلوي من فستانها من نسيج خفيف هفهاف ، واسع الفتحة عند أعلى الصدر وبينما كمّـاه الواسـعان يشـفّان عـن ذراعيهـا البيضـاوين ، لحمها البضّ قليل ومتماسك وممشـوق وقـد اكتسـب حمـرة خفيفـة مـن لـون النسيج الشّفاف ، كان الصدر من قماش حريريّ ، من اللون نفسه ولكنه

" ساتان " لامع غير شفّاف ، ينـزل كالحرملة على صدرهـا بنقـوش رقيقـة تنتهى هذه الحرملة فوق الركبتين بقليـل ، ليبـدأ تحتهـا النسـيج الشـفّاف مـرّة أخـرى ، مبطّنـاً بالقمـاش السـادة اللّمـاع حتـى متنصـف الرجلـين . وكـان

جوربها تحته حريرياً وسميكاً يستدير حول أسفل الساقين بضمّة متينة ، وحذاؤها من الشامواه الأحمر بثلاثة شرائط جلدية فوق أعلى القدم تنتهي بزراير صدفية مدوَّرة ، كعبه عال وكبير . وكان على صدرها العاري المنبسط سلسلة ذهبية رقيقة جداً تتدلّ بصليب مشغول .

كنت أفكّر أيامها أن توتو هي بنت خالي يونان ، كنت أتصوَّر أن أم توتو هي زوجته ، بشكل ما ، ولم أسأل .

ولّما عاد خالي يونان بعد قليل ، خرجا معاً ، وركبا السيارة المربّعة القوية التي كان يسوقها ، وعرفت فيما بعد أنهما ذهبا إلى المصوّراتي ، وأن كلاً منهما أخذ صورة لنفسه ، وحده ، وأنهما تبادلا الصورتين . ووقعت صورتها في يدي بعد ذلك بسنوات طويلة فاحتفظت بها .

وجدت نفسي وحدي في الفسحة الخالية المعتمة قليلاً ، التي كانت تفتح على المطبخ مباشرة .

ومرّة واحدة ، وكأنما على فجاءة ، فغمتني روائح دافئة شهية من حبال التين والزبيب المعلّقة من مسامير فوق نافذة المطبخ ، تجفّ في الشمس من وراء زجاج النافذة . وكانت برطمانات المربّى البيتيّة ، والفواكه المجفّفة المسكّرة ، على الرفوف ، غارقة في سوائلها الكثيفة داخل الزجاج البلّوري المضلّع الذي يمتصّ النور ويعكسه من جديد مشقّقاً ، متكسّراً ، وليس في المطبخ ذبابة واحدة .

هبّت نفحات غريبة باهتة الحلاوة ، كأنها لم تكن هناك من قبل من أزهار كبيرة بيضاء ، عروقها طرية وقوية تبتلّ في الماء الصافي الذي ثّبت كأنه جامد وشفّاف ، في " فازة " زرقاء رقيقة الزجاج ، بطنها الكبير المدوّر عليه رسوم تنانين حمراء وصفراء ذهبية ملتوية الذيول ، ألسنتها طويلة رفيعة مشقوقة نصفين منطلقة بقوة من أفواهها الجميلة المفتوحة ، ونفث رائحة المفرش

القديم الباهت الخضرة ، الدسم الملمس ، شراريبه المنقوشة الكثيرة متلاصقة تهتزّ حول رخامة المائدة المدوّرة ، وأرجل المائدة الخشبية لامعة ومشغولة وتنتهي بما يشبه أقدام الأسد ، مقوَّسة المخالب . وسحرتني مرّة أخرى ، كما تسحرني دائماً ، القوقعة . بيضاء هائلة الشكل رابضة تحت " الفازة" الكبيرة حلزونية وملتفّة بنعومة ، وفي آخر دوراتها المتراكبة التي تضيق بالتدريج ، طرف مدبّب طويل ، لبنيّ اللون والجلد الداخلي في القوقعة أملس محمرّ حولها شقيقاتها ، قواقع أصغر ، سطحها الخارجي بياضه محبَّب وأكثر خشونة .

جريت ، كأنني أفرّ ، أبحث عن توتو في غرفتها الصغيرة الضيِّقة التي لم يكن لها نافذة ، وحيطانها من الأرض للسقف مغطّاة بورق أصفر باهت وله لمعة معاً ، وفيه نقوش وزهور حمراء دقيقة جداً ، أوراقها محدّدة جداً ، خطوطها القاطعة المسنَّنة بلون أكثر حمرة من أجسام وريقات الزهور . وكانت توتو تلازم هذه الغرفة لا تكاد تبرحها . وجدتها تذاكر على مكتب صغير مسند إلى الحائط ، فوثبت وجلست على سريرها أنظر إليها وهي تكتب دروسها بالحروف اليونانية الغريبة على كرّاسة ورقها فيه مربّعات خطوطها طفيفة جداً . أصابعها الصغيرة البيضاء تلتفّ بعنق الريشة المسحوب، ورأيت على أطراف أناملها بقع حبر بنفسجيّ اللون.

كانت توتو ، على عكس أمها ، مدوّرة الوجه باستدارة كاملة وطازجة الخدّين ، عيناها واسعتان في خضرتهما نقط صفراء ثاقبة متوهّجة كإبر من النور ، وصموتاً جداً لا تتكلّم إلاّ نادراً ، ولم أرها تلعب أبداً .

قالت توتو : تعال نطلع عند تيته .

فأومأت برأسي ، ووثبت نازلاً من السرير واندفعنا نجري نسابق أحدنا الآخر على السلالم الحمراء الرخاميّة الباهرة النظافة ، إلى الدور الثاني .

وما إن فتحت جدّتها الباب حتى انقلبت الدنيا ، أمسكت بيد توتو بشدّة ، بينما تواثبت حولنا القطط ، لا عداد لها ، سمينة وجافّة القدّ ، سوداء حالكة وخضراء رقطاء ، صغيرة واهنة زاحفة ، وشاحبة البياض ، تموء وتصيء ، وقوية متواثبة تزمجر وتفح ، مقشعرة ، وصفرتها حريرية ناصعة ، تقرقر وتهر مربربة زاكية تزوم ، وعيونها تتقد ، وتركب بعضها بعضاً ، وكأنها ، كلها، ستهاجمنا بضراوة . والجدّة القليلة الجسم ، ملفوفة بـ " روب " حريرى قديم سابغ عليها تصوصو بصوت رفيع حادّ ، آمر وحنون في الوقت نفسه ، ممطوط وأغن ولا أفهمه ، حتى تفيء القطط إلى هدوء نسبي ، وتأوي إلى أماكنها المختلفة في شتى أرجاء البيت . وتظلّ توتو تتحدَّث إلى جدّتها باليونانية ، بينما رائحة القطط الحيوانية التي تملأ البيت تفغمني و كأنني أستطعم على لسانى كثافتها وخصوبتها . ثم ذهبت تيته ، تتدأدأ في مشيتها بخطواتها الصغيرة ، وجاءت ببلح مقشور مصفّى من النوى غارق في عسله ومحشوّ بالجوز وبالبندق ، وأعطت أصابعها الرقيقة الشفّافة ، عليها عسل مربىّ البلح ،إلى قطّة صغيرة جداً أخذت تلحسها بنهم وإصرار وهي تصيء.

عندما فتحت توتو باب شقتهم كان الظلام يوشك أن يهبط ، والفسحة غامضة وكثيفة بروائحها العبقة الراكدة . أوقدت توتو مصباح الجاز الكبير الأبيض البطن ، بعود كبريت جاءت به من المطبخ ، في العتمة ، وأنا مسمّر جنب الباب ، واجف القلب . شدَّت توتو دلاية كالكمثرى في نهاية سلسلة نحاسية مربوطة بالمصباح ، ورفعت زجاجته الشفّافة بحرص ، وأشعلت الفتيلة بينما هي تمسك بالدلاية طوال الوقت . ردَّت الزجاجة إلى مكانها ، ثم تركت الدلاية فجأة فارتفع المصباح من تلقائه ، وفرَّت السلسلة النحاسية منسابة من خلال حلقة مثبتة في السقف ولها صوت متتابع . سطع النور في الفسحة ، وظهرت نقوش الملائكة والطيور المرفرفة المخرّمة في الستائر

الكروشيه المسدلة على النوافذ وعلى الباب ، و" الفوتيات " القطيفة الخضراء المتموّجة اللمعة . قفزت إلى " فوتي " كبير منها فغاص بي ، وهو يقاومني قليلاً بتنجيده الطيّع والقويّ .

جاءت توتو ، دون تردّد ، وجلست معي في " الفوتيي" العريض . وأحسست جسمها يلتصق بي . استدارت إليّ ، ونظرت إليّ طويلاً وقلت لنفسي إنها عزيزة عليّ جداً وفجأة عانقتني . أحسست ذراعيها العاريتين ، رفيعتين وقصيرتين ، حول عنقي ، تحبسان وجهي ، وأحست صدرها الطفل يهتزّ . وضعت رأسها خلف وجهي ملتصقاً به ، وأحسستها تبكي ، بصمت وإصرار ، كأنها لن تفرغ أبداً ، وترفرف بين ذراعيّ . كنت أحيط خصرها، وكأننى ألجأ إليها ، منها ، لا أقول شيئاً وكأنني أقول إن بكاءها يهدّ العالم عليّ .حتى سكتت فجأة ، واستراحت . عرفت ، بعد ذلك بثلاث أربع سنين، عندما تزوج خالي يونان فعلاً ، أن أم توتو كانت قد تزوّجت ، من زمان بالجزّار الذي كنت أرى محلّه أمام بيتها ، وأراه يقف في المحل المبلّط كله بالقيشاني ، ساعداه المفتولان قد شمّر عنهما ، قوياً ، وصدره صخريّ تنفتح عنه تقويره الصديري اللامع الكثير الأزرار المحبوك يبدو من الشق الطويل في أعلى جلابيته الواسعة التي جفّت عليها نقط الدم المتناثرة ، أنه طلّقها بعد أن خلّفت كاترينا التي كنا نقول لها توتو . وسمعت خالتي وديدة تحكي لامرأة لم أكن أعرفها ، وهي لا تعرف أنني على مسمع ، أن الجريجية المقروصة أم توتو كانت لايفة على أخويا يونان ، كانت عايزه تلهفه ياختي ، وكانت حاتجيبه على ملا وشه لكن برضو هو كل الطير اللي يتاكل لحمة ؟ أخويا يونان ملو هدومه ، ما يضّحكش عليه بالساهل . أهو رماها زي الكلبة، واتجوّز إستر . وغضبت جداً في قلبي لأنني لم أصدّق أن أم توتو كانت تضحك على خالي يونان وكنت أعرف أنها تحبّه ، كما تحبّني .

وعندما كنا في كيلوباترا ، وكنت قد تخرَّجت من الهندسة ، وذهبت إلى معتقلات أبو قير وهاكستب والطور وخرجت منها ، وكنت أشتغل مهندس ترميم في المتحف اليوناني الروماني بمرتب قدره اثنا عشر جنيهاً أعول بها نفسي وأمي وأخواتي الأربع ولم أكن أقرأ الصحف . وبينما كنت في المتحف ، مهموماً بالشغل ذات يوم سمعت إشاعة أن الجيش في القاهرة قام بحركة ضد الملك ، وأن الدبابات في الكورنيش ، ولم أهتمّ يومها كثيراً بأخطر حَدَثٍ في تاريخنا لفترة طويلة ، ولكنني عندما طرد الملك من اسكندرية نزلت في الشوارع مع صاحبي عبد القادر نصر الله وشربنا العرقسوس الذي كان يوزِّعه البائع عند كوم الدكة مجاناً ، وابتهاجاً وتيّمناً بالخلاص . و كنت أحبّ أيامها حبّاً لا أعرف كيف الخلاص منه ولا كيف الخلوص إليه . وفي آخر المساء عدت إلى بيتنا وكلّي قلق وفرح وتوفّز ، وطرق باب شقتنا ، ودخلت امرأة جميلة ممتلئة مدوّرة الجسم ، بيضاء غزيرة الشعر ، في فستان فقير الشكل تحمل على ذراعها طفلة في الثانية ، وراعتني عيناها الخضراوان كأنهما وحشيتان من ضغط القهر ، كحيوان . ولم أعرفها، وسلّمت عليّ بيد أحسستها مليئة مرتخية كأنها لا تعرفني ، وعندما جاءت أمي إلى الباب رحّبت بها وأخذتها في حضنها وقالت لها : أهلاً يا توتو يا بنتي أهلاً بيكِ ، اتفضّلي ، إزيك ياضنايا ، إزيك يا ريحة الحبايب . تدهور قلبي وامتلأ وجهي بالدم . وجلست المرأة الغريبة ، مهدودة ومستكينة ، وعرفت أنها تزوَّجت من عامل في " الفابريكة " اسمه حسن ، وأنه كان حشّاشاً ومتلافاً وأنه طلّقها بعد أن خلّفت ابنتها وأن اسم ابنتها فتحية وأن أمها ماتت من زمان طويل وأنها تشتغل الآن بيّاعة في هانو وليس لها أحد في الدنيا وكنت جريحاً ، وأدركت ، متأخّرا جداً ، ومن غير جدوى ، مدى

قسوة بكاء الطفلة التي كانت ، على كتفي ، وأن هذه الطفلة لم تندثر ولن يجفّ بكاؤها أبداً .

تزّوج خالي يونان وجاءت امرأة خالي إستر إلى بيتنا الذي رأيت شرفته مّرة تسقط في ليل الحلم مليئة بالناس لا صوت لهم ، أمام مدرسة البنات الداخلية، وإلى جانبها وابور الطحين .

كانت البنات ينمن في الدور الثالث من المدرسة ، أعلى من بيتنا . كانت أنوار المدرسة تطفأ في تمام الساعة التاسعة بالليل ، وتصمت الأصوات القليلة المضطربة بعد ذلك ، وأصداء ضحكات البنات ، ويحلّ الظلام في المدرسة ، وأرى في نور الغاز المتشعّع من عمود الشارع ، تكعيبة العنب في حديقة المدرسة ، أخشابها واضحة معرّقة وسط دغلات أوراقها الكثيفة ، وطبقة تراب خفيفة في النور ، على أغصان شجر التوت والنبق الوارفة وكنت أرى البنات أحياناً ، في أول الصبح ، عندما أرفع بصري من شرفة بيتنا ، وهن يخطفن أمام النوافذ المفتوحة ، في قمصان نومهن الخفيفة الملوّنة ، وشعرهن مبلول ومفكوك ، ثم يختفين .

كانت امرأة خالي عروساً جديدة ، ولم تخلّف بعد ، وافرة الجسم ، تضحك كثيراً ودافئة الصوت ، وكلها معابثة وشيطنة وجرأة حسّية بالكلام والإشارات والنظرات ، وجهها كامل الاستدارة وخمريّ جداً ، عيناها مليئتان، وحاجباها رفيعان جداً كقوسين ، على جفنين متخمّرين قليلاً وكنت أهرب إليها إذا ضربتني أمي ، فتحضنني وتلاعبني وتمسح دموعي في ذيل فستانها وتقول لأمي : هو الملاك ده برضو له ضرب ياختي ! وفي مرّة نسيت أن أقفل باب الحّمام ورائي ، وانفتح الباب فجأة عندما استدرت مفزوعاً رأيتها على الباب تسدل فستانها على فخذيها المكتنزتين السمراوين بدون اهتمام ، وضحكت بصوت عال وهي تصفّق بيديها وعيناها مرحتان

لامعتان : هيه .. وشفت الحمامـة .. ! وبعـد أن كـدت أمـوت مـن الخجـل ضحكت أنا أيضاً وكان ذلك بدون أهمية ولكنه كان سرّاً بيننا .

كان خالي يونان قد حصل على رخصة دولية وسافر إلى انجلترا مع خـالي ناثان يجرّبان حظّهما ، وكـان يشتغل هنـاك سـائق لـوري بـالليل ، والتحـق بمدرسة نقابية بعد الظهر ، وعاد واشترى سيارة أجرة مربّعة الشـكل يسـوقها ويكسب ذهباً وكان فخوراً بعمله ، وانتخـب رئيسـاً لنقابـة سـوّاقي الملاكـي والتاكسي والأوتوبيس ، وكان وفدياً عندئذ ثم أصبح صديقاً للـبرنس عبـاس حليم وعمل معه ، وكان البرنس شخصياً يزوره في النقابـة ويخـرج معـه ، في التاكسي ، وهو يجلس بجانبه ، وكان عندئذ قد رافق أم توتـو ، ثـم تركهـا ، وكان أنيقاً وله مهابة في البيت ، ويجيد الكلام ويعرف اللغة الانجليزية وسـافر مرّة إلى جنيف ليحضر مؤتمراً عمّاليـاً دوليـاً . وسمعـت جـدّي ساويرس مـرّة يقول إن ابنه يونان " خطيب يخلب لبّ السامعين " بينما تاثان قصـير ومكـير وخبّاص ولكـن قلبـه كـالحليب ، أمـا سـوريال أصغـر أخـوالي فقـال عنهإنـه حشّاش ولكنه ابن حلال وابن صنعة ويده تصوغ الذهب من الخشب .

كنا في أول الصيف ، وكانت الشهادة قد جاءت بالبريد أنـني انتقلـت إلى السنة الثانية في مدرسة النيل الابتدائية ، وفي الصبح رأيـت البنـات وأمهـاتهن وآباءهن يتزاحمن حول قوائم الناجحات التي علّقت على لوحات كبيرة داخل باب المدرسة الحديدي ، أمام تكعيبة العنب ، وكان الفرّاشون يحومـون حـول البنات وآبائهن يتهافتون عليهم بالتـبريك والدعـوات ويلتقطـون الأرزاق الـتي تدسّ في أيديهم ، ثم انحسر الاضطراب ، وصعدت البنـات إلى الـدور الثـالث استعداداً للإجازة الصيفية وكنت أرى النوافذ مفتوحة على السراير وقمصـان البنات البيضاء مفتوحة قليلاً على صدورهن من الحرّ .

وفي العصر كـان الهواء قد ضعفت حرارته ، والنور في الشارع ناعماً والشمس صفراء ، وكان السحاب الأبيض الجامح في السماء بطانته تحمرّ قليلاً وهي تنزلق وتتقلّب بسرعة في زرقة الصحو الصافية . وكنت أقف وحدي في شرفة بيتنا ، أحلم بغموض ، وأنظر إلى الكركون على جنب بعيداً وراء دوران الترام ، والحجر في حيطانه أسود ومضلّع وكثيف ، وأمامه الشجر الذي تهتزّ أغصانه الثقيلة والحمام الذي كان يهدل ويشقشق بشدوه المكتوم الرتيب طول الظهر من الحرّ ، وقد صمت أخيراً . وكان الشارع خالياً ، نظيفاً ، أرضه باهتة السواد ، والعالم كله هادئ تماماً.

التفتّ فجأة إلى مدرسة البنات ، أمامي ، فرأيتها وهي تلقي بنفسها من النافذة في نورآخر النهار . كان جسمها خفيفاً يتقلّب في الهواء كأنها تطير وهي تسقط ، جونلتها الزرقاء الداكنة تنحسر عن رجلين تضطربان وتصطدمان كأنهما بلا وزن ، وكانت صامتة .

سمعت خبطة الجسم في تكعيبة العنب صدمة جافّة ، ولها فرقعة مكتومة ، وخشخشة الورق ، والاحتكاك الصلب ، بينما الجسم يثب إلى أعلى وثبة صغيرة من رَجْع الصدمة ، ثم ينقلب ويسقط على بلاط الممرّ بصوت ارتطام مسدود ، نهائي ، كومة مهتدلة ، ذراعاها ملتويتان تحت رأسها ، كأنها بلا عظام .

فزع الحمام الذي كان يأوى إلى وكناته الخفّية وسط الشجر وطار يرفرف بأجنحته الطويلة التي مسّتها حمرة الغروب فاشتعلت ، في السماء .

وسمعت على الفور صوت القيء ، تشنّجات متقبّضة ثم انفجار متحشرج والجسم يهتزّ على الأرض ، الرأس الملتصق بالبلاط يندفع منه سائل لزج ثقيل محمرّ الرغوة .

ثم الصمت .

لحظة واحدة من الصمت الكامل ، التامّ .

هل كانت صرختي القصيرة ، لم أسمعها ، هي التي أتت بخالتي سارة وخالتي وديدة وامرأة خالي إستر ، كلهنّ ، يجرين إليّ ، أم صرخات البنات التي ارتفعت ، مروّعة ، ونداءات المشرفة والفرّاشين الذين أخذوا يخرجون متلاحقين من باب المدرسة الداخلي ؟

كانت على الباب لمّة صغيرة من الناس ، جاءت عربة الإسعاف بجرسها المجلجل ، ودخل المتطوّعان ، بالكاب الأحمر والحلّة الصفراء ، وحملاها على نقّالة وأدخلاها في جوف السيارة التي انطلقت ودقّات الجرس السريعة تصلصل بإلحاح .

لم أترك الشرفة ، ولم أتعشّ ، أين كانت أمي ، وخالتي وديدة وستّي أماليا؟

عندما تقدّم الليل كانت قريباتي كلهن جالسات على حصيرة في الشرفة ، وكنت ملتصقاً بحديد سورها ، وكان قلبي موحشاً وعيناي مغلقتين .

نادتني امرأة خالي إستر ، من بينهن جميعاً ، كان شعرها في الليل عارياً وقصيراً وغامض السواد ، ووجهها المدوّر الأسيل السمرة صافياً في نور الليل الصافي ، وكانت عيناها النجلاوان منتفختين قليلاً ، وتومضان .

وقالت لي فجأة ، بلهفة : يا ضنايا .. مالك ؟ تعال .. تعال نم على حجري هنا .

وضعت رأسي بين فخذيها الطريتين الممتلئتين ، وكانت ناعمة تحت وجهي، ودافئة ، ونفح جسمها الأنثوي حميماً ، ونزلت بيدها الرخصة فضغطت على وجهي ، بحنّو ورفق ، على حجرها . ونمت .

في آخر أيامه الستة ، في غسق القاهرة الفاطمية ، وفي غسق العشق الأخير قال لها : عندئذ ، كان هذا الطفل ، في السابعة من عمره ، قد عرفك ، ونـام في حنّو جسدك .

قالت له : كانت طفولتك مدلّلة .

قال : كان الموت فيها كثيراً .

واحدة حمامتي ، كاملة ، مشتعلة بين العناقيد والحسـك ، طالعة أبـداً مـن ساحة قلبي كعمود دخان معطّر بالمرّ واللبان ، لا تهبّ زعـازع الزمـن الهُـوج بنشرها العَبِق ، نارها سوداء ومتّقدة ، لا تنطفىء .

الزَبِـد علـى أصـابعك السـمراء المكتنـزة نـاصع كرغـوة البحـر في موجتـه التاسعة والأخيرة .

ومازال شعرك الوحْف الوحِيُّ السواد غدائره تتنـزى ثم تثوي تحـت يـديّ اللتين تُمَسِّدان جعودته وتُروِّضان رعونة حَرَشته .

رأس الميم المكسور المدوّر على ذاته فُلْك مغلـق يمخـر المـوج بـلا مَرْسـى ، وكأن الأرض تتشقّق غداً وتمور تحت طوفان البحر الغضُوب .

ملائكة الجحيم تحوم بي وهزيم المَلأَ الأسمى في سمـاء طاميـة يزمـزم بحَدَمـة الغُلمة وجمجمة الرمضاء . أوام حَوَماني له طعم الرُّغام في فمي . اليمّ الخضـمّ يموج بدوامات من غُرام حمّياي إلى حَرَمِك . ميمي ممدودة إليك بجسم منهمر ونعمتي فيك موصولة بالميمينْ . رمالُ مهامـه المضَـض ترتمـض جمـراً وحممـاً ، وبي لَمَمٌ من غمرات التيّم التي تتمعَّجُ في مكامني .

ها أنت تُميطين لي الغيام عن مَيْعـة جسـمك وترمقينـني ، وامقـة ، بسـهام نجمتيك . الخمر المُزّة إذ تُلاثمينني مُضمَّخَة بمَتَـاع ملكـوت النعمـة المحـض .في قوامـك الشـامخ الأُملـود عِصمـتي ومَنَعـتي . وإذا جلاميـدُ مَخْمصـتي رسـومُ طامسـة ، وحطـامُ الشـموس تهمـي ، وجهومـة أيـامي المُهدَّمـة في العتمـة

المُلْهِمة قد مضت . المسوخُ الكظيمة الماثلة دوماً قد مالت ثم انحطمت فإذا هي هشيم . والأمشاج المُمَزَّعة قد التأمت بمعجزتك يا رؤوم . مهاد لحمك الهضيم تميس في نسائم الرحمة . وقمر مُحَيَّاك كاملٌ ليس فيه ثلمة .

جماحي إليك شِماسي مستميتُ مقتحمُ في معمعات المحبّة . ومُهجتي مِزَعٌ ممزَّقة بين أناملك . أمسُّ حَلَمة أكمتيك الدَمِثة وينهمل مطر الديِمة على رُمَّانتيك أتسنَّم عُمدان آجامك من المرمر الرخيم ، والرُمح يميد في دِمنتك .

تعازيم هيامي مُسداة إليك ، حتى شموع موتي .

ياحمامتي المضطرمة ..

ألم تصغي لمتيَّم يخُبّك لحمُه ودمُه ؟

ألا ترين رفرفة الملاك الأسود الذي يراه ؟

في عَمَاية الموات الدامسة انزاح الحجر عن فم القبر وصعدتُ إلى السماء العُلَى .

ذهبت مع أبي ، بعدها إلى شغلة في مغازة الشيخ شاهين المراغي ، في شارع أنسطاسي . أراد أن يحتفل بي ، فأخذني إلى المصوّراتى الذي كان في شارع السبع بنات .

كانت " المغازة " مخزناً ومحلاً ومكتباً لبيع وشراء البيض والبصل والسمن البلدي ، وتوريدها للخواجات والمصدِّرين أو لتجّار الجملة من أولاد البلد وكنت أعرف أن تجارة أبي قد كسدت ، وأنه باعها للشيخ شاهين المراغي ودخل معه شريكاً بالعمل بثلث الأرباح ، وكنت أتصوَّر أنهم في آخر كل شهر يجمعون النقود الفضّة والمعدن ريالات وأنصاف ريالات وأنصاف فرنكات وقروش وملاليم ، ويقسمونها ثلاثة أقسام يأخذ أبي واحداً منها ، وأحسّ في ذلك ظلماً غير مفهوم .

كانت المغازة فسيحة ومعتمة ورطبة وأرضها من الإسفلت الأسود وفيها أعمدة حجرية عالية ، ورأيت فيها ناساً غامضين صامتين ، بملابس الشَّيالين الزرقاء وعممهم وطواقيهم ، جالسين على خيش مفروش على الأرض ، أذرعهم مرميّة على ركبهم بتعب ، بين أكوام مرصوصة من شوالات البصل لها عبق نفّاذ مهاجم ، و أقفاص البيض الأبيض يلمع وسط القش الذي تخرج أعواده الرفيعة كشوكٍ هشٍ من بين القضبان الخشبية وتذكّرني برائحة الفراخ. و في آخر المغازة ، في الظلام ، تومض صفائح السمن بعضها فوق بعض ، شكلها ثقيل وثابت .

سلّم عليَّ الشيخ شاهين ، كان له وجه مدوَّر غنيّ داكن السمرة ، وابتسم لي فغارت عيناه الصغيرتان اللامعتان مدفونتين إلى أعمق في دسم ملامحه ، وكانت على رأسه عمامة يلتفّ حولها شاش ناصع البياض حريريّ الشكل له شراشيب رفيعة وراء أذنه ، و سلّم عليّ أيضاً ابنه الشاب الذي نظر إليّ بلا مبالاة ، وكان يلبس بدلة صوف انجليزي مربّعات ، وكرافتة رفيعة جداً محزوقة بإحكام في الياقة البيضاء المنشّاة ، وعلى رأسة قبعة رمادية كالخواجات ، يلفّها شريط حريريّ رماديّ أيضاً . وقال لي الشيخ شاهين ، ما شاء الله ربنا يطرح فيك البركة يابني ، وتاخذ الشهادة ، ونبعتك بلاد الانجليز تكمل علامك زيّ أحمد أفندي ابني كده .. ومرَّت في ذهني صور غامضة لبلاد باردة ينزل فيها الثلج كالمطر وفيها عساكر كثيرون على موتوسيكلات ونساؤها مثل أم توتو ، ثيابهن قصيرة وشفّافة وأجسامهن رقيقة ناعمة ، ولكني مع ذلك لم أصفح في قلبي عن الشيخ شاهين ولا عن ابنه .

و لم يكن الشيخ شاهين يعرف القراء ة ولا الكتابة ، وكان هذا يحّيرنى جداً وكان أبي هو الذي يكتب ويحسب ، وكنت فخوراً به ، وكان مكتب أبي

كبيراً ، بجانب باب المغازة وعليه دفاتر الحسابات مرصوصة ومفتوحة ومجلّدة بالأسود وفيها خطوط مموّجة بالازرق والأحمر على حواف الورق السميك وهي مقفلة ، وسحرتني مكنة نسخ الخطابات والفواتير المكتوبة بالبالوظة البنفسجي ، حديدها الغليظ المتين له يد تدار على قائم حلزوني الحلقات ، فتنزل الحديدة العلوية المسطّحة على الورق الشفّاف المبلول بللاً خفيفاً ، فوق ورق نشّاف فاتح الحمرة ، حتى تنطبق انطباقاً محكماً على قاعدة المكنة الصلبة الراسخة ، وعندما ترتفع الحديدة العلوية تظهر الصورة مقلوبة على الورق الخفيف المبلول .

تسلّلت ودخلت مكتب الشيخ شاهين ، وكان نظيفاً جداً وخالياً وفيه رائحة تراب وهواء محبوس وله مهابة ، وكان النصف العلويّ من بابه زجاجياً محبباً مبيضاً وعليه اسم الشيخ شاهين أحمد المراغي ، وتحته اسم أبي ، وتحتهما تجّار البيض و البصل و السمن البلدي بالجملة والقطاعي ، كلها بالخط الثلث حروفه قائمة بكبرياء وشموخ ، بالأسود والذهب ، أقرؤها من الداخل مقلوبة على الزجاج المبيض ، ونقلت اسم أبي على ورق أبيض ، مرّة معدولاً ومرّة مقلوباً ، وأحسست تحت يدي لدونَة الجوخة الخضراء على المكتب ، مسمّرة بمسامير صفراء غليظة على إطار خشبيّ لامع مموّج وداكن يدور بأطراف المكتب الأربعة ، وعندما خرجنا أخذت معي ظرفاً كبيراً فيه مجموعة من الفواتير والخطابات البيضاء عليها اسم أبي ، واستخدمتها بعد ذلك في كتابة الشعر ، أيام الحرب .

في محل المصوّراتي دخلنا إلى الغرفة الداخلية الفسيحة المعتمة ، وأضاء الرجل مصابيح كهربائية قوية كثيرة من عدة زوايا ، وكان الهدوء ثقيلاً ، ووقف أبي ، بيده عصا الأبنوس ذات المقبض العاجيّ ، وفمه مزموم ونظرته متأمّلة وعميقة وصافية جداً ، ورفعني المصّوراتي وأجلسني على مائدة عالية

صغيرة بجانب أبي . وكنت ألبس قميصي الحرير الأبيض الواسع الياقة والبنطلون القطيفة الأسود الذي له حمّالات فيها زراير بيضاء كبيرة ، وحذائي الأبيض الجديد الذي له نعل مطّاطي رمادي يغوص قليلاً تحت قدميّ عندما أمشي ، وجوربي الأسود المرفوع مضموم على ساقي وحده ليس فيه أستيك، ووضعت يداً على يد ، و كان شعري ناعماً ومفروقاً ، وقال لي المصّوراتي أن أنظر في عين الكاميرا الكبيرة المعدنيّة المحدّبة التي كانت تومض في الأنوار القوية ، و كنت مستقراً في فراغ الهواء العالي وآمناً ، وأحسست نفسي بعيداً جداً عن الأرض و لم أكن أخشى السقوط و لم أكن أخاف من الموت وكنت أرى رفرفة البنت التي تسقط ، و هي تطير ، ولا تصل أبداً إلى تكعيبة العنب الكثّة الشرسة تحتها . وكان المصوّراتي يلبس حاكيتة قماش سوداء خفيفة على قميص ، ولها كم منفوخ مضموم على أعلى ذراعه بحلقة استيك سميكة ، وأدخل رأسه تحت القماشة السوداء التي انسدلت خلف الكاميرا ، ووقف بين القوائم الحديدية المثلثة ، وسمعناه من تحت خيمته الداكنة يقول لنا بصوت مكتوم : كويس .. كويس .. بصّوا لي هنا في عين المكنة على اليمين شوية .. كويس كده ، واحد اتنين خليكوا كده من غير حركة .. وخرج بسرعة ، وأزاح غطاء مدوراً من على فتحة العدسة ثم أعاده بصوت صفقةٍ نهائية ، وقال : مبروك .

ولما عدنا بالترام في أول الليل ، كان الميدان الصغير في آخر شارع راغب باشا خالياً ، وكان الدخاخني ، بمنصته الرخامية الرمادية الطويلة الخارجية في الشارع ، مغلقاً ، ولكن السينما ، التي بُنيت في عنبر صفيح عريض مثلث السقف وبوابتها شبكة حديدية جرارة ، كانت منيرة بعقد طويل من المصابيح الكهربائية مدلى على الباب ، ويضيء إعلاناً ملوناً فيه حصان أحمر يجري عليه راعي بقر قبعته عريضة مستديرة زرقاء ، باهتة على وجهه الناصع الزرقة ،

ويرفع سوطاً طويلاً في الهواء ، وكنت أتأمل الإعلانات الملونة المصورة على هذه السينما في طريقي للمدرسة كل صباح ، و أقرأ عناوين الأفلام وأسماء الأبطال ، وأتخيّل أحداث الروايات طويلاً ، وما يدور فيها وأحلم كثيراً بأن أدخل هذه السينما . و لم أدخلها أبداً .

رأيت أنني أسير إلى كوم الدكة ، وفي الطريق ذهبت إلى الجنينة الواسعة التي تقع على المحمودية والتي كنت أشتري منها ، الآن وأنا صغيرة ، الخسّ والجرجير والبصل الأخضر والكرات والملوخية والكرفس والبقدونس والخبيزي والفجل والسلق للقلقاس ، وفي كل مرة أسير إليها متمهلاً ، متأملاً أمرّ بسياج خشبي عالٍ فية ثغرات طويلة من الخشب ، أضع عليها عيني ولا أكاد أرى وراء أسرار هذا المبنى الغامض البعيد الشاحب البياض ، وله أعمدة مدوّرة وشبابيك طويلة ، و لا أكاد أرى حديقته الواسعه ، معتمة بأشجار وارفة أثيثة الأغصان متشابكة وكأنها وحشية . وأقول لنفسي كم من الأسرار وراء كَمْ من الأسوار حدستها و لم أعرفها أبداً وشد ما أحِنّ إلى معرفتها ، موقناً أنني لن أعرفها أبداً وأن الشوق سيظل مع ذلك أبداً في روحي ، برعماً خاماً مزدحماً بعصارتة الكثيفة وجائعاً إلى التفتق والازدهار .

ودخلت جنينة الخضار من باب خشبي مفتوح دائماً مخلوع المفصلات ، وأحسست بالأرض كاملة ترف بأنواع الخضرة منها القصير اليانعة والفارعة الطول ، والداكنة الملتفة ، والرقيقة المتكاثفة والمرهفة السنان كأنها شفافة ، أمُرّ على مدق ترابي ضيق من تحت تعريشة العنب المورقة القائمة على أعمدة من خشب التفّت بها أغصان الكروم الملتوية ذات العُقَد الخشنة وأسمع الحمام يزقو ويهدل بترجيع رتيب الإيقاع ، مختبئاً في الشجر الكثيف الداكن الورق لا ينتهي إيقاع ترتيله وليس لشجوه انقضاء ، وأنفذ من جانب البقرة التي تدور بالساقية في وسط الجنينة ، ببطء وإصرار ، مغماة العينين ، تجترّ وينزل

اللعاب من خطمها في خيوط فضية طويلة ، وأسير على المسقى الطويل التي يتسلسل فيها الماء من الساقية على القاع الرملي الطيني الصلب الفاتح اللون ، ويترقرق ، وتضوء الشمس على مويجاته المنسربة بخرير موسيقي تفتح أبواب القلب في الهواء الطلق النقيّ العبق برائحة الخضر وروث البقر والسباخ البلديّ والنعناع والريحان معاً .

خرج إليّ الفلاح القصير المدكوك الجسم من خُصّة الطيني الضّيق كأنه يطلع من تحت الأرض . وجهه مجدور وعميق الغضون ومحروق ويده قصيرة الأصابع خشنة ، حَشّ لي الخضار بمنجل صغير مقوّس وحادّ السنّ ، وأحسست مدى رهافة حركته ورقتها وحنوّها وكفاءتها في وقت معاً ، وأحسست أن في جسم هذا الرجل جدّي ساويرس وأبي وأولاد عمتي بقطر ورفلة ، وأخوالي الثلاثة يونان وناثان وسوريال ، وأن نظرتهم جميعاً معاً ، في عينيه الغائرتين الثاقبتين ، وأنني لا أنفصل عنه ولا عنهم ، وأن في يديه تربة قلبي الملوثة الغمقة المعجونة بالطين لا تجفّ أبداً ، وأن هذه الجنينة هي بستان ألف ليلة وليلة المسحور الذي طالما التقى فيه المحُبّون خفية ، وعرفوا -كما عرفت - من فنون العشق ما لم يعرفه من قبل بشر .

ورأيت أنني صعدت إلى أعلى تلّة كوم الدكة القديمة ، و قد حلا عنها الجنود الإنجليز سراً في الليل . ولأول مرة منذ وعيت لم يكن اليونيون جاك يرفرف على ذروة التلة ، وكنت أعرف مع ذلك بغموض أن كوم الدكة القديم قد أزيل وحلّت محلّه ساحة مسفلتة ومبانٍ حكومية ، وأننا كنا ننطلق في جماهيرنا الغفيرة ، منذ الصباح الباكر ، نرتفعً على طرقات كوم الدكة الخالية التي كانت محرمة علينا وقد أصبحت في هذا الصبح حلالاً ، جماعات جماعات ، أصوات هتافاتنا مبحوحة في الهواء النقيّ : الجلاء الجلاء يسقط الاستعمار يسقط الاستغلال . وكانت عنابر الجنود الإنجليز خاوية على

عروشها ، و لم يتحرك الجيش المرابط لاحتلالها بعد ، ودخلناها ورنّت أصداء أحذيتنا في فراغ حيطانها ، وكان بلاط أرضها متربا قليلاً وعليه قصاصات ورق ممزق وبقايا القشّ ، وكان اليوم عيد ، وجماعات المتظاهرين كأنهم يرقصون رقصات جماعية ، يشوّرون و يهتفون وينشدون من الفرح .

وكانت الأشجار المشذّبة على جانبي الممرات الترابية كأنها رؤوس من الأغصان كثيفة جعدة منذرة ومهددة وشرسة ، وعندما طوّفنا بكل أنحاء القلعة المهجورة الموحشة ، ونزلنا ، وجدنا جنود بلوك النظام صفوفاً متراصّة تحت سفح كوم الدكة ، وفي أيديهم دورعهم الخشبية الخضراء القائمة ، على رؤوسهم خوذات حديدية صدئة ، ركبهم مدوّرة سوداء بارزة تحت "الشورتات الكاكي" الطويلة ، وشرائط " الألشين " تلتف بسيقانهم النحيلة حتى تغيب تحت الأحذية الميري الضخمة المتربة بجلدها الخشن المقبب، وانتظمت الجموع بقيادة صديقي عبد القادر نصر الله الذي كان مازال في كلية الطب بينما قد تخرجت سنتها من كلية الهندسة ، وكان قد انضم إلى جماعتنا الثورية الصغيرة . ورأيت على جانبي شارع النبي دانيال جثث الأطفال المرمية هامدة ، حمراء لها قشرة لامعة ، كأنها " جنبري " مسلوق ضخم ، أيديها وأرجلها ثلاثية الأصابع مبتورة ومتورمة ومدورة وحول رؤوسها غلاف صدفّي شفاف تحدّق من وراء زجاجة عيونها المفتوحة المتهمة. وكانت المظاهرة تشق طريقها ، مع ذلك ، بحرص ، بين صفّي الجثث الطفلّية تحاذر أن تمسّها وعندما وصلنا إلى واجهة كأنها بوابة فندق منيف ، ناطحة سحاب ، ألواحها زجاجية مدخنة ، شاسعة ، تقطعها أعمدة الألمونيوم المصقولة ، هجم جنود بلوك النظام فجأة دون إنذار ، وسمعنا في الوقت نفسه قرقعات الرصاص في الهواء كأنها غير جدّية لا تحمل خطراً ، آتية من نوافذ البناية الزجاجية الشاهقة ، ورأيت الناس يسقطون بصمت ،

مضروبين بالرصاص ، و تمرّ عليهم الأقدام المتلاحقة ، ، والناس قد انطلقت تجري في كل اتجاه ، وكانت موجة الناس تصعد وتهبط ، ورأيت الأجسام التي أمسكت بها النار تلقى من النوافذ العالية ، وتتقلب في الهواء ، وتسقط بعيداً في البحر ، وكانت الرؤوس تطفو فوق الأمواج مفتوحة الأفواه بصرخة لن تصمت أبداً ، ورأيت وجهها الذي أحبه ، ويرودني في حلم مستمر ، يسبح في مياه حبّي التي لا تغيض ، ساطعاً بسمرته الخمرية وسط زبَد الرؤوس المتلاطم من غير صوت ، وأحسست الطعنة في قلبي من عينيها الواسعتين بموجها المخضرّ الشبَج ، وسقطت في الغمْر ، ولما أفقت كانت الطعنة مازالت تغوص في عمقي الذي ينصهر ويتقد ويفيض حمماً كالبحار الوحشية الجموح تنسكب متوهجة تتجّ باللظى وتُغرق جسمي في ضرام اللهب ، وأحسست أجنحة الحمام المشتعل بوهيج النار ترفرف حولي وتصعد بي ، في زرقة السماء الصحو الناعمة ، محترقاً من غير انتهاء .

(تمت)

الفهرس



ادوار الخراط ، واحد من الروائيين المصريين المتميزين .. الذين انتجوا لأنفسهم اسلوبا جديدا فى النحت اللغوى والحفر اللفظى ، استطاع به أن ينتزع لكتاباته مكانا قصيا فى نفوس قرائه .

ادوار الخراط عاشق متيم لكل ما هو سكندرى ، وقد استطاع أن يصيغ منتهى عشقه هذا فى تلك الرواية الرائعة .. « ترابها زعفران » .. التى يقول عنها النقاد بأنها واحدة من أفضل ما كتب ..

فى هذه الرواية ستقرأ أحداثاً مكتوبة وكأنك تشاهدها صوراً مرسومة .. وستعاين ظنوناً وكأنها يقينا مؤكدا .. وستتوصل الى نتائج لم يفعل الكاتب أكثر من التلميح بمقدماتها .. وستشمر برغبة صارمة فى اعادة التعرف الى الإسكندرية من جديد .. لعلك تشم فى ترابها .. رائحة الزعفران .

الصبى يجلس ، بجلابيته البيضاء النظيفة وحذاء « باتا » القماش الذى اغبّر من التراب ، على كرسى غير مريح فى أول صف ، على الآخر جنب نافذة مغلقة الشيش يتخايل من ورائها نور الحجرة ، والى يمينه سيدة بدينة فاض جسمها من على الكرسى والتصق به ، فى فستانها « الساتان » الأخضر تحت ملاءتها التى سقطت على ظهر الكرسى وراءها ، وعلى حجرها طفل نائم بعمق فى ضجيج النداءات والهتافات وصراخ أطفال يجرون بين الكراسى يثيرون التراب أو يتشبسون بفساتين أمهاتهم. كان أعضاء التخت يجربون موسيقاهم ، أصوات العود التى ترن فى جوف الخشب ، والكمنجة التى تئن فجأة بنغمات خادشة رفيعة ، والعجوز الذى يلبس طربوشا ينز العرق على حافته يحضن عوده وينطق بشىء بين فكيه المطبقين ، وبجانبه الطبال الجسيم الوجه مدور وأسمر ومنقور بحفر جدرى قديم ، فى جلبابه الأبيض ذى الياقة الجافة المفتوحة على لغد مترجرج ، ينظر الى الناس بعينين نصف مغلقتين من الدهن حولها ..



دار الأحمدى للنشر

